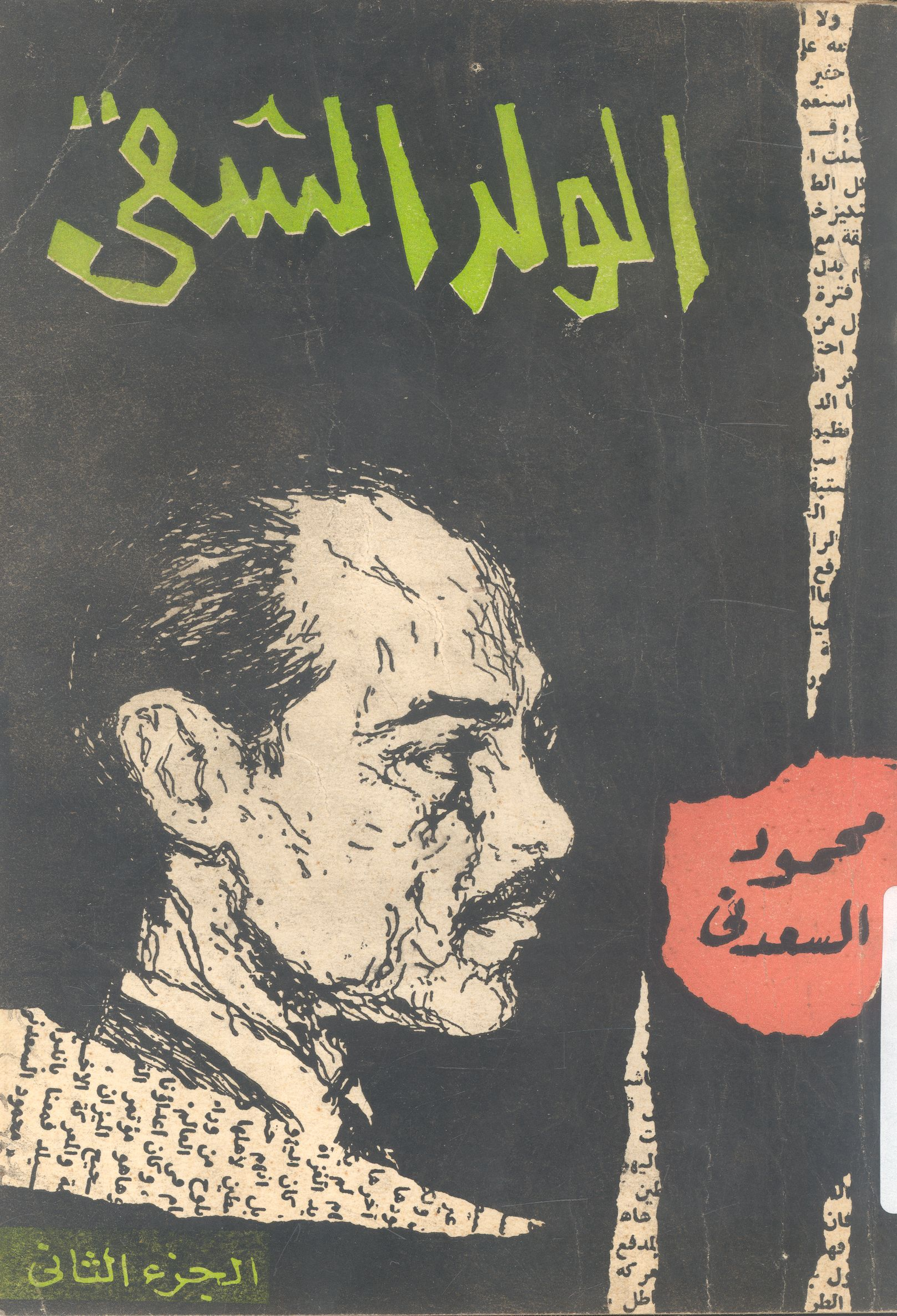


الولد الشقي
محمود السعدني
الجزء الثاني

روز اليوسف

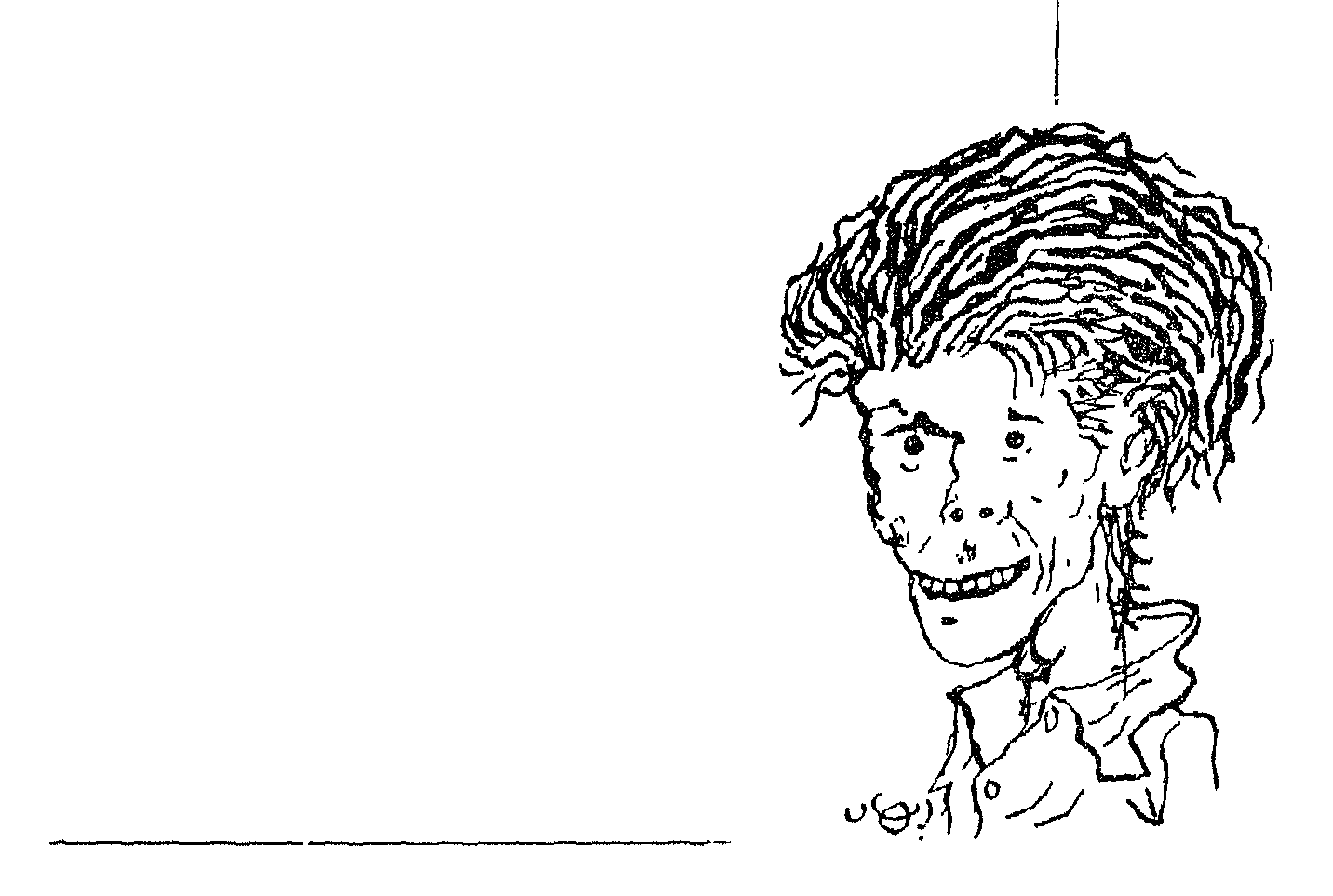
قصص



الولد الشقى

الجزء الثانى

محمود السعدنى



مقدمة

في هذا الكتاب ستقرأ أسـماء وهمية وأحداثا وقعت بالفعل ٠ وهي أحداث لم يكن لى أى فضـل في تأليفها ، ولكنني ذكرتها كما حدثت وصورتها كما وقعت بلا رتوش ٠ وهذا الكتاب ليس قصة الصحافة ، ولكنه قصة اشتغالى بالصحافة ! واذا كنت قد خضـت خلال رحلتي في الصـحافة ، خرائب ومتاهات وصناديق قمامة ، فالذنب ليس ذنب الصـحافة ، ولكنهـا الظروف والمرحلة التاريخية التي عاصرتهـا ثم حظى التعيس حتى النهاية ٠

وللانصـاف والتاريخ أقول أنه رغم اللوحة المظلمة التي رسـمتها في هذا الكتاب فقد كانت هناك نقط بيضـاء ومضيئة وباهرة ٠ الى جانب الأخ علوى السـمين كخنزير برى ، الغبى كفحل

جاموس منوفى ، كان صحفيون بالمئات يدخلون السجون دفاعا عن رأى والتزاما بمبدأ • والى جانب مجلة السحاب الرخيصة ، كانت صحف بالعشرات تغلق وتصادر ، وكتاب يطاردهم البوليس كما يطارد السبع الجائع غزالا شاردا فى غابة • ورغم كل شىء فقد كان جيش الأمة المسلح بأقلام وأوراق هو الذى ثار ضد النظام الملكى قبل أن يتحرك جيش الأمة المسلح بمدافع وبنادق ليهدم النظام من أساسه ويخلع الملك من فوق عرشه •

ورغم كل شىء ستظل الصحافة المصرية تفخر بعشرات من نجومها اللامعين ، هؤلاء الذين تحولت الأقلام فى أيديهم الى مدافع ، وتحولت الجرائد على أيديهم الى ساحات قتال • من عبد الله النديم الى

مصطفى كامل الى الشيخ على المؤيد الى لطفى السيد الى طه حسين وعباس العقاد الى الدكتور محمد مندور الى كوكبة الصحفيين الشبان الذين يمثلون مكان الصدارة فى صحافة جيلنا الحاضر .

وعلى أية حال . فهذا الكتاب ليس تأريخا وليس تسجيلا ، ولكنه مجرد خواطر وانطباعات وذكريات حزينة ومريرة عن فترة من أعنف فترات مصر وأكثرها قلقا واضطرابا وازدهارا وطموحا ورغبة فى تجميل الحياة .

واذا كانت سطور الكتاب مريرة ، فلأنها الحقيقة ، وليس أوجع من الحقيقة ، وليس أشد ايلاما منها على النفس !





١

وهكذا أصبحت صحفيا ٠٠ فذات صباح مبكر من عام ١٩٤٦ خرجت من الجيزة أسعى وراء طوغـان الذى كـان قـد سبقنى وجرب حظه فى صحف ومجلات كثيرة أغلقت كلهـا أبوابهـا ! خرجت أسعى خلفه ببنطلـون مجفف أخفت الجاكتـة عورته وجاكته كاروهات كانت فى الاصل بطانية ٠٠ وكل عدتى قلم حبر رخيص وكشكول فيه بعض الازجال ٠ وأول هذه الازجال كان عن عسكرى الداورية ٠ هذا البعبع أبو شنبات الذى هو مفروض ان يكون حارسا على الطريق فاذا به قاطعه !! ومنـــذ اللحظة التى بدأت أتحرك فيها قاصدا عالم الصحافة كانت فى ذهنى فكرة لم تستطع التجارب والايام أن تمحوهـا من ذهنى فكرة استقرت فى عقلى بفضل مقالات التابعى والصاوى وفرج جبران !

فكرة ان الصحافة صاحبة جلالة وان لها بلاط ٠ وانها حفلات ورحلات ونجم صحفى مشهور يكتب وهو جـــالس على كرسى فى مقهى انيق فى الشانزلزيه ، ونسوان كما القشطة الصابحة تعاكسه وتباكسه وتجرى وراه ٠٠ وزعماء يستيقظون فى الليل على هدير صوته ، ووزارات تســـقط تحت هول كلمـــاته ، وعدل يقوم وظلم يندك بفضل توجيهاته وتعليماته ، وغضبة عنترية قد تؤدى بالاستاذ الى السجن ٠٠ ثم يخرج بعد أربعة أيام ليحكى للناس قصة كفاحه العظيم داخل الزنازين الباردة ٠ ولكن منظر الصحف التى طرقنا ابوابها لم يكن يطابق صورة الحلم الذى فى أذهاننا ! مجلات فى العتبة وشارع محمد على وفى

عابدين اسمها الخميس والكوكب والشهاب المضيء . ولقد كنت أتخيل أن وراء الجدران يعيش العشرات من رهبان الفكر وحملة الاقلام وأصحاب القضية .. ولكن من النظرة الاولى على من كانوا داخل هذه الجدران شعرت بمدى بؤس هؤلاء الناس وفقرهم .. ولكن نظرتي الاولى اليهم لم تكن كافية لأن أتخلى عن فكرتي القديمة عنهم كرهبان رأي وأصحاب قضية !

ولقد دخت وراء طوغان دوخة الارملة الوحدانية . واستطاع هو أن يشق طريقه بسرعة لأنه كان يحمل بضاعة تختلف .. فبينما كان هو يبرز لهم رسوما .. وهي عملية لايستطيع كل انســـان أن يصنع مثلها كنت أحمل أنا بضاعـــة مغشـــوشة .. لأنها هكذا هي مهنة الكتابة .. فكل انسان يستطيع أن يكتب ، وكل كتابة هي مثل الاخرى ، لولا بعض الفروق . ولكي نكتشف الفرق فلابد من ميزان كميزان الذهب هو الذي يحدد أي الكتابات أنفع وأبقى ! ..

ولكني في النهاية ورغم ذلك وصلت ! فرحلة طولها ألف ميل تبدأ بخطوة واحدة .. ورحلتي لم تكن ألف ميل ولكنها كانت سبعة أميال فقط ، من بيتنا الى شارع الخليج المصري ، وفي دكان في بيت كان يوما ما أسطبلا لحمير أحـــد المماليك البحرية ، ومن هذا الاسطبل بدأنا أول عمل صحفي . كانت المجلة اسمها السحاب ، وكان صاحبها كامل بريقع يرحمه الله عامل طباعة استطاع في أيام سطوة البوليس السياسي اســـتخراج رخصة صحفية باسمه ، ولـم يكن للصـحيفة موعـد محـدد للصدور ، وكانت معروضة دائما للايجار كأنها شقة مفروشة . وكان يتصيد زوار مصر من البلاد العربية لينشر لهم صورا على طول الصفحة ، و « نبذة » عن تاريخ بلادهـــم وفصـــولا عن كفاحهم .. وكان يسترزق من هذا العمل بما يكفيه . وكان هؤلاء الضيوف من التفاهة وقلة القيمة لدرجة أنهم كـــانوا يشعرون حقا بالسعادة لأن صحف مصر قد التفتت اليهم .. واستأجرنا مجلة السحاب من كامل بريقع ، وأصدرنا منها عدة اعداد رافعين عليها شعار : « مجلة الشباب والطلبة والجيل الجديد » وأخذنا كارنيهات من المجلة بتوقيع كـــامل بريقع . كارنيهات تقول ان العبد لله محرر (كذا) في الجريدة ، وقـد وقع كامل بريقع باسمه تحت عنوان كبير « المدير العام » !!

ولقد كان كامل بريقع نموذجا لمئات والوف من الناس كان يزخر بهم العصر . كان شديد الجهل شديد الذكاء .. وكان كثير

المشاكل يسكن مع عائلته الكبيرة فى بيت حكر بالقلعة ! ..
ورغم انه كان يكسب كل يــوم خمسة جنيهات الا أنه كان ينفق كل يوم أربعــة جنيهــات على المزاج . فقــد كــان مدمن حشيش ، وكان يدخن باستمرار ويستحلب الأفيون كل لحظة ويحتسى فناجيل القهوة بلا حساب وكان يبدو وكأنه يرغب فى أن يغيب عن الوعى الى ماشـــاء الله .. وكـــان فهمـــه السيـــاسي ينحصر فى الخلاف بين عـــلى ماهـــر والسراى .. وفى التعديل الوزارى القـادم .. وكان هـــو دائمـــا مستعدا لكل تعديل وزارى ، لا ليسير فى ركابه كمـا تظن !! ولكن لسبب تافه للغاية .. فقد كان كامل بريقع يحصل على اعلانات حكومية للصحيفة بخمسين جنيها كل شهر . وكان هذا المبلغ هو مورده الثابت . ولذلك كان دائما شديد الحرص عند كل تعديل وزارى على أن يعرف من هو مدير المطبوعات الجديد . فاذا كان رجلا سبق له التعامل معه ، بدا شديد الســـعادة والرضا . واذا كان شخصا لا يعرفه ، عاش فى هم شديد وقلق بالغ ، حتى يقرر الرجل استمرار صرف مقطوعيته من الاعلانات الحكومية ، وعندئذ يعود سيرته الاولى ، الى دكان الصحافة يلف سجاير الحشيش ويستحلب قطع الأفيون ويحتسى فناجيـل القهوة بلا حساب ! وعرفت عم كامل عن كثب . وكان اذا التقى بضيوف فى المجلة بدا أمامهم كأنه احد صناع السياسة المصرية فى تلك الفترة من الزمان . فاذا خلا لنفسه بدا على حقيقته . مجرد بائس .. شديد القلق شديد الفلس دائم البحث عن مورد جديد لاكل العيش ، ولقد أدت به هذه الرغبة المجنـــونة الى ارتياد الطريق الصعب . فسرعان ما اكتشفت ان صحيفة عم كامل هى مأوى لعشرات من النصابين والمحتالين .. ولكنهـم والحق أقول أبرع من عرفت من هذا النوع من الناس . وانهم جميعا أصحاب مواهب وذوى ارادة ، ولو أحسن تربية هؤلاء الناس وتوجيههم لكان لبعضهم شأن عظيم . ولقد التقيت فى هذه الصحيفة بالرجل الذى باع الترام . ونصاب آخر خفيف الدم شديد الذكاء اسمه كساب !! وهو فنان نصب ، لانه يحس وهو ينصب بنفس النشوة التى كان يشعر بها تشيكوف أثناء كتابة قصة ، وبنفس السعادة التى كان يشعر بها رمسكى كورساكوف وهو يؤلف شهر زاد . والحق انه كان يعزف وهو ينصب . ولم تكن هذه الفئة كلها تتجه فى نصبها على الفلاحين

أو الفقراء ولكنها كانت تنصب على فئة الخواجات والحكام وأصحاب النفوذ • وكانت الفكرة بسيطة • تذاكر مذهبة لحفلة خيرية تحت الرعاية السامية الملكية ونصاب عامل يستعينون به ، أى أنه نصاب ليس له حصة فى عملية النصب ولكن له أجر يومى يتقاضاه سواء نجحت العملية أم فشلت • وكان هذا النصاب العامل يرتدى زيا خاصا كسعاة البنوك • وكان يعتنى بمظهره وهندامه عناية كبرى لانها كل رأس ماله فى الحياة • وكان يستعمل موتوسيكلا فى مشاويره • وكان دور كامل بريقع فى العملية هو طبع التذاكر فاذا انطبعت تولى احدهم الاتصال بأصحاب الشركات فى التليفون « آلو •• محلات عمر أفندى ، انا على ماهر باشا ، صباح الخير ياخواجا ، فيه حفلة فى الاوبرج تحت الرعاية الملكية ، أيوه هانبعت لك عشر تذاكر ، التذكرة بعشرة جنيه ، شكرا » •

وكانت هذه العمليات تجرى فى حجرة خشبية ليس بها سوى مكتب وتليفون • وكثيرا ما كان النصاب الاجير يقع فى يد البوليس ، ولكن النصابين الكبار كانوا دائما فى أمان • وحتى اذا سقطوا فى يد العدالة بشهادة النصاب الغلبان كانوا سرعان ما يطلق سراحهم لعدم توافر الادلة !!

وأغرب شىء أن هؤلاء الناس كانوا مطاردين من البوليس الجنائى وكانوا فى الوقت نفسه على صلات طيبة بالبوليس السياسى • فهم يتحركون فى قطاع عريض من الحياة • ولهم صلات وطيدة بالمطابع وهى صلات تجعلهم يتعرفون على طابعى المنشورات السرية من الطلبة والعمال • ومعلوماتهم فى هذا المجال ذات فائدة عظمى !

وذات مساء قدر لى ان أهجر صحيفة السحاب الى غير عودة • لقد ألقوا القبض على كامل نفسه فى عملية نصب من هذا النوع • وجاءت زوجته تصرخ عند الدكان وتلطم • ولكن أخبار كامل لم تنقطع أبدا عنى •

وفى أعوام الثورة الجزائرية الاولى عثر على شخص هارب من ليبيا • وكأنما عثر على كنز لايفنى • واستطاع كامل ومعه الليبى الهارب أن يسببا متاعب لا حد لها للثورة الجزائرية •

فقد ادعى الليبى الهارب واسمه مسعود أنه جزائرى محكوم عليه بالاعدام • واصدر كتابا عن كفاحه وجهاده فى الثورة • واستطاعوا ان يبيعوا من هذا الكتاب عشرة آلاف نسخة كل نسخة بخمسة جنيهات •

وسافر مسعود بكتابه الى الكويت والاردن والسعودية • وفى النهاية مات مسعود وحيدا فى مستشفى القصر العينى !

والتقيت بكامل بريقع بعد ذلك ولآخر مرة منذ عشرة أعوام عندما جاءنى يطلب منى ان ابحث له عن عمل فى دار صحفية كبرى • ولم يحضر بعد ذلك ، ولم ابحث له أنا عن عمل • ثم عرفت بعد ذلك انه مات •• يرحمه الله !

ولم يبق من هذه الصحبة الا عم كساب • ولايزال على قيد الحياة • وهو رجل قادر على ان يصبح أى شىء فى أى لحظة • فهو تاجر وأحيانا طبيب ، وأحيانا صاحب شركة •

وذات مرة أصدر صحيفة اسبوعية كبرى اشتغل فيها عدد من الصحفيين اللامعين اليوم • ولقد رأيته ذات مرة فى حفل دعت اليه هيئة التحرير فى بداية تكوينها • وكان يرتدى زيا باكستانيا باعتباره من كبار المسلمين فى دكا وقد جاء ليهنىء بنفسه !!

وقصص ومغامرات كساب تصلح افلاما ولا افلام جيمس بوند • فقد افتتح عيادة فى أحدى قرى الريف واجرى عمليات لعشرات انتهت كلها بالوفاة • وأخذ أجر العملية وأخذ رشوة من أهل الميت نظير أن يمنحهم الجثة لدفنها بدون تشريح !

ولقد خرجت من تجربتى الاولى فى الصحافة بحسرة • وفقدت تلك الصورة الزاهية الالوان عن صاحبة الجلالة وبلاطها • وأدركت ان البلاط هو الواجهة • ولكن فى القفا بدرونات ومزابل ومطابخ ذات رائحة عبقة ••

ولم يمر وقت طويل حتى صدرت صحيفة نداء الوطن • اصدرها ناظر مدرستى القديمة، مدرسة المعهد العلمى الثانوية• وكان قد أصبح نائبا على مبادىء الهيئة السعدية • وكان رئيس التحرير يدعى مختار •• وكان شديد المهابة شديد الاحترام •• اهم ما يميزه خمسة أقلام حبر انيقة يضعها فى جيوب جاكتته بشكل بارز •

ولقد رأى مختار اننى صغير السن الى درجة اننى لا أصلح للكتابة • وعندما اصطدمت به فصلنى صاحب الجريدة • وبعد أعوام قليلة من هذا الحادث • عرض رئيس تحرير مجلة مسامرات الجيب بعض مقالات مختار على العبد لله لأبدى الرأى النهائى فيها !



٢

وخرجت من نداء الوطن وعدت اسرح خلف طوغان من جديد • وكان المشوار هذه المرة الى مجلة الكشكول • وفى هذه المجلة التقيت برجل من طراز عظيم ، ولقد احترمتــــه فى أول لقاء ولازلت احترمه • كان اسمه محمد حمدى • وكان سمينا وطيبا وفى رأسه أحلام كثيرة • وكان دائم الحديث عن مشروعات ضخمة ودور صحف تقام ، ومرتبات بمئات الجنيهات ، ونسخ بالملايين وبالبلايين ، وكان ساحر الحديث يستطيع أن يقنـع حتى الصخور وحتى الحمير ! ولكن عند التجربة ، كان حمـدى يرحمه الله يسقط دائما • ولذلك اكتفى خلال رحلـــة حياته باصدار الاعداد الاولى من الصحف الجديدة ، ثم الاســـتقالة لاصدار مشاريع جديدة !

ورغم استقالة محمد حمدى فقد بقيت انا فى الكشكول • فقد كان على رأس الجريدة رجل طيب يدعى أمين اسماعيل ، وكان أمين على علاقة بالاخوان المسلمين ، ولكنه كان صاحب مزاج ! ولقد ارادوه درويشا من دراويش الاخوان فأصبـــح درويشا من دراويش الحياة •• ولقد بقيت فى الكشكول ثلاثة شهور نشرت فيها أزجالا ومقالات ثم أغلقت أبوابها • وشعرت بالحزن الرهيب فقد كان وقتا قصيرا كالحلم •• ولكن فقدت فيه أعظم منبر وقفت عليه تلك الايام !

وعدت من جديد اسعى وراء طوغان ، وفى هذه المـــرة كان السعى الى مجلة السوداى • وكان زكريا الحجاوى صديقنا القديم قدسبقنا الى مجلة السوداى • وفى اللحظة التى وقع فيهـــا بصرى على زكريا فى المجلة ، ادركت وانا شـــديد الحسرة أن زكريا الحجاوى لايصلح لهذه المهنة ، ولا يصلح لمنصب المدير !! فلقد تخلى زكريا الحجاوى عن رداء الفنان الذى يصلح له ودخل

فى ثوب المدير . وراح يتكلم بحساب ويومىء بحساب ، ويكبس الطربوش بعناية وهو داخل الى مكتب رئيس التحرير !

وفى السوادى التقيت بكثيرين . خليل الرحيمى ، وأحمد عباس صالح ، وعمر رشدى ، وعبد الفتاح غبن ، وآخرين ، وكانت الكتابة هى العملة السهلة فى مجلة السوادى ، ولكن الاجر كان أصعب من الاسترلينى والدولار !

ولم البث أن أصابنى يأس قاتل . هذه هى الصحافة ، وذلك هو بلاط صاحبة الجلالة !!! ... خير منه الاسفلت والرصيف .. وتركت كل شىء فجأة وعدت من جديد الى حوارى الجيزة وشوارعها ، الى قهوة مرعى أحيانا وقهوة أمين أحيانا : وهأنذا أقف وحدى الآن فى الحياة وكل شىء يمضى من حولى . فلا تلميذ أنا أصبحت ، ولا موظف أنا اكون ، ولا صحفيا انا استطعت . ولا رغبة عندى فى التلمذة ولا رغبة فى الوظيفة ولا مشاريع جديدة فى بلاط صاحبة الجلالة!

وأصدقاء الطفولة الذين كنت قد تركتهم خلفى فى الجيزة تبددوا جميعا وراح كل منهم بأسلوبه يصارع الحياة ، بعضهم استطاع ان يتلاءم مع ظروفه ، وبعضهم استطاع ان يتلاءم عليها! ولكن أنا وحدى الذى لم استطع ان اتلاءم معها ولم استطع أن أتلاءم عليها . فوقفت وحيدا كما خيال مآته مرشوق فى بطن الارض وسط حقل من الضياع والفشل والهوان ! ..

واعترتنى تلك الايام لحظات يأس عنيفة ، وفكرت أحيانا فى الانتحار ، وشرعت ذات مرة فى تنفيذ ما عزمت عليه . وذهبت الى شاطىء النهر ووقفت اتفرج على التيار . كنت أحمل فى يدى كراسة قديمة جلدتها صفراء وبالحبر الشينى كتبت على الجلدة « مسافر بلاوداع . مجموعة قصص مصرية تأليف الكاتب المشهور محمود السعدنى . حقوق الطبع محفوظة للمؤلف » . وكنت قد كتبت خلال بداية فترة الصياعة مجموعة من القصص القصيرة وكانت أول قصة فيها قصة جندى سافر الى الحرب ولم يعد . وجنت أمه ووقفت تنتظر عودته كل مساء ، ولكن القطار كان دائما يدخل المحطة فى المساء دون ابنها ، ومع ذلك ظلت تذهب الى المحطة وتنتظر . وذات مساء حضر القطار وفيه ابنها ، ولكنها تعثرت وسقطت تحت عجلات القطار فى نفس اللحظة التى كان الابن الغائب يقفز من القطار الى رصيف المحطة . وماتت الام دون ان يراها ودون أن تراه .

قصة كنت معجبا بها غاية الاعجاب ، لان اصـــدقائى كانوا يستمعون اليها باعجاب وحماس ، ولعل السر فى ذلك هى انها كانت على طريقة « يوسف وهبه ! » فى تأليف الروايات ٠٠ وفكرت فى أن أخلع ملابسى واتركها عند الشاطىء ليعرف الناس ان شخصا ما قد غرق فى هذا المكان ٠ وفكرت أيضا فى ان اضع الكراسة فوق الملابس لكى يعثروا عليها فتنشرهـــا الجرائد والمجلات ٠ واذا كنت انا المؤلف لم أستطع الحياة ، فلا أقل من أن توهب الحياة لهذه القصص التى هى من صميم الحيـــاة !! أو هكذا كنت اعتقد تلك الايام !

واذكر اننى بكيت وانا واقف عند الشاطىء اتأمل الامواج والتيار ٠ وقلت فى نفسى وأنا انظر الى الحياة تموج من حولى ، يا للعار ، هذه المدينة المترفة الجبارة التى يبعثر اهلها الوف الجنيهات كل ليلة على موائد القمـــار لاتســتطيع ان توفر لى عشرة جنيهات كل شهر هى كل ما كنت اتمناه من الحياة ؟!

ولكن فى اللحظة الاخيرة خانتنى شجاعتى ، وكان الظلام قد حل على الكون ، وأصبح الشاطىء أكثر وحشة واكثر كآبة !! فاطبقت بشدة على الكراسة وعدت من جديد الى قهوة السروجى لألعب الكومى كما اعتدت كل مساء ٠٠





٣

وكانت قهوة السروجى فى مواجهة بيت طوغان ، وكانت شيئا فريدا بين مقاهى ذلك الزمان · كانت كل الكراسى من الخشب الزان والقش المجدول بعناية ، وفى الجوانب تتناثر بعض الدكك ولكنها دكك تصلح للمتاحف ودور الآثار · دكك من العهد المملوكى بالخشب الاويما وبالصدف والعاج · وعلى حوافيها آيات قرآنية وبعض الحكم والامثال وكان عم السروجى نفسه رجلا مهابا محترما قليل الكلام · طالت ايامه فأصبح فوق السبعين ولكن احدا لم يره أبدا بعيدا عن مكانه خلف الكيس والشيشة فى يده والخواتم تلمع بين اصابعه وهو جالس كعمدة من عمد الريف فى جلباب كشمير وحذاء برقبة وصديرى بلدى والشيشة دائما فى فمه وجمرات النار تتقد على دخانها العجمى بلا انقطاع · وكانت النصبة على يمينه ليتمكن من مراقبة الطلبات ، وخلف النصبة حوض ماء تصب فيه حنفيتان ، واحدة للماء الساخن والاخرى للماء البارد المثلج ، وكان أغلب المارين فى شارع عبد المنعم يقتحمون القهوة بلاأحم ولا دستور ليشربوا الماء المثلج وكأنها سبيل أم عباس ··

وكان المعلم السروجى يتصرف مع هؤلاء الناس بطريقة واحدة لا تتغير اذا كان المتطفل رجلا نظر اليه نظرة جهنمية وقال لامؤاخذة ·· الحنفية عطلانة · واذا هجم على الحنفية قذفه بالماشة التى يصلح بها النار فى وجهه أو فى رأسه فيترك الولد المضروب الكوز ويجرى خارجا يصرخ ويترنح وكأنه كلب مسعور أصابته طلقة فى المليان ·

وعلى مقهى السروجى تعرفت بعشرات من النماذج البشرية ليس لها مثيل فى الكون · عم سيد خليفة الذى كان يسرح فى حوارى الجيزة بقفص فراخ ليس فيه فراخ ولا كتاكيت ولكن

بظروف مقفولة يبيعها للتلامذه وللفلاحين القادمين من الارياف وما في داخل الظروف حق صاحب البخت والنصيب ، رغم أن الظروف كلها كانت فارغة ولا تحتوى على شيء • ولكنه بعملية نصب فيها شيء من المهارة وشيء من غفلـــة الزبون كان يغرى الناس بالاقبال على الشراء !

وكان عم سيد فى نظر البعض محتالا ولكنه فى نظر نفسه كان تاجرا وصاحب مهنة تعتمد على المجهود الذهنى والبدنى • وكان شديد الايمان بأنه لا يزال فى بداية الطريق الذى سلكه عمر أفندى وأنه لن يلبث أن يكون مثله عما قريب ••

وكان سيد يكسب كثيرا ، ولكن ارباحه كلها تذهب اول الليل الى خمارة جرانت حيث كان يشرب السبرتو بشراهة ، فاذا تبقى معه شيء من النقود جـــاء ليقامر بها مع رواد قهوة السروجى فى آخر الليل ! وكان غريمه دائما رجلا اعرج يشبه كثيرا الشخصيات التى تزخر بها قصص جوركى • كان اسمه محمود وجاء الجيزة من حيث لايدرى احد •• وجاءها متسولا ثم استوطن بها والتحق بخدمة اسرة كانت تحتكر عربات الكارو ولم يلبث ان اصبح عم محمود معروفا فى الحى وفى الجيزة كلها وذاع صيته لانه كان يقرأ الفنجان ويفتح الكوتشينة • ولم يمض وقت طويل حتى اشترى عم محمود قطعة أرض واصبح من الملاك ومن الزبائن المحترفين فى قهوة السروجى • وكان النصر دائما فى معارك الكوتشينة لعم محمود الهادىء والفشل دائما لغريمه المتهيج المخمور • ولذلك كان الصياح دائما يتصـــاعد فى الشارع آخر الليل ، وكان الصياح من الحدة ومن الشدة بحيث يجذب عسكرى الداورية واحيانا كان ينتهى الحال بهما فى مركز البوليس • وعندما مات عم سيد ذات مساء قتيلا ومخمورا على الرصيف ، انقطع عم محمود من لعب الكومى ، واكتفى بالجلوس بعيدا واسداء النصح الى المقامرين ! وذات مساء هبط على قهوة السروجى رجل له كنبوش وبدلة متجلدة وحذاء فى لون الطين ، وكنت قد عرفت الرجل فى مناسبات اخرى كثيرة سابقة • ولكن وصوله الى قهوة السروجى ، كان كملاك الرب هبط على العبد لله من السماء •

جاء الرجل أبو كنبـــوش الى مقهى السروجى ذات مســـاء وكانت الليلـــة ممطرة وموحلة وبردها قارس ، وكان المعلم السروجى يجلس فى مكانه المعتاد والشيشة فى فمه يتطلـــع

الى الزبائن فى سكون كأنه اله يرعى عبيده الطيبين ، وعندما وقع بصره على الرجل أبو كنبوش انتفض واقفا وصافحه بحرارة ، وتخلى عن مكانه القديم وجلس معه وطلب واحد شاى ميزة مخصوص للبيه ٠٠ وكأن انتقال المعلم السروجى من مكانه والجلوس مع زبون على مقعد قش عادى حادث غير عادى فى مقهى السروجى ٠

وسرعان ماتهامس الزبائن الموجودون تلك الساعة عمن يكون الزبون المحترم الذى شرف المقهى فى هذه الساعة المتأخرة من الليل : وقال أحدهم وهو رجل طويل متين البنيان اسمه عم زكى ، وكان تاجر خضار يسرح بعربة يد فى شارع عبد المنعم ، وكان أجش الصوت كثير العراك شديد البأس اذا خاض معركة فى الشارع فتك بكل من يقف فى وجهه ٠٠ وكان عم زكى يؤكد أن سبب قوته الخارقة هو شغفه الشديد باللبن الزبادى ٠٠ وكان يقسم بأغلظ الايمان أن جده مات بعدحياة طويلة امتدت الى مائة وعشرين عاما ، وأنه تزوج من بنت عذراء وأنجب منها ولدا قبل موته بعام واحد ، وكان هذا الولد الاخير هو والد عم زكى ٠٠ وكان عم زكى رغم بأسه وقوته المفرطة يخاف على نحو خاص من عساكر البوليس ٠٠ وكان يحترم أى رجل له علاقة بالحكومة ٠٠ ورغم أنه كان بخيلا بشكل ملحوظ الا أنه كان ينفق أموالا طائلة لكى يتعرف على مخبر عين حديثا فى المركز ، أو لكى يسهر ليلة واحدة مع الصول الذى يباشر مهمة الضابط النوبتشى ٠٠ لذلك همس عم زكى فى أنحاء المقهى ، فغادر المقهى أكثر من زبون ، كان بعضهم يحمل مخدرات معه ، والبعض الآخر كان لا يحرز أى شىء مخالف للقانون ٠٠ ولكنهم آثروا الانسحاب حتى لا يعرضوا أنفسهم لأى خطر متوقع ٠٠ غير أن الرجل أبو كنبوش لم يكن ضابط مباحث ولم يكن له علاقة بمركز البوليس ٠٠ فقد أشار المعلم السروجى نحوى ، وهو يتبادل الحديث مع الضيف ٠٠٠ ثم دعانى للجلوس معهما ٠٠

وعندما قدمه الى ٠٠ اكتشفت أن اسمه على وأن البيه صحفى كبير كما أكد المعلم السروجى ، وأضاف أن البيه يريد أن يقرأ شيئا من انتاجى تمهيدا لتعيينى فى منصب

كبير فى المؤسسة التى يملكها ·· وعندما أبرزت من جيوبى أوراقا بها أزجال ·· وقصص ، ومقالات ، اختار البيه عـدة أوراق وراح ينظر فى سطورها بعدم اهتمام ، ثم هز رأسـه فى النهاية وقال عفارم عليك ·· دى مقـــالة جامدة قوى !! وقال المعلم السروجى فى اهتمام بالغ ، صحيح ؟! واستبدت بى الدهشة لان الشىء الذى قرأه البيه المهم لم يكن مقـــالا ولكنه كان قصة قصيرة من صميم الحياة ! ومع ذلك لم أتوقف عند هـــذه الملاحظة طـــويلا ، وظللت أكتب مقالات وقصصا وأعرضها على البيه وأنتظر صدور المجلة الجديدة · وكم كانت فرحتى شديدة عندما اكتشـــفت أن البيه هو نفسه الـذى يسكن فى بيت طـوغان وفى الدور الارضى وفى شقة منزوية ومظلمة وأنه يقيم حفلات ساهرة فى شـقته يحضرها خميس بائع الكازوزة المشاغب !! ويحضرها أيضا بعض الشخصيات المريبة فى الجيزة ·· ولقد رأيت البيه فى مرات كثيرة سابقة وعندما سألت عم خميس أكد لى أن البيه صحافى كبير وأنـه مدير عام مجلة الساعقة « الصاعقة » وأنه غنى ينفق عن سعة وأنه صاحب نفوذ فى الحكومة بدليل أن عـــددا من ضـباط البوليس يترددون على شقته !! وعبثا حاولت أن أعرف اسم البيه كاملا ولكن الجميع كانوا يعرفون أن اسمه على ولا أحـد يعرف اسمه الكامل ·· وأن كل المعلومات التى لـدى معارفه قد استقوها من على نفســه ، وأن أحـــدا منهم لم يزره فى مكتبه ، كما أن أحدا منهم لم يره مشغولا بعملـه فى يوم من الأيام !!

وذات صباح شفيت من داء الانتظار ، فقد اقتحم البوليس شقة على واقتادوه معهم الى القسم بعد أن زفوه فى الشوارع وضربوه على قفاه ، وتركوا الاولاد يلطخون ملابسه بالطـين ويرجمونه بالحجارة ·· ولقد ضبطوا فى منزل على مسروقات لاحد لها ، وتبين أنه نصـاب عريق وأن له سجلا حافلا من السوابق ، وأنه كان ينتحل صفة محرر بمجلة الصاعقة التى كانت ذائعة الصيت تلك الايام ·· ولقد كان خميس المشاغب هو أكثر الناس شماتة فى على ، رغم أنه كان صديقه الوفى !

ولم أفهم سر شماتة خميس الا بعد ذلك بأسابيع ، فقـــد علمت أن النصاب على كان يخفى عند خميس كميات ضخمـة

من المسروقات ، وأن خميس قد استولى عليها بعد القبض على الصحفى الكبير على !! واكتشفت عندئذ السر الذى جعل البيه يخلط بين القصة والمقالة ، فقد كان الاستاذ أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولكنه كان يتمتع بذكاء خارق وصاحب حيلة واسعة ودهاء شديد · ولقد أصابنى الملل بعد ذلك من طول ماجلست على مقهى السروجى وقررت أن أقوم بأى عمل يبعدنى عن جو المقهى الكئيب ·· وكانت جمعية الاخوان المسلمين فى الجيزة تقيم ليالى سياسية فى مقرها القريب من المقهى ·· وقررت أن أنضم الى الجماعة ، فأنا خطيب أجيد مهنة الزعيق والصراخ بالالفاظ ذات الرنين ، وأنا أيضا يكمن فى أعماقى مسجد وسميع أحب تلاوة القرآن ·· وخطفت رجلى ومعى طوغان الى المقر وحررنا استمارتين للعضوية ولكن سببا هاما وقف عائقا أمام انضمامنا للجمعية ، هو أن مسئول الفرع طلب خمسة قروش من كل فرد منا كاشتراك شهرى ، ولما لم يكن معنا صنف العملة بالمرة فقد اعتذرنا وانصرفنا !! والى غير رجعة !

وهكذا عدت من جديد الى مقهى السروجى ·· ولكن الوقت لم يطل بى هذه المرة ، فسرعان ما انتقلت الى مجلة جديدة عندما قرأت أول أعدادها لم استطع ان اذوق طعم النوم ليلة بأكملها · كانت المجلة اسمها « كلمة ونص » وكانت ضاحكة وساخرة وجذابة ·· وكان مأمون الشناوى وصلاح عبد الجيد هما رئيسا التحرير ، ولا تحمل المجلة توقيع أحد غيرهما فى الداخل وقررت الذهاب الى دار المجلة فأنا أكتب شيئا قريبا من هذا الكلام المنشور بها ·· وفعلا طرقت باب «كلمة ونص » ذات ظهر أحمر شديد الحرارة لافح القيظ ، وكان العرق يتصبب من جبينى وشعرى الناعم قد تحول الى كتلة من الطين بفضل العرق والتراب ·· وكانت جيوبى محشوة بأوراق تافهة وليس معى صنف العملة ، وكان كل أملى أن يسمح لى بالجلوس فى دار المجلة حتى العصر كى أتمكن من العودة الى الجيزة فى التراوة ، لاننى سأعود على القدمين !! واستقبلنى مأمون الشناوى بعدم مبالاة وبدون ترحيب ··· وقال على الفور وبدون مقدمات وكأنه قد شبع وارتوى من هذا الصنف من الناشئين المترددين على دور الصحف والمجلات ·· عاوز تكتب ؟ ولما أجبت بالايجاب تساءل فى تهكم ··

وبتعرف تكتب ؟ ولما أجبته بنعم ، أشار على مكتب امامه وقال اقعد كده ورينى ·· ورغم ارتباكى الشديد وخوفى من الفشل فى أول امتحان حقيقى أواجهه ·· فقد كتبت عدة أوراق بسرعة ·· وعندما ألقى عليها نظرة قال وهو يتفحصنى ··· انت اسمك ايه ؟ وهتفت على الفور : محمود السعدنى ، فسألنى وهو يشعل لنفسه سيجارة ·· السعدنى والا السعدانى ؟ قلت السعدنى ، قال آه ، انت عارف السعدان يعنى ايه ؟ ولما أجبته بالنفى ، قال السعدان يعنى قرد ·· والسعدانى يعنى القرداتى ها ها ها !! وهممت بالجرى من أمام مأمون الشناوى ، وفكرت أيضا فى أن ألعن جدوده وانصرف ، ولكنى لم أستطع التصرف ، وظللت واقفا كتمثال لا أتكلم ولا أتحرك حتى هتف مأمون الشناوى : طيب ابقى فوت علينا تانى ! ولم افهم هل هو جاد فى أن أفوت عليه تانى ، أم انه مجرد كلام حتى أمضى من أمامه ؟! وعندما صدر العدد الثانى من « كلمة ونص » وجدت كل حرف كتبته منشورا بالمجلة وكاد قلبى يتوقف من شدة الفرحة ·· ورحت أقرأ ما كتبت أكثر من مرة ·· وانطلقت بأقصى سرعة مستعملا جميع وسائل النقل المعروفة وقتئذ ، فتشعبطت على سلم الترماى ، وفى الاوتوبيس ، وفى المرحلة الاخيرة من الرحلة قفزت على عربة كارو ولم أتركها الا أمام باب المجلة !! ··· ولشدة حزنى اكتشفت أن يوم الصدور هو يوم العطلة ، فعدت أدراجى الى مقهى السروجى ، واعتكفت وحيدا فى ركن بعيد أعيد قراءة مقالاتى القصيرة وأنا أشعر بلذة ليس لها مثيل ·· وشعرت تلك اللحظة ، أن الكلمات المطبوعة لها طعم خاص يختلف عن غيرها من الكلمات ·· وأن الطباعة هى أخطر ما اخترع الانسان ·· وان هذه المجلة الصغيرة التى تنام بين يدى ·· هى أول الطريق الى عالم المجد والشهرة والأحلام !

وفى اليوم التالى كنت أقف أمام مأمون الشناوى يتفحصنى بعينين نصف نائمة نصف مفتوحة ، وكان مأمون يرتدى قميصا من الحرير اليابانى وأمامه على المكتب عدة أوراق وعلبة سجاير فاخرة ، ومنديل من نفس قماش القميص ·· وقال وهو يضحك ، هو انت السعداوى ؟ وقلت كأننى تلميذ خايب

فى مدرسة صارمة التقاليد : لا ٠ أنا السعدنى ٠ وفال مأمون ولا يهمك !! كله عند العرب صابون ٠٠ أقعــد ٠٠ وقعدت أمامه وقال أكتب لنا شوية براويز ٠٠ ورحت على الفــور أكتب كأنني ماكينة ضغط مأمون على زرها لتــدور ! وكنت هذه المرة أكثر شجاعة وأكثر اطمئنانا ٠٠ وعندما انتهيت من كتابة الاوراق أصبحت محررا بالمجلة وبمرتب شهرى ستة جنيهات كل شهر ، فهكذا قال مأمون الشناوى وهو يشــير نحو حجرة جانبية ستصير هى حجرتى لعدة شهور قادمة هى كل عمر المجلة ٠٠ كانت الحجرة واسعة ونظيفة وبها مكــاتب أنيقة ، ولم يكن هناك مكتب مخصص لأحد بذاته ، ولكنهــا كانت مشاعا لمن يجلس ٠٠ والتقيت فى هذه الحجرة بزميلين ربطتنى بهما صداقة طويلة ٠٠ أحدهما هو عــلى الدالى فنان فلاح من قرى المنصورة ٠٠ طرد من وظيفته وجاء الى القاهرة يرتدى بالطو أصفر وبر جمل كان يبدو داخلــه كأنه مدرس الزامى فى احـــدى مدارس الريف ٠٠ وكان على قنانا عــلى دراية واسعة بمشاكل الريف ، وأحوال الفــلاحين ٠٠ وكان قبل حضوره الى القاهرة موظفا فى قسم البلهارسيا ومهمتــه الاشراف على تطهير مجارى المياه فى الريف ٠٠ ولكنه هــرب ذات صباح من الوظيفة ومن المنصـــورة وحضر الى القــاهرة

ليحترف الصحافة ٠ وكان الآخر هو يوسف فكرى وقد حضر من السويس الى القاهرة ٠٠ ليعمـــل سكرتيرا للتحرير ٠٠ وكان طويلا ونحيفا وطيبا وكذوبا ، ولكن أكاذيبه كلها كانت بيضاء ٠٠ وفى نفس الحجرة كان يجلس رســام كاريكاتيرى اسمه مجدى كان شهيرا ولامعا تلك الايام ٠٠ وكان يعمـــل فى مجلة روز اليوسف قبل ظهور عبــد السميع !! ورغم أنه كان يحترف الفن ألا أنه لم يكن يؤمن بالفن كوظيفة لها غاية فى الحياة ٠٠ وكان الفن فى رأيه مجرد أكل عيش أو وســيلة لزيادة الدخل ، لذلك كان يقف مع قضية ما ويقف ضدها ،

وكان يرسم كلما واتته فرصـــة للرســم ، ويتقاضى أى مبلغ يعرض عليه ، ويدور طول النهــار يلف على دور الصحف يرسم لها ويقبض منها ٠٠ وكان يبدو كتاجر خردوات متجول عديم الأنفعال بارد الأعصــاب الى درجة تغيظ وقد نصـحنى فى أول لقــاء بأن أبحث لنفسى عن مهنــة فى الحكومة لأضمن

لنفسى موردا ثابتا ·· وكان يكرر هذه النصيحه كلما حدثت مشاكل بسبب الفلوس فى المجلة ·· فقد أشتغلت خمسة شهور كاملة ولم أتقاض عنها الا ستة جنيهات فقط ! ولقد قدر لهذه المجموعة أن تلتقى أكثر من مرة فى عمل واحد بعد ذلك ، غير أن مجدى الرسام لم يلبث أن هجر الصحافة واختفى بعد ذلك بسنوات وقنع بعمله الحكومى بمصلحة المساحة !

ولقد كانت تجربة ·· « كلمة ونص » رغم قصر المدة كفيلة بأن تمنحنى الثقة وتدفعنى الى التمسك أكثر بهذه المهنة التى أحبها ·· كما كانت فرصة لاتعرف على أصدقاء جدد ، وكان مأمون الشناوى هو أهمهم وأكثرهم تأثيرا فى نفسى · وفى بيت مأمون الشناوى تعرفت على كثيرين من نجوم المجتمع ، وعندما رأيت أحمد بدرخان أول مرة فى بيت مأمون كدت أرقص من شدة الفرح ، فقد كانت المرة الأولى التى أرى فيها رجلا من رجال السينما بعينى رأسى ! وكان بدرخان بسيطا وأنيقا وطيبا الى درجة حببتنى فيه ·· وكان يحلم بأفلام كبرى ملونة تفرض نفسها على العالم ، ولكنه عندما ناقش موضوع الفيلم الذى يكتب مأمون أغانيه ، تأكدت أنه لن يستطيع تحقيق أحلامه فقد كانت الفكرة ساذجة الى حد بعيد ! وعشت اياما طويلة تعصرنى البطالة ويرهقنى الانتظار ·· وكان مأمون الشناوى هو قارب النجاة الوحيد الذى أتعلق به للوصول مرة أخرى الى الصحافة ·· ولكن مأمون نفسه كان يعانى هو الاخر من البطالة ومن الفلس ·· ورغم ذلك كان كريما الى حد السفه ، مضيافا ولا الامين ابن الرشيد متلافا لا وزن عنده لما سوف يحدث غدا ·· وشعرت أننى اثقلت على مأمون الشناوى فانسحبت فى هدوء الى الجيزة ولكن هذه المرة الى كازينو شهريار ···وكان المكان هادئا وانيقا وعلى النيل ومقصد العشاق والمشاهير من رجال الصحافة والادب ، والناشئين والمدعين وانصاف الادباء وانصاف الفنانين · ولم يكن لهؤلاء الانصاف حديث الا ما أصاب الحياة الفنية من قحط ، وما حط على دنيا الادب من بلاء وكل فنان مشهور فى عرفهم هو دلدول استطاع الوصول باساليب رخيصة ، وكل اديب معروف هو نذل وخائن للوطن! وكان هؤلاء الفاشلون يعيشون داخل انفسهم ولديهم قدرة هائلة على احترام ذواتهم رغم الفشل ·· ولعل هذه هى ميزتهم

الوحيدة ، وهى التى حفظتهم كل هذه السنين وشجعتهم على البقاء على هامش الحياة الفنية طامعين يوما فى الدخول فيها ، رغم ان كل الابواب كانت موصدة ، وكل المسالك مسدودة ٠٠٠ بسبب ضعف مواهبهم الفنية وضحالة ثقافتهم وقلة خبرتهم بالحياة وبالناس ، ولقد اصابنى الذعر منهم عندمعرفتى بهم أول مرة ٠٠ وأبديت نحوهم احتراما شديدا ، كانوا يدفعون دائما ثمن المشروبات التى نطلبهـــا ، وكانوا أيضـــا يرتدون أفخر الثياب فقد كانوا موظفين فى دواوين الحكومة ولهم رواتب ثابتة ٠٠ ولكن هيافتهم كانت واضحة الى درجة اننى اكتشفتها بعد فترة ٠٠ وعندئذ رحت أمزح معهم فى البداية ، ثم رحت اسخر منهم ٠٠ ولم يجدوا مايعيروننى به الا اننى عاطل ، ولقد حز هذا الوصـــف كثيرا فى نفسى ، ولكنى لم أكف أبدا عن السخرية بهم والتشنيع عليهم ٠٠ وان كان وصفهم لى بالصايع قد دفعنى الى الا لتحاق بوظيفة حكومية ٠٠وهكذا وجدت نفسى ذات صباح موظفا حكوميا فى عمل موسمى بمصلحة المساحة ٠٠ وكان هذا اول واخر عمل رسمي أقوم به فى حياتى ٠٠ وكان العمل هو حصر المساحات المنزرعة في مصر كلهاو تحديدها حسب نوع المحصول ٠٠ وكان المكتب الذى يضمنا عبارة عن حوش كبير تتناثر فيه المكاتب المكسورة المجروحة والقذرة ٠٠ وفى الوسط يقوم مكتب واحد كبير كانه منصة قضاء ، وهنا يجلس رئيس القلم وهو رجل عجوز شديد الاهتمام بشاربه الكث الذى يجعله اشبه بممثل كومبارس فى مسرحية هزلية ٠٠ وكان الى جوارى موظف قديم يرتدى بنطلون شورت ليس من باب الرياضه ولكن لعدم توفر القماش ٠ وكان اسمه جرجس افندى وكان شديد النفاق للبيه المدير ، مع ان المدير كان فى الدرجة السابعة ، وكانت ميزته الوحيدة انه يدخن السجاير من علبة ، بينما الموظفون جميعا يدخنون السجاير الفرط ٠ ولما كنت أنا أصغر الموظفين سنا واكثرهم عدم مبالاة ! فقد اشعت فى المكان جوا مرحا ٠ وكان جرجس أفندى هو هدفى فى البداية ، ثم امتد نشاطى فشمل الجميع حتى رئيس القلم على افندى ٠٠ وبعد ثلاثة شهور كاملة فصلت من الوظيفة !والتهمة اننى أحلت المكان الى سيرك ٠ وكانت التهمة حق ، فمن ذا الذى يوجد فى مكان يحوى كل هذه النمـــاذج من الحيوانات ولا يتحول الى مهرج يتشقلب على ظهره ويمشى على السلك !

ولقد أبدت شلة الادباء الفاشلين شماتته لا حد لها بسبب فصلى .. فهاهو الولد الصايع عاد صايعا كما كان ولا فائدة ترجى من حياته .. فلاهو نفع فى الصحافة ولا فلح فى الوظيفة وأبدوا نحوى اشمئزازا ونفـــورا .. وكلمـا دخلت الكازينو اشاحوا بوجوههم عنى ، فاذا حاولت الاقتراب منهـم ابتعدوا وانتقلوا الى ركن آخر .. وذات مغربية دخلت الكازينو منتفشا كديك رومى وجلست على مقربة منهم وصفقت بشدة للجرسون وطلبت فنجان قهوة سكر زيادة ولم اكن احب شرب القهوةولم اكن اطيق طعمها .. ولكننى تعمدت ان اطلبها لانها كانت ارخص مشروب فى الكازينو .. ولم يكن معى سوى نص فرنك فضه جديد وكنت احتفظ به فى جيب بنطلونى .. ورحت ارتشف القهوة على مهل وانا اتطلع اليهم فى كبرياء .. وعندما دخل احد اصدقائى الشبان وصافحنى قلت له فى هدوء مسموع ، ابقى كلمنى بكرة عشان تشتغل معانا فى المجلة الجديدة . ولم يكن هناك مجلة جديدة ولا اشغال جديدة .. ولكن الهدف كان ان اغيظ الشلة الفاشلة وان يشعروا بالحسرة لاننى حصلت على عمل فى مجلة بينماهم يتطلعون الى العمل فى الصحافة دون جدوى ، وعندما جاء وقت الحساب سقط قلبى فى حذائى ، فقد رحت ابحث عن النص فرنك دون جدوى .. سقط من ثقب فى جيب البنطلون .. ورحت ابحث فى الارض بعصبية شديدة لفتت انظار الشلة نحوى فارتفعت ضحكاتهم تجلجل فى انحـــاء الكازينو . وانهالت تعليقاتهم الساخرة منى .. ولكن الجرسون الطيب الشهم حسين انحنى على الارض والتقط حفنة رمل وكأنه التقط النص فرنك ثم حيانى فى ادب ومضى من امامى كأن الحساب خالص ! تمثيلية قصيرة قام بها الجرسون لينقذنى من المحنه التى وقعت فيها ولازلت احمل لهذا الجرسون الطيب وداعميقا ومنزلة خاصة فى نفسى .. وهو الان تاجر ناجح ومدير اربعة محلات كبرى فى حى الدقى .. ولكنى وبرغم مهارة الجرسون وطيبته المتناهية . وبرغم جو الخريف البارد فقد أحسست بالعرق يتصبب من جسمى كله ، وشعرت بان الارض تدور بى واننى على وشك السقوط مغمى على .. ومشيت كالسكران وغادرت الكازينو الى غير رجعة ..

ياله من احساس رهيب على النفس عندما يصطدم الفاشل بفشله .. هأنذا مجرد ولد صايع فعلا ، فلا شغلة ولا مشغلة

ووقتى كله ابدده فى ان اغيظ شلة كل افرادها اكثر فشلا منى وهأنذا بعد سنوات من الكفاح المرهق الطويل لم أحقق شـيئا ولم اصل الى اى شى بعد وهتف هاتف فى نفسى ٠٠ الى اين ؟ نعم الى أين ٠ الى أين ؟ سؤال راح يلح على نفسى وأنا أجـر خطواتى على الطريق المظلم الطويل المحاذى للنيل فى تلكالليلة من ليالى الخريف الباردة ٠ وبدا السؤال وقتئذ بلا اجابة ، كما بدا الطريق أمام عينى بلا نهاية ، صحيح الى أين ؟ أنا نفسى لمأكن أعرف ، ولميكنهناك أحد يستطيع أنيجيب علىسؤالى ، وارتميت على دكة من الرخام على شاطىء النيل ، وانخرطت فى بكاء عنيف هزنى هزا ٠٠



ياله من احساس رهيب عندما يصبح الانسان الفرد وحيدا في مدينة كالقاهرة ‧‧ مزدحمة وكبيرة ! وفى ليالى الشـتاء المظلمة الكئيبة كنت اضطر الى الخروج من مقهى قاصدا مقهى آخر ، فاذا أغلقت المقاهى كلها كنت أقطع شوارع الجيزة بحثا عن مكان أحتمى فيه من البرد الشديد دون جدوى ‧ فاذاطلع الصباح أسرعت الى منزلنا لالتهم افطارا خفيفا وانام قليلا قبل أن يعود أبى من الخارج ، لاستأنف الصـياعة من جديد حتى يطلع نهـار آخر ‧ حتى المقاهى أغلقت أبوابها فى وجهى لان المشاريب أصبحت بالامر وحتى شلة زكريا الحجاوى هجرتها هى الاخرى لخلاف بينى وبين واحد جديد اسمه سعد ‧‧ أصر زكريا الحجـاوى على أنه أعظم من أنجبت مصر من الادباء وان انتاج الحكيم والعقاد وطه حسين لابد سيتوارى يوما ما خزيا أمام انتاج العبقرى سعد ‧‧ هذا اذا قدر لانتاج العبقرى ان يظهر يوما ‧‧

وكان زكريا الحجاوى يصـدر مجلة اسـمها الميزان ، وقد نشر لسـعد بحثا هاما فى أول أعدادها ‧‧ بينمـا رفض أن ينشر لنا حرفا فيها ‧‧ وعندما ناقشـنا زكريا فى هذا الامر قال فى حماس غريب « سـعد ده هو الاديب العربى الوحيد اللى هيعرف يرد عـلى لينين » وكانت هذه أول مرة أسـمع فيها اسم لينين ‧ ولكنى عند قراءة البحث تبينت مدى فساد عقل سعد هذا ، ومدى فساد رأى زكريا !

ولما كان سعد ابن أسرة ثرية فى الريف ، وميسـور الحال وينفق عن سعة ، ولما كان زكريا يعتمد فى تدخين السجائر على سعد هذا فقد انضم الى سـعد ضـدى وطردنى بغير رحمة من الشلة ‧ وأثرت هذه الحادثة على نفسى تأثيرا كبيرا ‧‧ فقـد

وعطوفا ومدرسا مثاليا ، فقد أعطانى مفاتيح كثيرة للمعرفة كان زكريا الحجاوى هو أهم انسان فى حياتى ٠٠ وكان حنونا وكان له الفضل فى أننى تعرفت على أعلام الفكر والفن والموسيقى : الجبرتى ويعقوب صنوع ورومسكى كورساكوف وابن خلدون والامام الشافعى ٠٠ ولقد استفدت كثيرا خلال الفترة التى عرفته فيها رغم أنه كان لا يقدم لنا أكثر من أسماء هؤلاء الاعلام ٠٠ أما المعلومات فكان علينا أن نبحث عنها بعيدا عن زكريا لأن زكريا نفسه لم يكن من هواة القراءة ٠٠ ولم يكن لديه كتب ! ولذلك كان زكريا سلاحا ذا حدين ، فلكم استفاد هؤلاء الذين التقطوا الخيط من زكريا ثم تابعوه هم أنفسهم بعد ذلك ولكم ضاع هؤلاء الذين اكتفوا بسماع زكريا واطمأنوا الى ان هذا الكلام هو نهاية المطاف وغاية الثقافة ، فلقد كان زكريا يذكر أمام تلاميذه أسماء كثيرة غريبة وكان ينسب الى هؤلاء الاعلام أفعالا لم يرتكبوها ويذكر على السنتهم كلمات لم يتفوهوا بها قط ٠ وكان واسع الخيال الى حد رهيب ٠ حتى أنه حكى لى ذات مرة أن سيدة ثرية من العراق استأجرت طائرة خاصة حلقت بها فوق منزله فى الجيزة لعل قلبه يرق لها بعد أن هجرها دون جدوى ٠ وحكى لى مرة أخرى أن فنانة مشهورة جاءت اليه بعد منتصف الليل وهى ترتدى الملاية اللف والمنديل أبو أوية ، وسارت معه على الاقدام فوق كوبرى عباس بالجيزة ٠ ولما استوضحته اسم الفنانة ذكر فى هدوء بارد ٠٠ اسم فنانة كبيرة !

ولكننى كنت سعيدا بصحبته رغم كل شىء ٠٠ وعندما فقدته ادركت مدى الفراغ فى نفسى ٠٠ ولقد غفرت له مواقفه منى فى أول لقاء لنا بعد ذلك فقد ادركت مدى بؤسه وضياعه ٠٠ والحق أن زكريا كان طاقة فنية لا حد لها ٠٠ وكان يقطر فنا حتى من بين اصابعه ومن تحت اسنانه ٠٠٠ وبينما كانت الاصداف تلمع تحت أضواء الشهرة ٠٠ كان زكريا الذهب ينام مدفونا تحت تراب مستشفى الحوامدية ٠ فقد كان زكريا هو كاتب المستشفى وأمين المخازن ، واستطاع فى فترة وجيزة ان يتحول من كاتب فى المستشفى الى زعيم للمدينة ٠٠ ولكن الروتين الحكومى العفن الذى يريد من الموظفين ان يتحولوا الى مكاتب وليس الى زعماء

قدم زكريا للمحاكمة وطرده من المستشفى الى وظيفة حقيرة فى مجلس بلدى الجيزة ٠٠ واضطر سنوات طويلة ان يعول عشرة أشخاص بخمسة جنيهات لاتزيد ! وكان موقفه السياسى مضطربا مثل حياته ٠٠ ففى صباه تولى زعامة الطلبة فى مدرسة الفنون والصنايع ٠٠ ولعب دورا هاما ضد النحاس باشا وحزب الوفد ٠٠ وعندما ترك المدرسة كان من رواد التنظيمات الماركسية فى مصر ٠٠ واستمر حتى أصبح يشغل منصبا قياديا فى أحد التنظيمات !

ثم اختلف مع اليساريين وخرج بما أسماه الاشتراكية الاسلامية ولكنه لم يستمر طويلا فى هذا التيار ، ولم يلبث أن هجر السياسة كلها قانعا بجهوده فى الادب والفن ، ولذلك عدت الى زكريا الحجاوى هذه المرة وانا اكثر حذرا واعمق فهما لتصرفاته غير انى لم البث أن هجرت الشلة مرة أخرى الى مجلة الاسبوع ، وكانت الاسبوع فى الاصل مجلة أصدرها جلال الدين الحمامصى ثم توقفت عن الصدور فجأة ٠ وجاء رجل من الصعيد اسمه أمين وأصدرها رغم أنه لم يكن على علاقة بالصحافة ٠ وكان الائتلاف الدستورى السعدى يحكم البلاد بيد من حديد والرقابة مفروضة على الصحف وكانت أخبار اليوم هى المجلة الوحيدة المزدهرة ، وأيضا مجلات دار الهلال ، وفيما عدا هذا فقد كانت كل المجلات تلقى المتاعب والاهوال ٠ واجتمعنا فى مجلة الاسبوع : أربعة شبان صغار وصاحب المجلة ٠ ورجل أخر اسمه هارون كان من أقارب صاحب العمل وكان يتولى منصبا هاما ودائما فى المجلة ٠٠ هو

حارس رئيس التحرير وملاحظ الطبع فى المطبعة وكان على جمال الدين يتولى منصب مدير التحرير ، وكان طوغان هو رسام المجلة الوحيد ، وكنت أنا كل اسرة التحرير وكل المحررين ! وكان يعف علينا كالطير عشرات آخرون ٠ منهم أفندى صعيدى اسمه الاقصرى ٠ بدد حياته كلها ومواهبه كلها فى الكتابة بالفصحى الصحيحة وبالنحوى السليم ٠ وكان يحفظ الفية ابن مالك عن ظهر قلب ٠٠ ويعتقد أن العالم اينشتين أجهل من دابة لأنه لايعرف الفاعل من المفعول ٠٠ ولم يستطع الاقصرى هذا ان يدرك ان الحياة أوسع من الفية ابن مالك ، وان الكتابة احساس اكثر منها حفظ للفاعل والمفعول ! ولذلك كان دائم الشجار فى المجلة لأننا لاننشر مقالاته ٠ وعندما صدر العدد الاول كان يحمل

أول تحقيق صحفى بتوقيعى ، وكان التحقيق عن رجال الحرس الوطنى ، وكان يقطر سخرية بخفراء الاقاليم ، وفى ذلك المساء حضر الاقصرى الى المجلة وسبنى سبا شديدا ، واتهمنى بأن شخصا آخر يكتب لى مقالاتى • وراهننى أمام الجميع أن أعرب « بلادى وان جارت على عزيزة •• واهلى وان جاروا على كرام » لابرهن للحاضرين اننى اجيد الكتابة •• ولم اعرب شيئا بالطبع ولم يقتنع الاقصرى بأننى أنا الذى كتبت المقال •• باع العدد الاول فى الاسبوع سبعة آلاف نسخة • وفى العدد الثانى باع ألف نسخة فقط ، ثم أخذ البيع يتناقص حتى بلغ مائة نسخة ،

وبينما كان صاحب المجلة فى دهشة لنقص التوزيع ، كنت أنا أيضا فى دهشة لاننا نبيع كل هذه الكمية • فلم يكن فى المجلة شىء يقرأ • ولم يكن لها هدف واضح • وكان لدينا « مصوراتى » يحمل كاميرا ضخمة لها شوال أسود ضخم يضع رأسه فيه كلما

ارتكب عملية تصوير أحد • وكان يحمل معه جردلا لتحميض الصور وكان لا يصور الا فى الشمس •• وكان يقف فى ميدان التوفيقية بالقرب من دار المجلة •• وكنا نستعين به كلما دعت الحاجة الى جهوده •• وذات مرة سحبته من يده لنصور مجموعة من العمال العاطلين لاكتب عنهم موضوعا بعنوان الذين فاتهم القطار •• وبعد ان التقط صورهم راح يستخرج لهم نسخا بالاجر • وعندما نهرته امام الجميع حمل الجردل وضربنى به على رأسى •• ثم رفض العمل معنا بعد ذلك !

كان صاحب ورئيس تحرير المجلة قد بدأ يهمل شأن المجلة ونادرا ماكان يحضر الى مكتبه تاركا العمل لحارس المجلة هارون وتحول هارون شيئا فشيئا من غفير خصوصى الى رئيس للتحرير وراح يفتش علينا فى كل لحظة ، والويل لنا اذا ضحكنا أو ارتفعت صيحاتنا • ثم راح يتدخل فى العمل أكثر •• واعترض على الرسوم والمقالات مع أنه لم يكن يقرأ ولا يكتب • وذات مساء جن جنونه فحمل هراوة وانهال بها ضربا علينا وطاردنا حتى الطريق • وظل عم هارون يصرخ طول الليل وفى الصباح حضرت الاسعاف وحملته معها الى مستشفى الخانكة وأجبرت هذه الحادثة صاحب المجلة على الحضور • ولكنه لم يحضر وحده ، جاء معه رجل اسمه اسماعيل الجوهرى ، وقدمه الينا بصفته مديرا عاما للمجلة •

وكان الجوهرى رجلا مهيبا سمينا عليه سمات أصحاب الاعمال. وكان يحترف ادارة الصحف الميتة ٠٠ فيكفيه اسم مجلة لينطلق بعد ذلك ينصب على مخاليق الله ٠٠ وكانت السفارات الاجنبية والشركات الكبرى هى مجالات نصبه ٠ ولقد أقنعنا الجوهرى ان مجلة الاسبوع سيصير لها دار ولا دار أخبار اليوم ٠٠ وسيصبح لكل محرر أرشيف ودوسيه خاص ، وستصلنا مرتباتنا في أظرف مغلقة ، وسيصبح مرتب كل محرر خمسين جنيها كاملة وعشت فى هذا الحلم اسابيع كثيرة ٠ ولكن أحلامنا كلها تبخرت واختفى الجوهرى أيضا من حياتنا ٠ ولم يعد رئيس التحرير يظهر بالمرة وعرفنا بعد ذلك أنه نال غرضه منها ، وأن الحكومة قررت له مصاريف سرية وكمية من الورق ، كان يستهلك بعضها فى المجلة ويبيع الكمية الاكبر فى السوق السوداء ٠

وجلسنا اسابيع نتدارس الامر ، على جمال وطوغان وانا . ولكننا لم نصل الى حل ٠ وذات مساء حط علينا وافد جديد اسمه فهمى ٠ كان سمينا كالعجل ويرتدى بالطو من الجلدوطاقية من طواقى الروس ٠ وكانت معه قصة مترجمة عن تشيكوف اسمها « النهار » وطلب منا نشرها ٠٠ ولما أخبرناه ان النشر بدون أجر ٠٠ أبدى استعدادا طيبا للتعاون معنا على هذا الاساس ٠٠ كانت القصة لابأس بها ، وعندما سألته عن اللغة التى ترجم عنها القصة ، قال فى هدوء ٠٠ الروسية ٠٠ وقال أنه قضى فى روسيا خمسة اعوام حيث كان والده يعمل مستشارا فى السفارة المصرية فى موسكو ٠ وانله مؤلفات باللغة الروسية ذائعة الصيت هناك ٠٠ وبعد أسابيع اكتشفنا أنه طريد المدرسة السعيدية ، وأنه لا يجيد لغة على الاطلاق ، وانه نصاب راسخ القدم فى هذا الفن ، وأنه لم يخرج من القاهرة الا الى بنها ٠٠ وعندما واجهناه بالحقيقة اكتفى بالابتسام ، وصاحبنا بعد ذلك طويلا ٠ واشتغل فى عدة صحف كبيرة ٠ ثم سافر الى الخارج وأقام فترة طويلة هناك ٠٠ ولكنه لم يكف أبدا عن النصب فى أى مكان يحل فيه ثم قدرله ان ينتهى النهاية الحتمية والوحيدة التى كانت تنتظره فقد دخل السجن ليقضى مدة العقوبة ٠٠ الاشغال الشاقة المؤبدة ولايزال فى السجن حتى الان !

ثم جاءت النهاية بعد ذلك ٠٠ وفى ليلة ممطرة ومظلمـــة وشديدة البرودة ٠ وكنا نجلس فى المطبعة على جمال وأنا ،

كنا نطبع سبعة آلاف نسخه كل أسبوع ، نبيع منها مائة نسخة ثم نبيع المرجوع فور رجوعه وكنا نتناول اجورنا من ثمن المرجوع وهى لم تزد أبدا عن جنيهين فى كل مرة • وقررنا فى تلك الليلة أن نبيع المجلة فورا ، وقدرنا أننا سنكسب اكثر لان الاعداد طازة وساخنة وستزن اكثر •• وهو عمل على أية حال خير ألف مرة من طرحها فى السوق ثم أعادتها من جديد ، ثم بيعها بعد ذلك ثم هو أيضا حل لمشاكل كثيرة بالنسبة لنا •• فلم يكن معنا نقود • ولم يكن لدينا سجاير ، وكنا نشعر بالبرد وبالجوع •• وفعلا غادرت المطبعة قرب الفجر الى شارع محمد على • وعدت الى المطبعة ومعى تاجر ورق يجر عربة يد وميزان لزوم الوزن بالاقة •• ورحنا نحمل الاعداد ساخنة من المطبعة الى الميزان •• ولهفنا أكثر من ثلاثين جنيها دفعه واحدة •• اقتسمناها على الفور ، واحتفظ كل منا بنسخة من المجلة • وانصرفنا على غير موعد والى غير لقاء • ولم يشعر صاحب المجلة بالامر الا بعد أسبوع • عندما ذهب الى دار المجلة ليكتشف ان المكاتب نفسها غير موجودة • فقد أصبح فهمى هو المتردد الوحيد على المجلة بعد غيابنا •• ولما يئس من حضور أحد •• باع المكاتب لتاجر فى وكالة البلح واختفى هو الآخر أيضا !

ولقد غاظنى جدا ما قام به فهمى وحده ، فلقد خرج من الصفقة بنصيب الاسد ، وبينما اقتسمت أنا وعلى مبلغ الثلاثين جنيها خرج هو بستين جنيها دفعة واحدة •• لذلك رحت اتردد على منزله لعلنى أجده فأعكمه من قفاه وأتناول نصيبى من الغنيمة ولكنى دخت دوخة الارملة وراه دون ان اعثر له على اثر • وذات مرة صممت على ان انتظره • وظللت عند الباب انتظره حتى انتصف الليل • وفجأة رأيته قادما من اول الزقاق فى البالطو الجلد اياه وجوانتى مطعم بالفرو ونفس الطاقية الفرو فوق رأسه • منظر امير من امراء بطرسبرج فى عصر غابر ولا يتفق أبدا مع منظر الزقاق الفقير المظلم الذى تنضح من حيطانه رائحة عفنة •• وعندما رآنى اصفر وجهه ، ورحب بى بكلمات غير صادقة وبود غير حقيقى •• وكنت مصرا تلك الليلة على أن أتناول حقى أو أرتكب جريمة !

فلم يكن معى نقود ولم يكن هناك عمل آخر • ولكن عندما طلع الصباح علينا ونحن فى حجرته القذره •• كنت قد نسيت كل شىء ، ولم اعد أشعر نحوه الا بالاسف والشفقة • كانت

الحجرة عارية تماما من أى أثاث . وعلى الحائط صورة ضخمة لفهمى نفسه فى ملابسه الانيقة وفى فمه بايب وحلقات الدخان تبدو فى الصورة وعلى رأسه قبعة وفى بوز مشتعل كأنه ممثل فى رواية . وكانت المرتبة القذرة ملقاة على الارض البلاط ولم يكن لديه غطاء الا البالطو . ولكنه كان يحتفظ فى ركن الحجرة بأعداد مجلة الاسبوع التى نشر فيها قصصه . وأكثر من خطاب مرسل اليه من بعض رؤساء تحرير الصحف الكبرى ، وكانت كلها ردا على خطابات أرسلها اليهم بصفته قارئا معجبا بهم على نحو ما !

وعندما دعانى على العشاء معه سحب علبة فاصوليا ناشفة من ركن فى الحجرة . ووضع العلبة نفسها على النار ثم سحب عدة أرغفة من العيش الناشف وكمية من المخلل كان يحتفظ بها . وعلى رشفات الشاى الساخن الذى أعده على عجل راح يحكى لى متاعبه فى الحياة ، متاعب لاحصر لها مع أسرته ومع صاحب البيت والبقال ومع فتاة على علاقة بها . وسحب من تحت المرتبة صورة لبنت بضة وممتلئة وشعرها أسود وعلى شفتيها ترتسم ابتسامة ساذجة .. وحسدته بينى وبين نفسى على البنت وعلى الصورة التى معه .. فلم أكن حتى هذه اللحظة على علاقة بأى فتاة .. وكل علاقاتى كانت عابرة وبالصدفة .. ولم يكن لدى الوقت ولا المال لأهتم بشىء آخر غير البحث المستمر الدائب عن عمل .. أو مأوى أو فلوس ! وسألته عن سر متاعبه مع الفتاة فحكى لى بصراحة أنها طالبة فى الجامعة ، وأبوها موظف كبير فى الحكومة .. وقد تعرف عليها فى حفلة وقدم نفسه اليها بصفته خريج جامعات موسكو .. وصحفى وكاتب قصة ومن أسرة ثرية وقوية وتمتلك مئات الافدنة فى الصعيد . ولقد تعرف عليها فى بداية الامر ليعبث بها وليهبر منها مايستطيع من الفلوس . ولكنه لايستطيع التقدم اليها ، مع أنها ترفض الزواج من غيره وتريده ، وهو يخاف لأن كل المعلومات التى قدمها عن نفسه كاذبة ، ولأنه أيضا لا يجد ثمن افطاره كل صباح . ولما سألته عن مصير المبلغ الذى هبره من بيع المكاتب ، سحب كشفا من تحت المرتبة وراح يقرأ .. خمسة جنيهات للبقال . خمسة جنيهات للجزار ، خمسة جنيهات للترزى ، عشرة جنيهات لأمه المريضة فى المستشفى ، جنيهان لشقيقه الاصغر الذى يدرس فى الاورمان ، خمسة جنيهات للمطعم ، جنيه ثمن حذاء ، جنيه

مش عارف ايه ، جنيه لمين .. ومن واقع الكشف المكتوب تبينت أنه لم يعد معه شيء !! وأقسم لى وصياح الديكة يتصاعد حولنا فى الزقاق انه لم يحصل منذ عامين على أى دخل من أى نوع على الاطلاق . وأنه قادم الآن من العباسية الى عابدين ســـيرا على على القدمين !

وشهور كثيرة مرت بعد ذلك رهيبة وسوداء أسود من جلد الفيل .. ولكن وقع خلالها حادث كان له أثر كبير فى حياتى .. فقد اصطحبنى طوغان معه ذات مغربية الى نقابة الصحفيين .. ولم يكن طوغان عضوا فى النقابة ، وكان من أحلامه أن يصبح يوما ما عضوا فيها . وعندما دخلنا سألنا موظف الاستعلامات عن الاسم والمهنة والعضو الذى نبغى زيارته وذكر طوغان اسم العضو الذى يعرفه .. زهدى الرسام . ودخلنا النقابة ولكن زهدى لم يكن هناك . واستقبلنا رجل أخر سمين وطيب وفنان كانت له شهرة كالطبل تلك الايام . ولم أصدق انا ان هذا الرجل البسيط الخجول الطيب هو نفسه الفنان الكبير الذى كانت شهرته تطبق الآفاق . كان الفنان هو رخا .. وتلك الليلة لا أنساها مدى الحيـــاة .. فقد عاملنـــا رخا باحترام زائد . ولعب معنا طاولة وعزمنا على العشـــــاء .. وكانت النقابة تزدحم بعشرات من الصحفيين اللامعين . وكانت بها حجرة للقمار سهرنا فيها نتفرج على اللاعبين حتى الفجر ، ثم خرجنا مع رخا الى ميدان باب الخلق ، واكلنا فطيرا على الرصيف، ثم ركبنا معه تاكسى حتى ميدان الجيزة . واقسم ونحن نودعه ان نحضر الى النقابة كل ليلة وأكد لنا أنه سيكون فى انتظارنا هذا المساء !

ولكنى ترددت فى الذهاب الى النقابة بعد ذلك . وأخذت أحكى للناس فى كل مجلس عن أحداث تلك الليلـة الخـالدة وبمناسبة وبغير مناسبة كنت أحشر اسم رخا فى الحديث . أحيانا كان الحديث يكون عن حرب فلسطين المتوقعة بعـــد انسحاب الانجليز .. فأتدخل فى الحديث .. « مش ممكن هتحصل حرب ، دنا ليلة ما كنت سهران مع رخا ، تناقشت فى هذا الموضوع ، وعرفت كذا وكيت وكذا » !! وليالى كثيرة كنت أذهب حتى باب النقابة ثم أحجم عن الدخول . فقد كانت ملابسى غير لائقة ،وكنت أشعر بخجل شديد من عيون الناس

وهي تعربد في عيوب الجاكتة ومساوىء القميص . ولعل تلك الايام هي السر في أنني سأظل بقية حياتي أشعر بضعف شديد أمام الملابس الجديدة وسيظل بي شغف شديد بالاناقة وحرص أشد على أن أبدو دائما في توب قشيب .. وهكذا وبعد شهور طويلة .. بالبدلة المكرمشة التي بليت من طول الاستعمال ، والحذاء المضروب المخبوط ، زحفت ذات صباح نحو أول مجلة محترمة قدر لي ان أعمل بها . وكانت المجلة في شارع فاروق ولها دار كبرى وماكينات طباعة خاصة بها . وكان صاحبها يشتغل بالترجمة واستطاع بعد كفاح مرير أن يهز السوق الصحفي هزا بمجلة ذات طابع جديد هي مجلة مسامرات الجيب . وقد ضربت المجلة عند صدورها مجلات دار الهلال ضربا شديدا ، ثم وقفت تناطح مجلات أخبار اليوم في السوق .. وعندما تولى أبو الخير نجيب رئاسة تحريرها واتجه بها نحو المعارضة ومال بها نحو الوفد .. كانت المجلة قد وصلت الى أعلى رقم وصلت اليه مجلة من نوعها في التوزيع . وكانت المجلة تعتمد في توزيعها الى جانب الرأي ، على قصص من لون جديد يكتبها شاب ناشيء وضابط في الجيش اسمه يوسف السباعي . وكانت رسوم الحسين فوزي تلهب خيال القراء بطابعها المميز وأسلوبها الفريد . ولكن عندما وصلت اليها كانت الدار التي تصدر عدة مجلات قد أخذت تتدحرج . وهجرها أكبر محرريها لمماطلة صاحب الدار في دفع المرتبات . ثم فقدت أغلب قرائها عندما هادنت المجلة الحكومة السعدية وفتحت أبوابها لكل من يريد أن يعمل فيها بلا أجر . وفي هذه المجلة تعرفت بكل أبناء جيلي من الصحفيين .. بعضهم يتولون المسئولية في صحف هذه الايام .. وبعضهم تدحرج ولايزال يقف مكانه محلك سر ، وبعضهم ترك المهنة كلها وضاع في الحياة ، ولكن سيظل أبرزهم على الاطلاق ثلاثة . عبد المنعم الجمزاوي الذي جاء ذات يوم من الصعيد ليعيش مع خاله في القاهرة ، فلما فشل في الدراسة راح يسرح وراء خاله في حواري الجيزة يبيع الجاز ، ثم اشتغل في الحكومة موظفا في الدرجة التاسعة ثم تسلل الى الصحافة بموهبة فذة وخبرة هائلة وعلم قليل ، وبعد فترة قصيرة اتخذ لنفسه ركنا في مقهى بشارع ابراهيم باشا واجتمعت حوله شلة من الادباء الشبان الصياع . واصبحت يوما ما عضوا في هذه الشلة ولكن لفترة وجيزة . ذلك ان رجلا مثلي كان ينحدر

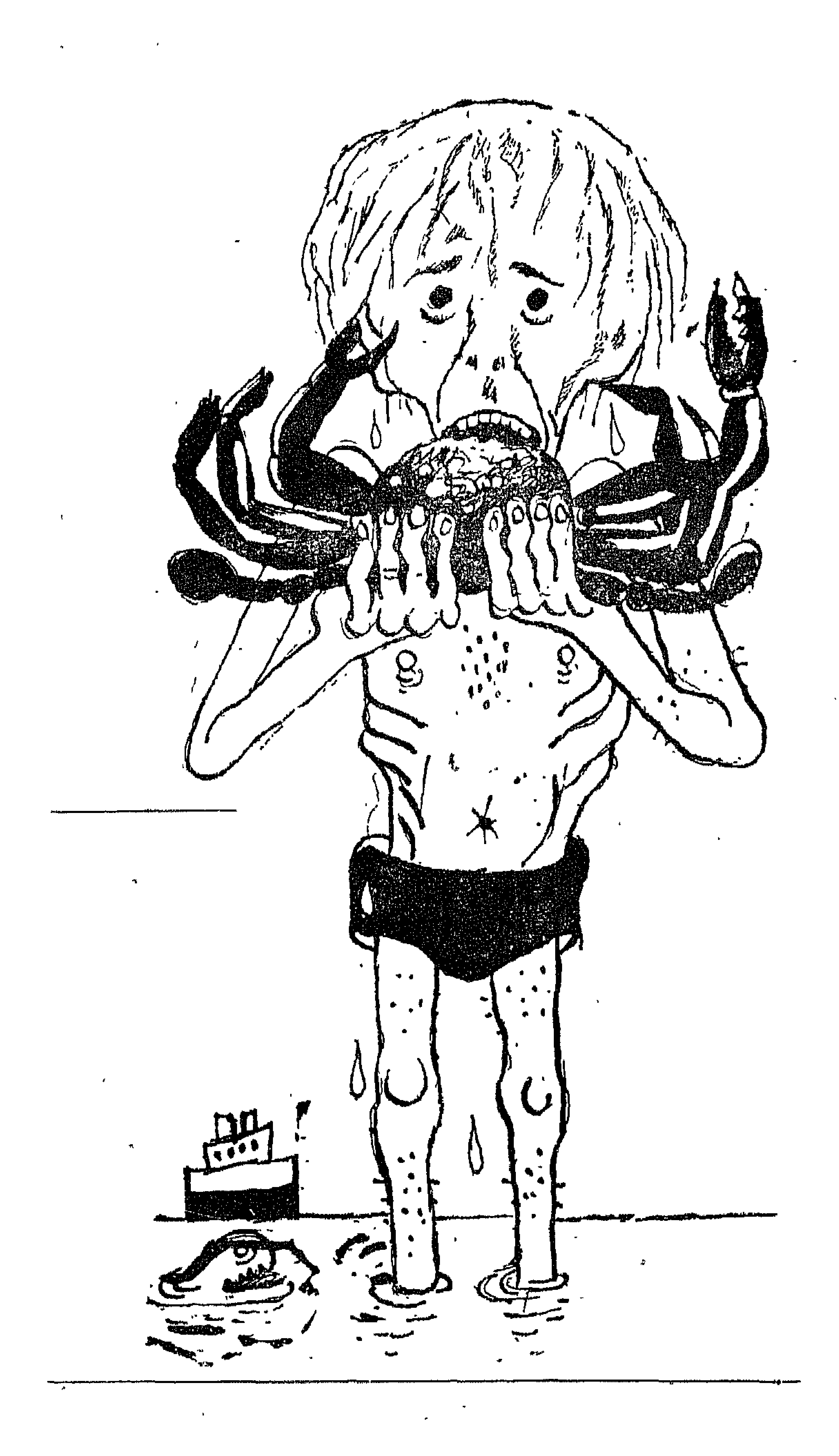
من شلة زكريا الحجاوى سرعان ما اكتشف تفاهة وضياع أكثر الجالسين فى الحلقة • وكان أحدهم واسمه محمد يثير ضحكي كلما هم بالكلام • كان قصيرا واحول ويلف حول رقبته خرقة مبللة فقد كان مصابا بالبرد على الدوام •• وكان اذا فشخ بقه بدا كأنه حمار على وشك النهيق ، وكانت احكامه الادبيـــة لاتفترق كثيرا عن أحكام بائع موز يتصدى للامور العلمية !

وكان ثمة تلميذ آخر من تلاميذ هذه المدرسة يدعى صمويل ، وقد مل صمويل حياته ولم يطق الصبر على الفلس والجـوع ، فتخلص من هذه الحياة ذات صباح ، بأن شنق نفسه بالكرافته الوحيدة التى كانت هى كل ممتلكاته ! ولقد أسفت على النهاية الحزينة التى انتهى اليها ، فقد كان أكثرهم علما وأكثرهم خبرة بالادب والفن والحياة ! والحق أقول أن عبـــد المنعم الحمزاوى نفسه كان على شىء •• ولو أتيح له أن يقرأ ما ينبغى لمثله أن يقرأه •• لكان لهشأن آخر • فقدكان يتمتع بمواهب خارقة ، وكانت تجربته فى الحياة أطول بكثير منسنوات حياته وأعرض بكثير من حياة الآخرين !

وكان الرجل الثانى الذى عرفته فى مجلة مسامرات الجيب ، هو سيد عبد الله • وكان فى الاصل كاتب محامى استطاع أن يصل الى منصب رئيس التحرير • وكان صاحب اسلوب جميل ولكنه كان شديد الهيافة ، واهتماماته كلها كانت تنحصر فى الليل والسهر والانصهار داخل الحياة اللذيذة • ولم يكن يهتم بالسياسة على أى نحو ، وعلاقته بالأدب تنحصر فيما تنشره المجلات من قصص هايفة ، وما يذيعه الراديو من أحاديث للأدباء! وكان الى جانب عمله كرئيس للتحرير مشغولا دائما بالحصول على اعلانات من أصدقائه الفنانين للمجلة • وكان شديد الزهو لعلاقات الصداقة التى تربطه بكبار الممثلين • وكان يعتقد أن الحكمة والفن والفلسفة تكمن كلها فى رأس ممثلة حمقاء كانت تبادله الحب • ولذلك كانت صورها تحتل صفحات المجلة ، وكلماتها الساذجة ينشرها فى براويز كمادة لتثقيف القراء • وعندما أغلقت المجلة التى كان يتولى رئاسة تحريرها أبوابها ، لم يستطع الصمود طويلا ، ولم يلبث أن تدحرج حتى كنسه النسيان !

أما الرجل الثالث فكان عالما بحق ، ومثقفا على نحو رفيع ،

وطيبا يمسح ـ رغم بؤسه وضياعه ـ على جراح الآخرين ٠ وكان قد هجر وظيفته الدائمة والمرتب المستقر الى الصحافة ولكنه فوجىء بعد شهور بأن المهنة التى اختارها ، هي مهنة صياعة وضياعة وعدم استقرار ٠٠ ولكن نفسه الفنـانة وهى نفس أمارة بالسوء ، كانت تلح عليه أن يبقى حيث هو ، وان يمضى فى طريقه وسط الاشواك والصخور ٠ ومن هذا الرجل تعلمت الكثير فى صباى ٠ وأغلب الكتب التى قرأتها تلك الايام سرقتها من عنده !! وكان هو أول من زرع التقـــة فى نفسى ، وأول من جعلنى أتشبث بأسنانى بمهنة الصحافة رغـم طول ووعورة الطريق ! ولقد قدر لهذا الرجل أن يشق طريقه بعد ذلك بنجاح ، وأن يتغلب على كل العقبات والصعاب ، وأن يلمع ليصبح أحد نجوم الصحافة وكتابها الكبار ٠ وكان الدور الذى لعبه فى حياتى هاما وجوهريا وخطيرا ، وكانت علاقتى به بداية مرحلة جديدة ٠٠ وما أكثر المراحل التى خضت فيها خـلال رحلتى القصيرة العريضة فى الحياة الرجل الطيب اســـمه محمد عودة الكاتب الشهير الذى يتألق دائما فى الأزمان ٠



٤

كان الرجل الطيب حين التقيت به أول مرة خارجا لتوه من محنة شديدة حطمت قلبه وأفقدته الثقة فى كل شىء وبدا لى أنه يعانى قلقا شديدا وأنه يشعر بمرارة لاحد لها وحين وقع نظره على أول مرة لم يتجاهلنى ولم يشح بأنفه شأن المربين الكبار حين يلتقون بأمثالى من المترددين على أبواب الصحف ولكنه ابتسم لى فى ود والقى نظرة على المقال الذى كنت أكتبه وأطلق ضحكةصافية من قلبه وقهقه فى براءة وقال وهو يهزنى بعنف « أنت لك أسلوب ساخر لو استطعت أن تستخدمه بمهارة سيصبح لك شأن » ولم أكن قد سمعت تقريظا من أحد حتى هذه اللحظة .

والكلمات الطيبة التى كنت قد سمعتها من قبل ، كانت كلمات مجاملة أكثر منها كلمات استحسان ٠٠ ولذلك نظرت اليه فى دهشة وبتفرس لأكتشف اذا كان صادقا فى القول أم مجرد هازل يسخر منى فى قالب مدح ٠ ولكنه أعاد نفس كلماته واضاف اليها كلمات أخرى مماثلة ٠ وسحبنى من يدى الى قهوة ايزافتش ٠ وأنبهرت جدا بالمقهى وبالزبائن الجالسين فى خيلاء ، وبالجرسون الجريجى الذى كان يبدو أنيقا ووسيما مثل نجوم السينما المشهورين ٠ واكتشفت أن الجرسون صديق للرجل الطيب ٠ فقد حضر وحيانا فى ود ثم وقف يناقش الرجل الطيب فى السياسة ٠٠ وجاءت شلة من الافندية وانضمت الينا ٠ واكتشفت انهم جميعا طوال القامة ٠ وأن رءوسهم جميعا صلعاء ٠ وأنهم يهتمون على نحو خاص بشواربهم ، وهى شوارب ليست عادية ٠ ولكنها كثة وسوداء ، ولها أطراف تتدلى الى أسفل ، ولما سألت الرجل الطيب عن سر هذه الظاهرة ٠ قال ببساطة كأنه يفسر ظاهرة طبيعية : « دول بيقلدوا ستالين ! »

ولقد دخل الجميع فى نقاش صاخب حاد حول الموقف السياسى ٠٠ وتطور النقاش الى سباب ، ثم تبادلوا الاتهامات الخطيرة ! وخيل الى أن المسألة ستتطور الى شجار ٠ وأنهم لن يلبثوا أن ينهضوا جميعا ليتراشقوا بالكراسى واللكلمات ، وأن دماء كثيرة ستسيل حتما وأن بعضهم سينقل لا محالة الى المستشفيات على عربة اسعاف !

ولكن شيئا من هذا كله لم يحدث ٠٠ فسرعان ما هدأت الضجة والتف الجميع حول أطباق الفول يلتهمونها بشهية ، ثم طلب الجميع الشاى وراحوا ينظرون فى هدوء نحو الشارع متربصين بعيونهم لكل أنثى تعبر الطريق ٠٠ وكانت رءوسهم تستدير فى حركة رتيبة هادئة وتلتوى أعناقهم من أقصى اليسار الى أقصى اليمين أو بالعكس ثم تعود الرءوس الى وضعها الطبيعى عندما تبتعد الانثى عن الانظار ٠٠

وكان أحدهم يعلق بكلمة دائما عقب مرور كل انثى ٠٠ وكأنه واجب يؤديه، أو كأنه ناقد نسائى مطلوب سماع رأيه فى كل أنثى تعبر الطريق ٠٠ وكانت تعليقاته قصيرة وحاسمة : « دى رجليها وحشه » أو « دى كتافها نازلة » أو « صدرها كبير » ٠ وعندما تكون الأنثى لا عيب فيها يكتفى بهز رأسه

استحسانا ويعلق بكلمة واحدة « ظبط » !! ولم أشترك معهم في المناقشة ولم أشترك معهم أيضا في البصبصة ! وعندما نهضوا ليغادروا المقهى نهضنا معهم ٠ وجاء الجرسون على عجل يطلب الحساب ، وتقدمت أنا فغادرت المقهى الى الشارع ٠٠ ولكن جذبني الى داخل المقهى صوت الجرسون يشتم ويسب ويلعن سنسفيل جدودهم جميعا ٠٠ ووقفت دقائق أستمع الى حوار ساخن بين الجرسون والافندية جميعا ، ثم تركهم جميعا يمضون وهو يلعن ويسب اجداد الجميع ٠ واكتشفت أن الجرسون الجريجي له دين ثقيل في أعناقهم ، وانهم يماطلون في الدفع منذ شهور !! ومنذ تلك اللحظة تعلمت ألا تخدعني المظاهر ، وألا أنبهر بالقشور الزائفة ٠ فقد كنت أمر يوميا على مقهى ايزافيتش وألقى نظرة على المقهى والزبائن المسترخين على مقاعدها ! وكنت اتوهم أن الجالسين في المقهى هم البشوات والبهوات وأثرياء القوم ٠ وكان منظر الزبائن ومنظر المقهى ومنظر الجرسونات الجريج يوحي بذلك ٠ ولكن هذا الموقف كشف الغطاء عن الحقيقة المرة ، وعرى كل شيء أمامي ٠

ولكنني رغم ذلك أعجبت جدا بشجاعة هؤلاء الأفندية الذين دخلوا مع الجرسون الجريجي في حوار صريح مكشوف وأمام جميع الزبائن دون أي شعور بالخجل ٠ ولعل سبب اعجابي بهم هو جبني الشديد في مواجهة هذه المواقف ، وهو جبن دفعني الى عدم الاستدانة من أحد ، وعدم المماطلة في الدفع ، وأن أحجم عن ارتياد مثل هذه الاماكن الا اذا كان في جيبي ما أدفعه ثمنا لطعامي وشرابي ! بل لقد دفعني هذا الجبن أيضا الى التخلف عن شلة الاصدقاء أيام الطفولة اذا دخلوا عند حلواني أو فكهاني ، وأتظاهر بأنني مشغول بشيء في الخارج حتى لا أحرج نفسي ولا أتسبب في احراج أحد ٠ وكان على عكسي تماما طوغان ٠ فقد كان يقتحم المحل على رأس الشلة ، ويدور بين الاصناف ينتقي ويختار ! فقد كان شديد الضعف أمام اغراء الحلوى والفول السوداني والبلح الأمهات ٠ وكان يأكل كفايته ، ثم يعلن بعد ذلك للشلة أنه يعاني الافلاس ٠ ولكن حتى طوغان كان يفعل ذلك أمام شلة من الاصدقاء ، وكان يجد دائما من بينهم من يدفع حسابه ! ولكن هؤلاء الافندية لم يدفعوا الحساب ولم يدفع لهم أحد ، بل وناقشوا

الجرسون الجريجى وأمام جميع الزبائن وفى شموخ وكبرياء ، وكأنهم محامون يترافعون فى أعظم القضايا • ولقد صادقتهم بعد ذلك وأصبحت واحدا من شلة المقهى لسنوات طويلة ، واكتشفت أنهم جميعا كانوا أعضاء فى التنظيمات اليسارية عند بدء تكوين هذه التنظيمات فى مصر ، ثم هجروا التنظيمات السياسية واكتفوا بالجلوس على المقهى والاشتغال بالسياسة كهواة •• وكانوا شـــديدى الضيق بكل شىء ، كافرين بكل انسان ، وجميع الناس خونة وعملاء للاستعمار ماعدا أفراد الشلة • وكانوا يشعرون بالرضا عن أنفسهم لأنهم قد وصلوا الى الحقيقة !! فكل الزعماء متعاونون مع القصر • وكل الاحزاب متعاونة مع الاستعمار ، وكل الصحف مأجورة ، وكل الناس ـ حتى الجرسون الجريجى ـ متعاونون مع البوليس ، وكل الافلام تافهه ، وكل الكتب حقيرة ، وكل الاغانى هايفة ، وكل الموظفين مرتشون ، وكل النساء مومسات ، وكل الرجـال يسـتحقون القتل !! وكانوا لايرون فى الحياة الا لونين ، الاسـود الفاحم والابيض الناصع • فأنت اما خائن واما شهيد • وانت اما ثائر واما بوليس • ولقد ظلت الشلة قعيدة المقهى ولسنوات طويلة ، حتى جاء يوم فاختفت كلها • بعضهم دخل السجن فى قضية اختلاس ، والبعض الآخر هجر المقهى الى البارات ليغرق نفسه فى الخمر !! ولكن صديقى الطيب لم يكن واحدا منهم • وكان على خـلاف معهم • وعنـدما أبديت اعجابى بهم كمثقفين قال فى امتعاض شـديد •• مايغركش الكلام المقعر اللى بيقولوه ، المثقف الحقيقى هو اللى يعيش حياة الناس ويعبر عنها بطريقة بسيطة !•• وأعجبنى تعريفه للمثقف ولكن لم يعجبني تعريفه للشلة ، فقد وصف أفرادها بأنهم « حشرات مريضة » فقد وقع فى نفس الخطأ الذى وقعت فيـه الشلة ، كما أنهم لم يكونوا حشرات مريضـة ، ولكنهم كانوا نماذج لألوف من أبناء الجيل فقدوا الثقة فى كل شىء حتى فى الخلاص من المصير المحتوم ، ثم أسلمهم اليـأس الى الانطواء داخـل أنفسهم والفرجة على ما يجـرى دون أن يكلفوا أنفسهم عنـاء الاشتراك فى التغيير ، خصوصا وان التغيير كان يكلف كثيرا •• فقد كان قانون صدقى باشا بتحريم المبادىء الهدامة (!) قد صدر حديثا ، واصبح السجن مصير كل شـاب يحـاول التصدى لفساد القصر أو انحرافات الاحزاب • ولما كانوا غير

مستعدين لدفع الثمن ، فقد انسحبوا نهائيا الى المقهى ، ولكنهم لم يرتضوا أن يلقوا السلاح نهائيا فاكتفوا بالكلام على المقهى كمحاولة للاشتراك فى التغيير دون أن ينالهم من وراء ذلك أى عقاب ! لذلك كان كلامهم حماسيا للغاية ومتطرفا أكثر من اللازم ، ولعل ذلك يرجع الى احساسهم بأن الكلام هو كل بضاعتهم ولذلك يجب أن يكون من أحسن وأجود صنف ! ولكن برغم كل شىء فقد كانت هذه الشلة تمارس حريتها على أوسع نطاق ، ولم يكن يقيدهم أى قيد ، وكانوا منفين على نحو ما ، ولكنهم لم يشعروا أبدا بلذة اقتحام حياة الناس والالتحام مع الجماهير العريضة، وبالرغم من اعتقادهم الراسخ بأنهم وحدهم ممثلو الامة وترجمان الشعب ولسان حال الملايين ••

ولقد لعبت شلة إيزافيتش دورا فى الحياة السياسية والثقافية في مصر ، رغم أنه كان دورا على الهامش • وذاعت أخبار الشلة واشتهر افرادها ، ولكن أبرزهم ، وكان مهيب المنظر ارستقراطى الحركات مفلسا على الدوام ، يحكى دائما وفى كل مناسبة عن دوره الطليعى فى قيادة الشعب ، وعن مقاومتة الباسلة لرجال البوليس السياسى • وكان أشد الجميع تطرفا واشدهم صلابة كما كان أكثرهم حركة !! فقد كان من عادته دائما أن يغادر المقهى أحيانا الى مكاتب الصحف البائرة يكتب فيها مقالات ضد الاستعمار وضد الحكومة • وكان أحيانا يتقاضي مبالغ زهيدة لقاء هذا النشر لاتتجاوز الخمسة جنيهات وأحيانا تصل الى عدة شلنات • وكان متزوجا وصاحب مشاكل عائلية لاتنتهى ، وكان يرتدى فى الصيف بنطلون شورت وصندل أبيض وقميص حرير هفاف ، ويبدو فى زيه الصيفى كأنه سائح انجليزى عجوز جاء الى مصر ليقف فترة بين المتاحف والآثار ! ولقد قدر لى بعد ذلك أن أعيش معه فترة من الوقت، داخل زنزانة واحدة فى السجن ، وقضيت الليالى الطويلة ساهرا معه حتى الفجر ، فقد كان أشد الجميع انهيارا وأكثرهم بكاء وكان يجلس طول الليل ساهرا لايغمض له جفن ! وكان على استعداد لأن يدفع نصف حياته ثمنا لكأس واحد من الخمر ! واعتقدت أنه انهار هذه المرة فقط بعد أن ناضل كثيرا داخل الزنازين الباردة وخلف الأسوار الصماء • ولكن الذين عاصروه فى الماضى ، أكدوا جميعا أنهذا هو طابعه ، وأنه منهار بالفطرة، وأنه بكى فى نفس اللحظة التى صافحت فيها أقدامه أرضية

السجن أول مرة ، وأنه شديد الانهيار عندما يكون فى الزنزانة، شديد المقاومة والصلابة عندما يكون على مقهى ايزافتش !! ولقد ودعت صديق سجنى ذات مساء عندما فتح السجان باب الزنزانة ودعاه الى الخروج لأمر عاجل ، وخرج ولم يعد ، وعرفنا بعد ذلك أنه أفرج عنه فى نفس الليلة ، وأنه عاد لاستئناف حياته ورواية حكاياته على مقهى ايزافيتش ! ولقد صحبت الرجل الطيب بعد ذلك سنوات طويلة ، وكان دائما يبدى اعجابه بما أكتب ، وكان أول من نصحنى بكتابة رواية طويلة ، ولقد استمعت الى النصيحة وكتبت رواية طويلة اسمها « حارة السمك » لم يقدر لها أن تتم ولم يقدر لها أن تنشر ، وضاعت ضمن ما ضاع لى من أوراق على مر السنين • وقال لى ذات مساء ونحن جلوس على مقهى ايزافيتش ، أنت أول كاتب يخرج من الحارة المصرية وعليك أن تعبر عن هذه الحارة وأن تكون نائبها فى برلمان الأبدية ! وفى مساء آخر قال لى وعيناه تبرقان ووجهه كله يرتعش ، لاتقع فى مصيدة العبارات البراقة ، اكتب كما تتكلم وستصبح شيئا فريدا بين أدباء الجيل ، واقرأ كثيرا ولكن اجتهد ان تنسى كل ما تقرأ ، وحاول أن تتقن لغة أجنبية فهى الجسر الذى تعبر عليه الى رحاب التراث العالمى ، وأول سفارة دخلتها فى حياتى كانت فى صحبته ، وكانت سفارة الهند • وقد تناولت عشاء فاخرا وشربنا زجاجة ويسكى كاملة ودخنت علبة سجاير أمريكية وقضينا الليل نتفرج على الرقص والغناء • ظللت شهرا بعدها أحلم بذكرى تلك الليلة المجيدة ! وأعطتنى تلك الليلة شعورا بالثقة لاحد له ، وقضيت ساعات أرطن باللغة الانجليزية مع موظفى السفارة ، وقد اندهش صديقى الطيب لاننى أجيد اللغة الانجليزية نطقا ولا أجيدها كتابة ! وقال لى وهو يضحك من الأعماق •• انك مثل تراجمة نزلة السمان يجيدون الحديث بكل اللغات ولكنهم يجهلون شكل الحروف وطريقة الكتابة ، ولم يكن صديقى الطيب يعرف حتى هذه اللحظة اننى كنت أعمل ترجمانا لفترة طويلة من الزمان ! وأول بيت محترم سهرت فيه كان مع صديقى الطيب أيضا ، وفى بيت فى الدقى استرعتنى نظافته الشديدة وفخامة العفش وكثرة التحف المبعثرة فى أنحائه • وجلست مؤدبا كتلميذ خائب يجلس فى حضرة أستاذه ، وتلعثمت فلم أستطع أن أتكلم • وكانت صاحبة الشقة ألمانية فى الخامسة والاربعين من عمرها ، ولكنها ظلت رغم

هذه السنين تحتفظ بشبابها ! وكانت لها صديقة مثلهـــا فى ربيعها الخمسين ، وكانت أيضا صبية ومليحة وعاشقة للفن ، وسهرنا حتى الفجر نستمع الى موسيقى تشايكوفسكى ، وكلنا صامتون كأننا فى جنازة ، وكانت السيدة الالمانية ذات الخمسين ربيعا تتولى خدمتى طوال السهرة وتقدم لى الكأس بعد الآخر ، وأحيانا كانت تسألنى عن رأيى فى الموسيقى فأهز رأسى وأفشخ بقى عن ابتسامة بلهاء !! وقبل نهاية السهرة بدقائق مسحت على شعرى بيدها ، وقالت أنت تشبه الأسبان ٠٠ هــل أنت مصرى حقــا ، وقلت فى سرى ٠٠ أنا مصرى ابن مصرى أبن مصرى وآدم بتاع اسرتنا كان مصرى ومن حارة مظلمة وقذرة فى بقعة من الارض المصرية يعلمها الله ٠ وعندما نهضنا لنغادر الشقة انحنت على شفتى وقبلتنى ! وشعرت بخجل لامزيد عليه وودت لو تبتلعنى الارض فلا أعود أظهر لها ٠ ونكست رأسى فى خزى كأننى ارتكبت جريمة ٠ ونهرنى صديقى الطبيب ونحن نسير فى الشارع بعد منتصف الليل ، لماذا كنت مكبوسا فى السهرة الى هذا الحد ؟ وادعيت لصديقى أن الجو لم يعجبنى ، وكنت كاذبا الى حد بعيد ، فقد أعجبنى الجو والجلسة والشقة والست العجوزة !! ولكن كنت أشعر باضطراب شديد ، وكنت فاقدا للثقــــة فلم يكن يخطر ببالى أن أكون ندا لست خوجاية تعيش فى مثل هذا القصر العظيم ٠ ولقد صارحته بحقيقة الأمر بعد ذلك فطمأننى الى اننى بشبابى وبهيئتى المصرية وبذكائى وخفة دمى يمكن أن أكون محبوبا لدى قطاع عريض من النساء ٠ ولم أصدق صاحبى الطبيب وقضيت ليلة بأكملها أمام المــرآة أتفرس فى وجهى وهيئتى ، ولكنى لم أقتنع أبدا برأى صديقى الطبيب ٠ ولكن يبدو أن المسائل كلها عادة ٠ فبعد زيارة ثانية وثالثة ورابعة أصبحت أنا عمدة القعدة ٠ بل تطاولت عــلى الخوجاية العجوز ونهرتها عن الصراخ بهذا الشكل المزعج ٠ وحزنت الست الخواجاية جدا وقضت السهرة كلها تسترضينى! ولقد ظلت مجنــة مسامرات الجيب تنحدر حتى وصــلت الى الحضيض ، وبينما كان صديقى الطبيب يتقاضى أربعين جنيهــا شهريا كان لا يحصل الا على خمسة جنيهات وأحيانا على عشرة٠ وكان مرتبى ثمانية جنيهات ، ولكنى كنت أحصل على جنيهين وأحيانا لا أحصل على شىء ٠٠ وكان فؤاد أفنــدى هو صراف

المجلة ، وكان رجلا بارد الاعصاب ميت النظرات ، وهي ميـزة كل رجال الحسابات وأمناء المخازن وصرافين البنوك والخزائن ·
ولعلها صفات يكتسبونها خلال عملهم الرتيب القاتل الممل الذى يصلت على رقابهم سيف المسئولية الحاد القاطع ! وكنا نعـرف أحوال الخزانة من نظرات فؤاد أفندى ، ولكن نظراته في الشهور الاخيرة كانت تنم عن الافلاس والبوار والخيبة الثقيلة !

وكانت ديونى قد أخذت تتضاعف عند البقال الذى يحتل ركنا تحت دار المجلة · ويئست أخيرا من العثور على القرشين صاغ اللازمة للوصول الى المجلة · فقد كان على أن اركب بقرش صاغ الى ميدان قصر النيل ثم أحتفظ بقرش صاغ آخر لأعود به مرة أخرى الى الجيزة !! وكان هذا المبلغ عبئا ثقيلا لم استطع أن أحتمله ! فقررت عدم الذهاب كل يوم الى دار المجلة والاكتفاء



بثلاثة أيام فى الاسبوع ، ونفذت هذا القرار اسبوعا واحدا ثم عدلت عن قرارى وعدت الى دار المجلة · فقـــد اكتشـــفت أن الذهاب الى المجلة أكثر ربحا ، لان وجودى هنـــاك يتيح لى التدخين بالمجان ·· وأيضا شرب الشاى والقهوة على الحساب ، وتحولت مجلة مسامرات الجيب من مجلة الى قهوة ، وأصبحت مكانا للقاء والدردشة أكثر منها مكانا للعمل · وكان صاحب المجلة قد راح يسرح فى كل مكان عارضا الدار للبيع وبأى ثمن، وكانت حرب فلسطين قد نشبت ، وحـــكومة الاقليـــة راحت تنشب أظفارها بقســـوة فى عنق الشعب ، وأصبحت الحيـــاة غير محتملة ، وفجأة جاءنا محرر فى المجلـــة بخبر هز أعصابنا هزا ، وفتح أمامنا بابا من الأمل فى مســـتقبل أكثر استقرارا وسعادة للجميع ··



٥

كان الخبر الذى هز أعصابنا هزا ، والذى حمله الينا محرر فى المجلة أن دار روز اليوسف ودار الهلال فى حاجـــة الى محررين ، وأن اثنين من محررى مسامرات الجيب قد التحقا فعلا بالعمل في روز اليوسف ، وأن البعض الآخـــر قد ذهب فعلا الى دار الهلال • ولقد استقبلت الخبر ببرود ظاهرى رغم أنه فى الحقيقة هزنى من الاعماق • ها هى مرحلة جـديدة فى الصحافة توشك أن تبدأ فى حياتى ، وهى لا شك ســـتكون فاصلة ، فاما الى الصحافة واما الى الصياغة !

وقضيت ثلاثة أيام متتالية أقلب الامر على جميع الوجوه ، وأقارن بين روز اليوسف ودار الهلال • ولم يكن لى حتى هذه اللحظة أى علاقة بروز اليوسف الا كقارىء • وكان بينى وبين بعض محرريها علاقات صداقة غير وطيدة • وكنت أتردد عليها أحيانا مع طوغان الذى كان يعمل بها رساما لفترة من الزمان•

ولقد راعني منظرها أول مرة رأيتها من الداخل ، منظر المكاتب المحطمة والجدران المشبقوقة ، وعشرات من المحررين اللامعين يتخاطفون ساندويتش واحد ، أو يبحثون معا عن سيجارة • ولكن هذا المظهر لم يكن يخفى عن العين الفاحصة حقيقة الموضوع • فلقد كانت هذه المجموعة التى تعمل فى روز اليوسف أغلبهم ثوار وأصحاب قضية •• وحتى المحررين المحترفين فيها كانوا ينصهرون في الجو العام للدار ، فيصبح من الصعب على الزائر أن يفرق بين الصحفى والثورى !

وكانت العلاقة بين رئيس التحرير والمحررين نموذجية ، كان واحدا منهم ، وكثيرا ما كان يترك مكتبه ويجلس فى الصالة يتفرج على لوحات الفنانين • وكانت تربطنى بروز اليوسف رابطه أخرى هى أن الصداقة توطدت بينى وبين احد محرريها المسئولين وهو فى أخريات أيام حياته • كان اسمه عز الدين. وكان شابا وسيما وفنانا ووحيدا ، وقد تعرفت عليه فى مستشفى القصر العينى وهو يعانى من مرض السل الرهيب . وقد طال به المرض قبل أن يفتك به ، أو في الحقيقة قبل ان يفتك هو بنفسه • وذات مرة حذره الاطباء أمامى من السهر ومن التدخين ومن الانفعال ومن الكلام •

وابتسم عز الدين فى هدوء وقال وهو يناولنى سيجارة ويشعل لنفسه سيجارة أخرى ••

انهم يحذروننى من الحياة • وظللت اتردد على عز الدين فى المستشفى حتى مات ، وقد ترك موته فى نفسى اثرا رهيبا • فلقد كنت قبل أن أراه اتوهم انى مريض بالسل ، وبعد أن عرفته تأكدت من اننى مريض ، وظللت بعد ذلك أعواما طويلة أعيش الحياة على انني مسلول ، ولم يدفعنى هذا الشعور الى الحياة بحذر ، بل دفعنى الى الحياة بجنون ! فمادام المصير هو الموت ، فأى فائدة يجنيها الانسان من التردد والخوف والوقوف على مشارف الحياة يتفرج عليها •

ولكنى رغم ذلك اخترت دار الهلال وفضلتها على روز اليوسف والسبب أن روز اليوسف كانت تعامل محرريها بالقطعة ،ودار الهلال كانت تنهج نفس السبيل ، ولكن روز اليوسف كانت تدفع على ماينشر ، وكانت دار الهلال تدفع على ما يكتب ، وبينما كانت دار الهلال تدفع ثلاثة جنيهات على

الموضوع ، كانت روز اليوسف تدفع خمسين قرشا ، وأحيانا كانت تدفع عشرة قروش على الخبر ، أمــا الخبر الذى ينشر بحروف بارزة فكانت تدفع مقابله ريالا كاملا !

ورغم أننى قارنت واخترت ، الا أننى لــم أذهب الى دار الهلال الا بعد ذلك بستة شــهور ، ذلك أن الطريق الى هناك لم يكن سهلا . وخلال الشهور الستة الاخيرة في مســامرات الجيب عانيت الكثير . كان الرجل الطيب دائم التجوال بين البانسيونات كأنه أحد الاعراب الرحل . ولم يكن الانتقــال بدافع السياحة أو التغيير ، ولكن السبب الحقيقى كان ضيق ذات اليد ، وعدم استطاعة صاحبات البنسيونات الصــبر ، حتى تنفرج الامور وتتعدل الاحوال !

وذات مساء ونحن جلوس نتأهب لترتيب الكتب فى بنسيون جديد كان الرجل الطيب قد انتقل اليه فجأة ، عرض عــلى أن أتزوج ! ولم يكن يخطر ببالى شىء من هذا ولم أكن أستطيــع حتى الارتباط الاجتماعى بشقة استأجرها أو توزى يقبــل التفصيل لى على الحساب .. كنت حتى تلك اللحظة كأبنــاء الغجر ، أهلب رزقى بالعافية ، واتناول الطعام ليس لاننى جائع ولكن لاننى وجدته ، وأنام عندما يغمى على من شدة الارهاق ، وأذهب الى أى مكان مادامت هناك دعوة . وكانت حياتى كلها مضطربة ، ولكن علاقاتى الجنسية كانت اكثر اضطرابا .

وكانت آخر مرة اتصلت فيها بامرأة منذ اسبوع من هــذا العرض الذى جاء فجأة وبلا مناسبة من الرجل الطيب .

وكانت مغامرة شقية ليس لها نظير ، وحمــاقة لا يرتكب مثلها الا المجانين أو المجرمين العتاه .

فقد تعرفنا الى امرأة ليس لها شكل تجلس وحيدة فى كازينو شهريار ، وكنا عشرة شبان ورجلا عاقلا يعمل مدرسا فى احدى الجامعات . وكان شديد الخجل شديد الطيبة ، منعته ظروف أسرته المحافظة وعمله المحترم وعمره الذى شارف الاربعين من أن تكون له أية مغامرات من أي نوع .

ولقد وجد فى صــحبتنا لونا من الحياة لم يألفــه وان كان يتمناه . وعوضته شقاوتنا عن استقامته التى كانت مضرب

الامثال • وكان شديد المحافظة على المظهر فى الخارج ، فاذا ضمه معنا منزل واحد بدا على طبيعته المرحة ، وسلك سلوكا يختلف تماما عن السلوك الذى كان يبديه أمام الناس •

وفى تلك الليلة نصحنا بألا نقترب من المرأة التى تجلس وحيدة وأكد أنها تنتظر رجلا ، وهددنا بأنه سيغادر الكازينو اذا نحن أقدمنا على عمل طائش من هذا النوع • ولكننا لم نستمع لنصيحته وقمت أنا وغزالى وبعد لحظة كنا نجلس مع السيدة التى تجلس وحيدة ، ولم تلبث ضحكاتنا نحن الثلاثة ان ارتفعت تعلن للجمع المتربص بنا أننا فى غاية الود والانسجام !

وسرعان ما غير الرجل الطيب رأيه فلميغادر الكازينو ، ولم يحتج علينا ، بل أرسل الينا من يخبرنا أننا نستطيع أن نطلب مانشاء من الطلبات وأنه سيدفع الحساب !

وبعد قليل نهضنا مع الست خارج الكازينو فى طريقنا الى المنزل • ولم يكن لدينا منزل كما لم يكن هناك منزللدى أحد من الشلة التى تتعقبنا . ورحنا نفكر أنا وغزالى فىمكان نقصد اليه • ولم نهتد فى النهاية الا الى بيت طالب أزهرى اسمه الصيرفى كان يسكن وحده فى الجيزة فى شقة فى بيت له مظهر البيوت الانيقة ، رغم أنه فى الداخل لم يكن يحتوى الا على سرير شديد القذارة ومشنة عيش كانت دائما فارغة ، وثلاثة كراسى كلها محطمة كأنها متخلفة من خناقة بين بعض الفتوات العتاة !

وكان الصيرفى نفسه شديد الغرابة ، مظهره يدعو الى الاضحاك ، كان قصيرا ومشوها ويتكلم بالفصحى وبصوت عال كأنه يخطب على الدوام • وكان سعديا متحمسا وهى ظاهرة شاذة تأملتها كثيرا ، ولكن لم أستطع تفسيرها على الاطلاق ، فلقد كان هناك وزراء سعديون ، ونواب سعديون ، وشيوخ سعديون ، ولكن أبدا لم يكن هناك شبان سعديون •

كان الشباب موزعا تلك الايام بين الوفد ومصر الفتاة والشيوعيين والاخوان • وكان الصيرفى هو الشاب السعدى الوحيد الذى قابلته فى حياتى ، وكنت دائم العراك معه ،

شديد السخرية به ، هازئا من معتقداته ، متهما اياه بالرشوة اذ لا يعقل أن يكون الانسان سعديا بضميره ، خصوصا اذا كان شابا ، ولابد أن يكون لهذا الموقف الغريب ثمن مدفوع !

وأعتقد الآن أن موقف الصيرفى كان مدفوع الاجر ، وأنه كان أجرا زهيدا لأنه كان دائم الشكوى من الافلاس ، وكان يبدو دائما شديد الارهاق والشحوب ٠

ولقد استقبلنا الصيرفى بفرح شديد ، وعندما وقع بصره على المرأة التى معنا لمعت عيناه ببريق غريب ٠ واستقبلته المرأة بفتور وباحتقار شديد ، فقد كان يرتدى جلبابا مخططا وحافى القدمين ، وكانت فانلته تبرز من فتحة جلبابه وكان فيها من الثقوب أكثر مما فيها من القماش ٠

واعتقدت المرأة أنه خادم فى المنزل وعاملته طول السهرة على هذا الاساس ٠

ولم تلبث شلة الاصدقاء أن اقتحمت علينا المنزل ٠ وكعادة الفقراء أردنا أن نزيف الواقع المر وأن نخدع أنفسنا ، وأن نضفى على الجو مسحة من الشاعرية والخيال ، واكتتبنا جميعا لنحصل على زجاجة رخيصة من الكونياك الردىء ، ومن جهاز الراديو العتيق الذى تعشش فيه الصراصير رحنا نستمع الى موسيقى حالمة ، وصعد غزالى على أكتاف أحدنا ولف حول لمبة النور قطعة من الورق الاحمر ، ورحنا نسهر فرحين فى هذا الجو الهزيل ٠ جو كلما تذكرته الآن اقشعر بدنى من هول ما كنا فيه ٠ جو تجتمع فيه امرأة صايعة قبيحة وعشرة شبان ورجل رزين وزجاجة خمر رخيصة وراديو كان لا يواصل الغناء الا بخبطة يد قوية تهز أجهزته العتيقة التى تود أن ترتاح من هذا الشقاء اللعين !

المهم أن السهرة اكتملت ، وعندما جاء الصباح كان علينا أنا وغزالى أن نواجه الموقف الصعب ، ولم يكن معنا سوى ستين قرشا هى كل ما مع الشلة من نقود ٠ خمسون قرشا دفعها الرجل الرزين وعشرة قروش هى كل ثروة الآخرين !

كانت المرأة تقف أمام المرآة تسوى شعرها وتغنى بصوت مسلوخ أغنية شائعة ، وكان الصيرفى يقف فى الصالة محموما

وعيناه مصوبتان نحونا كأنهما فوهتا بندقية مستعدة للاطلاق ·· والسبب أن المرأة الصايعة رفضت بشدة أن يختلى بهـا الصيرفى وكان هذا تصرفا طبيعيـا من جانب المرأة · فهكذا الفقراء دائما يريدون فى أى مناسبة أن يؤكدوا لانفسهم أن هناك من هم أفقر منهم ، وهكذا الحقراء أيضا يريدون أن يثبتوا ولو لأنفسهم أن هناك من هم أحقر منهم ·

وكانت تلك الليلة هى فرصة الست الصايعة ، ولقدأصرت على موقفها وظلت متمسكة برأيها لا تتزحزح ، ورغمالتوسلات والشفاعات فانها رفضت بشدة ، وبدا عليها فى لحظة أنهـا مسألة مبدئية ، وأنها على استعداد لتواجه الموت فى سبيـل هذا المبدأ العظيم !

ولما ضاعت كل المحاولات عبثا ، قررنا تجاهل الامر تماما ، واتفقنا على ضرب الصيرفى لو اعترض طريقنـا أو حاول أن يقوم بحركة انتقام من أى نوع ·

وكانت المرأة الصايعة قد انتهت من زينتها عندما أقبلت علينا تتقصع كأنها ممثلة سينما ·· وبدت تلك اللحظة بشعة كغوريلا مزوقة · ووقفت أمامنا فجأة ومدت يدها تطلب النقود وهمس غزالى فى أذنى أن الحساب سيتم فى الخارج وليس أمام الصيرفى الغاضب المتحفز المطعون فى كبريائه ولكن الست رفضت بشـدة أن تتزحزح خطوة الا بعد أن تحصل عـلى النقود ·

ومد غزالى يده بالمبلغ الموجود ، ولكنها شهقت وتقصعت وألقت بالمبلغ على الارض وطلبت عشرة جنيهات لا تنقص مليما والا فالويل والثبور وعظائم الامور !

وضحكت أنا وغزالى ، فلم نكن فى هذه اللحظة قد رأينـا عشرة جنيهات كاملة ، وكان اليوم آخر شهر ولو أننا فتشنـا الجيزة كلها فلم نكن نعثر على عشرة جنيهات ·

ولقد كنا متعبين للغاية بعد أحداث تلك الليلة الحافلة ·· ولم نكن قادرين على النقاش كما أننا لم نكن مستعدين لمواجهة امرأة متنمرة وفى بيت رجل أكثر تنمرا !

ولذلك ــ وبدون اتفاق ــ فتحنا الباب فجأة بعد أن جمعنا

النقود المبعثرة على الارض وانطلقنا هاربين الى الشارع . ولكننا لم نبتعد كثيرا حتى توقفنا فى عرض الطريق نستمع الى الصراخ الذى انبعث من داخل المنزل ، ولم يكن الذى سمعناه هو صراخ المرأة .. ولكن صراخ الصيرفى !

هذه اذن هى نهاية الصيرفى فى هذا اليوم المشئوم ! ليلة معذبة بالنسبة له وصبح أغبر ! ولكن الصراخ لم يلبث أن تلاشى ثم هدأ كل شيء .

وتوقعنا أن تخرج المرأة ولكنها لم تفعل ، ولما طال غيابها جلسنا على قهوة الحريرى القريبة وطلبنا افطارا وشربنا الشاى واشترينا علبة سجائر كاملة ، وجلسنا ندخن فى هدوء .. كأننا نستقبل يوما جديدا من أيام الحياة فى ثقة زائدة .

وفى الظهر خرجت المرأة الصايعة ومعها الصيرفى ، ووقف معها على محطة الترام حتى ركبت ، ولما انطلق بها الترام رفع يده يلوح لها كأنه صديق يودع صديقته العزيزة وهى تبدأ رحلة ميمونة الى باريس .

أغرب شيء أن الست الصـــايعة لم تنقطع عن الجلوس فى كازينو شهريار ، ولكنها كانت كلما رأتنى أنا وغزالى أشاحت عنا بوجهها . رغم أن الرجل الرزين أستاذ الجامعه قد تنازل عن كبريائه وتجاهل مركزه الاجتماعى وقضى معها ليلة بأكملها فى الكازينو يعتذر لها . ثم اختفت الست من حياتنا ومن الكازينو بعد ذلك .. ثم علمنا أنها تزوجت !

وممن ؟ ...

من أستاذ الجامعة الرزين نفسه ! ... ودنيا عجيبة وواقع ... ولكن أغرب من الخيال !

لذلك كان عرض الرجل الطيب بالزواج موضع دهشتى ! فهو أعلم الناس بظروفى كما أنه يعلم تماما أنه ليس فى حياتى امرأة ! وعندما سألته عن سبب هذا العرض قال على الفور ، أنت محتاج الى امرأة الى جوارك ، موهبتك ينقصها التنظيم ، لو أنك حصلت على كفايتك من النوم وكفايتك من الطعـــام لاستطعت أن تنتج شيئا أعظم ، انك مادة خام طيبة وفى حاجة الى من يبنيك !

وعندما سألته : ولكن أين هى الزوجة التى ترضى بهـــذه الصفقة الخاسرة ؟

أجابنى فى هدوء وقد رفع وجهه عن الكتاب الذى يقرؤه : صفية !

وكانت صفية امرأة رغم أنها لم تتزوج قط ، وكانت من أسرة ثرية ، وتتمتع بروح متشردة . وكانت تتردد على دور الصحف مقنعة نفسها أنها مثقفة وأنها عالمة ، وأن عليهـــا واجبا ثقيلا هو تعليم الشعب ورفع مستواه • وكانت متبجحة لاتدرك كم هى غبية وحمقاء ومزيفة ! وكان الشعب فى نظرها هو مجموعة المثقفين الذين تجلس معهم وهم شلة الافندية الذين تقضى اوقاتا سعيدة فى صحبتهم •

ولما أبديت له رأيى فى صفية ، قال فى حســم ، تتزوج لا لتصلح أحوال اللون ، ولكن لتصلح من شأنك وأنت فى حاجة اليها لمدة عامين أوثلاثة ، ثم تصرف بعد ذلك كما تهوى !

ورحت أفكر فى الامر •• وبعد أسبوع وافقت على العرض ولم يبق الا التنفيذ •• وتم الامر فى هدوء •• سحبها الرجل الطيب الى كازينو شهريار ذات يوم لكى تتعرف عن قرب الى الولد الشقى الذى سيكون زوجا لها فى المستقبل ودعوتهـا أنا على الغداء ، فتة ولحمة راس وطرشى بلدى • وجلســت تتفرس فى الطعام كأنها خوجاية من بلجيكا تشاهد قطعـــة أنتيكا مصرية لأول مرة ! ثم صحبتها فى جولة داخل الجيـزة وهى مدهوشة لما ترى وما تسمع . وانطلقت على ســـجيتى أنكت وأضحك وأصافح كل من ألقاه من أبناء البلد الطيبين ، ويعلم الله كيف استدنت لأواجه نفقات هذه الدعوة ، فقـــد أنفقت يومها ما يقرب من جنيه !

وفى المساء انصرفت الست صـــفية ، ثم علمت فى اليوم التالى أنها رفضت ، والسبب ••• أننى بلدى •

ولقد حدثت هذه المسرحية بين الست صفية وثلاثة شبـان آخرين غيرى ، أحدهم الآن نجم من نجوم السياسة فى مصر ، والآخران من رجال الاعمال الناجحين للغـــاية ، وقد رفضتهم الست جميعا •

وأنا أدرك السبب الآن ، فلقد كانت صـــفية تتمنى من أعماقها أن تتزوج الرجل الطيب ! والى هــذا الحد كان الرجل الطيب يعرفها ولذلك آثر أن يبتعد عنها ، ولما يئس من العثور لها على زوج مناسب ، تزوج الرجل الطيب فجأة وغادر مصر الى الهند وقضى هناك سنوات طويلة · ولاتزال الست صفية ــ وهى الآن فى خريف العمر ــ تنتظر الزوج المناسب ! ولكنها لم تعد نفس السيدة التى كنت أعرفها من قبل ، ذبلت وجفت وانزوت ، وأصبحت كقطعة قماش قديمة ممزقة وباهتة اللون !

ولقد غادر الرجل الطيب مصر فجأة ذات يوم من عام ١٩٤٨ وكانت حرب فلسطين على الابواب ، ولقد حضرنا اجتمـــاعا ساخنا فى فندق شبرد حضره « زعماء العروبة » وقتئذ ، وفى نهاية الاجتماع أخرج أحدهم مسدسه وأطلق منه عيــارا فى الهواء ، وقال كلمة صارت مثلا :

تكلم السيف فأسكت أيها القلم !

وكتبت يومئذ كلمة قصيرة عن الاجتمـــاع ، وعلقت فى نهايتها على الكلمة المأثورة التى أطلقها الزعيم اياه !

تكلم السيف فاسكت أيها القلم ·

وقلت : وسكت القلم ، وتكلم السيف ·· سيف الاســلام عبد الله !

مجرد نكتة حزقتنى ولكنها كانت الحقيقة المرة · وشعرت بضياع شديد وفراغ لا حد له بعد سفر الرجل الطيب ·

هأنذا وحدى مرة أخرى بلا أى ســلاح · والرجل الطيب غادر مصر الى الهند ، ويبدو أنه سيغادرها نهائيا · ولكن أنا محكوم على بالبقاء فى الحضيض الى الابد ·

فلا أنا أستطيع أن أجد مكانا لقــدمى فى الزحام ، ولا أنا أستطيع أن أبحث عن هذا المكان بعيـــدا عن مصر · وفكرة الهجرة نفسها لم تكن تروق لى ، فأنا أشعر بارتباط حقيقى وبحنين جارف الى الارض ، ولا يوجد مكان فى الحياة يستطيع أن يعوضنى عن حوارى الجيزة وميدان الساعة وشريط الترام وشاطىء النهر ·

وطاف بخاطرى أن أعود مرة أخرى الى الوظيفة ، ولكن سرعان ما تخليت عن هذه الفكرة نهائيا . فأنا لاأطيق الحركة فى نطاق روتين لا يتغير ، كما أننى لاأتقيد بمواعيد ، ولاأحسن عملا أجبر عليه . وأنا فى حقيقة أمرى صايع أكتب أحيآنا ، ولو تركت لى حرية الاختيار لاخترت أن أكون مجذوبا أطوف حول ضريح السيدة أصرخ فى الليل كالذئاب بكلام غيرمفهوم .

وألذ لحظات حياتى هى تلك التى أقضيها وأنا على سفر . وفى أى لحظة أستمع فيها الى صفير قطار يسابق الريح أحس برغبة شديدة فى البكاء ، وكلما رأيت طيارة تحلق فى الجو انتابتنى حالة غريبة ، فأتوقف عن السير وأظل رافعا رأسى الى أعلى أتتبعها حتى تختفى عن ناظرى .

وأعظم أغنية حركت مشاعرى وأنا طفل وألهمتنى لحظات عظيمة من الكآبة والحزن كانت أغنية شائعة منذ أكثر من ثلاثين عاما فى مصر .. وكانت كلماتها تقول : « ياطير يامروح على بلدك ليه بتنوح » .



الوظيفة اذن لا تصلح لى وأنا لا أصلح لها .

وهكذا عدت من جديد الى الجيزة ، والى شارع عباس ٠٠ والى رجل كانت تربطنى به صلة صداقة عميقة ، ويشدنى اليه اعجابي به على نحوما ٠٠ ولكنى عدت اليه وقد تغيرت سحنتى وتغيرت هيئتى ، عدت اليه وقد غيرت منى الايام ، وأكلت منى الاحداث ، وشيبتنى الايام السود التى عاصرتها ٠

وهكذا عدت الى الجلوس على باب دكان عبده المكوجى ٠٠٠ عدت الى عالمى العجيب الرائع ، عالم حسنين الطباخ وصابر السفرجى ، والمعلم قطب ٠

ولكنى ولأول مرة فى حياتى بدأت أخشى المستقبل ٠٠. وأتحسس طريقى وسط الظلام الذى لا يبدد من ظلامه بارقة أمل ضئيلة !

وذات صباح وصلنى خطاب خلصنى من قلقى وهمى ٠ وكان الخطاب من جهة رسمية ، ويحمل ثلاثة سطور لا غير ، وكان يدعونى الى التجنيد الاجبارى فى صفوف الجيش ٠



٦

كان استدعائي للجيش حلا لجميع المشاكل ، وكنت فخورا على نحو ما ، ولانني ضمن أول دفعه تدخل الجيش بعد الغاء نظام البدل ‥ وهكذا غادرت الجيزة ذات صباح بعد أن استعرت بالطو قديم من أحد أصدقائي ، وسافرت الى قريتنا وقضيت في القرية عدة أيام استراحت فيها نفسي من القلق والعذاب ‥ هاهي ترعة سبك التي أحبها وكأنها كائن حي !

ففي قاع هذه الترعة كثيرا ما قضيت أيام طفولتي ساعات طويلة أبلبط في الطين • ومن هذه الترعة أصابتني مأساة حياتي ، البلهارسيا • والتي لم أفلح في التخلص منها الا بعد عذاب •

وهنا الرياح المنوفي الذي أشم على شاطئه رائحة غريبة ليس لها مثيل في أي مكان ، وهنا منازل الجدود والاعمام وقد رحل معظمهم عن هذه الحياة • وهنا الفلاحون الطيبون الخبثاء البلهاء أفقر واتعس مخلوقات الله على هذه الأرض •

وفي هذه الايام راقت في عيني بنت فلاحه تمنيت من أجلها أن أدخل الجيش واتزوجها على أن تبقى في القرية وازورها أحيانا . وكانت مليحة وبضة وفيها ملامح ممثلة أمريكية شهيرة كنت أعشق أفلامها وكان جمالها طازجا وعفيا ، وكانت جريئة تهوى المزاح والغناء ، وكانت حين تغنى يسيل من صوتها المبحوح نبرات حزينة كأنها البكاء • ولكني رحلت ذات صباح من القرية دون كلمة وداع من البنت الفلاحة ، ولم أرحل وحدي ولكن مع قافلة حزينة من عشرة شبان فلاحين ، صادق

ويوسف وجاد الحق واخرين . وكان بعضهم أصدقائي ، والبعض الآخر أراه لأول مرة ، وخرجت أنا على رأس الموكب اركب حمارا وفلاح قريبي يجرى من خلفي ، وخرج جدى الشيخ خليل يودعنا حتى شاطىء الرياح ، ثم منحنى جنيها وتمنى لى السلامة .. وعاد ! وخطفت نظرة على جدى وهو يحث الخطى نحو القرية ، وادركت عندئذ أننى أنتقل الى حياة جديدة مختلفة ، واننى لأول مرة أواجه المرحله الجديدة بلا أصدقاء !

كانت الشمس على وشك أن تتوسط السماء حين وصلنا الى مركز بوليس الباجور ، وفى دقائق انتهت اجراءات تسليمنا وصافحنا الخفراء ومضوا . وواجه شاويش المركز مشكلة وجودنا فى المركز حتى الصباح . وراح يسأل كل مسئول فى المركز عن حل مناسب للمشكلة . كانت المشكلة تتلخص فى أننا عهدة لديه ، وكان السؤال : هل يلقى بنا فى الحجز ؟ ولكننا لسنا وش ذلك كما أفتى أحد الصولات الطيبين اذن هل يتركنا نتجول فى فناء المركز ؟ ولكن من يدرى .. فقد يهرب أحدنا ، خصوصا أن بعضنا كان يبكى بحرقة وكأنه ذاهب الى الاعدام . وفى المساء ذهب الشاويش وأحضر كاتب المركز ، وهو رجل مسئول خطير المسئولية ، وكان شابا صغيرا حديث العهد بالوظيفة ، عندما وقع بصره علينا ، صاح على الفور : « ارموهم فى الحجز » وعلى الفور انطلقت الصيحات والنبى يابيه احنا غلابة ، نبوس رجلك يابيه ربنا يخليك .. وانقلب المركز الى مناحة ، ولكن البيه لم يتزحزح خطوة .. وأصر على موقفه وكان لابد من تنفيذ الامر . وانهالت الكرابيج فجأة تمزق الهواء وتمزق الجلود ، وسرعان ما هدأت الضجة ، وانفتح باب السجن الكبير ليدخل عشرة رجال سيصبحون بعد أيام عساكر فى جيش مصر . وقبل أن نخطو داخل الزنزانة القذرة المعتمة نادانى الافندى الكاتب وقال وهو يهزنى برفق : انت مش محمود ، ولما أجبت بالايجاب صافحنى بحرارة .. وتبينت وأنا أتفرس فى وجهه أنه فخرى صديقى القديم وزميلى فى مدرسة المعهد العلمى . وقضيت الليل كله فى حجرة فخرى نشرب الشاى وندخن السجاير ، ونستعيد ذكريات الشقاوة فى شارع سلامة أيام التلمذة ولأجل خاطرى أفرج عن الآخرين وسمح لهم بالنوم فى فناء المركز على ضمانتى . وفى الصباح أوصى الشاويش الذى صحبنا الى القاهرة أن يعاملنى معاملة

كريمة · وسرنا من جديد الى محطة السكة الحديد ، الفلاحون مقيدون بالحبال ، وأنا أسير بجوار الشاويش نتبادل الحديث والسجاير والفلوس أيضا · فقد حدث أن وقفنا ننتظر القطار فى محطة بنها ، وكان علينا أن ننتظر لمدة ساعة واستأذنت من الشاويش لمدة دقائق أزور خلالها خالتى التى تسكن فى بنها، وعندما عدت لم أجد أحدا فى المحطة ، واكتشفت أننى تأخرت كثيرا وأننى تحت الحاح خالتى تناولت طعام الفطور وشربت الشاى ثم خرجت أتجول فى شوارع بنها قبــل أن أذهب الى المحطة · وركبت القطار الآخر وفى نيتى أن أفعل شيئا ·· اذا وجدت القافلة فى انتظارى فى محطة مصر كان بها ·· واذا لم أعثر فالفرار اذن هو الشيء الوحيد الذى يجب أن أفعله · فلقد عانيت كثيرا خلال الساعات الاخيرة ، وشعرت بمرارة من منظرى وأنا أزحف الى جوار الشاويش ومن كلمات النفــاق التى تناولناها خلال الرحلة ، وهى كلمات زائفة ، وباردة كما أننى لم أكن تعودت قبل ذلك أن أنهض بأمر وأسير بأمر ·· وأتوقف بأمر ، واذا كان هــذا هو حال الاوامر وأنا فى يد البوليس ، فكيف يكون الحال عندما أصبح فى يد الجيش ؟··

دخل القطار محطة مصر ·· ورحت أتلفت على الرصيف ، ولكننى لم أعثر على أحد هناك ، وعندئذ قررت أن أهرب ·· ولكن الى أين ·· الى الجيزة ؟ انهم سيبحثون عنى حتمــا فى الجيزة وسيقبضون على ·· اذن أهرب الى مكان آخر · ولكن أين هو هذا المكان ؟ ورحت أستعرض فى ذاكرتى كل الاماكن التى أستطيع أن أهرب اليها ، ولكن قبل أن أستقر على مكان لمحت ضجة من بعيد ، وصراخ يتصاعد فى فناء المحطــة ·· وشدنى فضولى الى هناك ·· وهو فضول سيسبب لى متاعب لا حصر لها فى المستقبل · واخترقت الحلقة المضروبة حول الرجل الذى يصيح وعندما أصبحت أمام الحلقة ، اكتشفت أننى أصبحت وجها لوجه أمام الشاويش ·· وانه هو نفســه الذى يبكى ، ومد يدا عملاقة جبارة وقبض على عنقى ، وعبثا حاولت أن أخلص نفسى منــه دون جدوى ، ولم يترك عنقى يفلت من بين أصابعه الا فى معسكرات الجيش ·

كان المعسكر الذى ضمنا يقع على مشارف الصحراء فى أطراف العباسية وكان اسمه معسكر العزل ٠

ومن أول دقيقة تم تفنيطنا ٠٠ وعزلونى بعيدا عن زملاء الرحلة ، ووضعونى فى خيمة مع سبعة أفندية متعلمين ٠ هم حصيلة هذا اليوم من المجندين أصحاب المؤهلات ٠٠ كان الافندية السبعة كلهم من الريف ، وأبناء عم جميعا ومستورين وكانت أسرهم قد انتقلت الى المدينة خلفهم ساعين بالوسائط والشفاعات لدى أصحاب النفوذ ليخرجوا « الاولاد » من هذه المحنة ٠ وكان المعسكر يسلم رواده ماركات بخمسة قروش ليشترى من البوفيه طعامه وشرابه ولكن سكان خيمتى كانوا يتبرعون بالماركات لشاويش المعسكر ، الشاويش خلاف ٠٠ وهو رجل له صوت مكنة طحين خربانة ، وقلب من بلاط ٠ وعقل أغلب الظن أنه من مصاصة قصب ، وكان شديد الزهو بهيئته ، شديد الاصرار على تنفيذ الاوامر كما هى دون أدنى تقصير ٠ ورغم أنه فلاح فقد كان يحتقر الفلاحين من أعماقه ، وكان يطلق على زملائنا فى المعسكر من أبناء الريف وصف الطلاينة ، وكان يعتقد أن الطلاينة هم أسوأ ناس على ظهر الارض ٠وكان يتردد علينا دائما أثناء تناول وجبات الطعام ، وكان يتلكأ عندما ندعوه الى الاكل معنا ثم ينبل بعد الحاح ، ولكنه بعد أيام ، أصبح يهجم على الطعام دون دعوة ، بل أصبح يوصى بأصناف معينة ، وأكثر من هذا كان يوجه نقدا لبعض أصناف الطعام ، ولم تكن خيمتنا تستهلك من الطعام ألا الذه وأشهاه ، فطير مشلتت ، فراخ محمره ، عسل نحل ، قشطه فلاحى ، جبنه قديمة ، بيض مسلوق ، رز معمر ! وكان خلاف يعشق الرز المعمر الى درجة الجنون ، وذات مساء أكد لنا ونحن جلوس أمام باب الخيمة أن الذى يأكل الرز المعمر فى كل وجبة يعمر الى سن المائة ، ويبقى فى صحة جيدة الى آخر يوم من أيام العمر ٠ وأن معنى معمر مأخوذة من العمر الطويل ! وفى ذلك المساء نهض خلاف فجأة فى منتصف الليل وأطلق صفارةطويلة وسرعان مااستيقظ جميع الوافدين للتجنيد ، ولما سألته عن السبب قال فى هدوء ، عشان يلموا ورق ! ولما لم يكن هناك ورقة واحدة فى أنحاء المعسكر ، فقد هز خلاف رأسه وقال : يلموا أى حاجة دول طلاينة ! وخلال سبعة أيام فى المعسكر

رأيت أشياء عجيبة ، المجندون ـ ماعدا الافندية ـ تحولوا الى مجموعات ، أبناء المنوفية وحدهم ، وأبناء الشرقية وحدهم ، والصعايدة وحدهم . ولكن أنشط وأعظم مجموعة كانت تضم أبناء الاسكندرية . ولقد جاء أبناء الاسكندرية الى المعسكر ليس كما يجيء الناس . جاءوا فرادى ومع كل منهم عسكرى ، وفي يد كل منهم جوز كلبشات وأمر من البوليس بمراقبة النفر ، فاذا دخل الجيش كان بها ، واذا أعفى من التجنيد فلابد من تسليمه للبوليس ، واكتشفت أنهم جميعا من بحرى والانفوشى ، وأنهم جدعان لهم شهرة فى اسكندرية وأنهم جميعا مراقبين بعد سجن طويل من أجل جرائم لاتمس الشرف . وكانوا يسهرون الليل بطوله مضفين على جو المعسكر ساعات من البهجة والمرح وكانوا جميعا يحفظون الحان سيد درويش ، ويتعصبون لكل ماهو سكندرى ، وكانت الاسكندرية فى رأيهم هى مركز الكون ، ومحور العالم ، كما أن أهلها هم أذكى ناس على ظهر الارض ! وكانوا يحتقرون الشاويش خلاف بشدة ، ويتعمدون عدم تنفيذ أوامره ، وكانوا يسمونه القفة ردا على تسميته لهم بالطلاينة . ولكن رغم هذا التحدى فقد سارت الامور عدة أيام فى هدوء قبل أن ينفجر الموقف داخل المعسكر .. ورغم رذالة الشاويش خلاف الا أنه كان محتملا ، فقد كان خفيف الدم ، وكانت تطلعاته محدودة ، ومطالبه سهلة ولكن الصول شفيق كان أكبر مصيبة حطت علينا نحن الافندية .. كان يسهر معنا طول الليل مصرا على أن يقرأ علينا كشاكيل ضخمة من انتاجه الادبى .. وكان مصرا على أنه لو صادف بعض الحظ الحسن فى الحياة لاصبح مثل طه حسين والعقاد وكان يحلم بأن يترك الخدمة يوما ماليصبح كاتبا كبيرا ذائع الصيت . وعندما قرأ أول سطر فى الكشكول الضخم الذى سحبه علينا ، تبينت كم هو مدع وكاذب مهبول « بينما كنت أسير فى منازل الزرع الاخضر ، بين النسيم العليل والهواء البليل والطيور تغرد على أفنانها ، والحيوان يتبخطر فى أرجائها » .. وسكت فجأة ليسألنا سؤالا مفاجئا ، عارفين يتبخطر يعنى أيه ؟ وأجاب بنفسه على الفور ، يعنى يتمخطر شايفين الفن ! ولم يكن فى كلامه فن ولا حتى صنعة . ومع ذلك ظل يقرأ علينا كل يوم كشكولا ضخما ونحن نستمع اليه فى أدب وفى خوف ، وكنا أحيانا نردد أمامه عبارات الاعجاب .

وكان هو ساذجا ومغرورا الى حد أنه صدق كل حرف قلناه !

وذات صباح نشبت المعركة فى المعسكر ، طلب الشاويش خلاف من أبناء الاسكندرية أن يجمعوا الورق ، ولما لم يكن هناك أى ورق ، فقد رفضوا تنفيذ الامر ، ومد الشاويش يده ولهف أحدهم قلما ولكن قبل أن تصل يده الى المكان الذى اعتادت أن تصل اليه . كان الشاويش خلاف قد أصبح جثة ممددة على الارض والدماء تنزف من كل جزء فيه . وطاح عيال اسكندرية فى المعسكر كله ، وضربوا الشاويشية والصول والمجندين ، وزعق النفير كبسة وتدفقت قوات كبيرة حاصرت المعسكر ، وسرعان ماهدأت المعركة وتم عزل أبناء الاسكندرية فى معسكر آخر قريب .وذهبنا للكشف الطبى فى النضارة. ووقفنا جميعا عرايا فى حوش واسع تنبعث منه روائح كريهة أشبه بالروائح التى تنبعث من بيت الاسد فى حديقة الحيوان . وعندما عدنا الى المعسكر كنا قد أصبحنا جنودا فى الجيش . أما الآخرون فقد اطلقوا سراحهم بعد الكشف ، ولم يعد معى من أبناء بلدنا الا واحد فقط . والباقون جميعا شرك . وكان السبب واحد : ضعف الرؤية الى درجة العمى .. ولقد أتيح لى أن أعيش عشرين يوما فى المعسكر ثم استطاع أحد أفراد اسرتى وهو مستوظف وكان على علاقة بأحد الاحزاب استطاع أن ينتزعنى من المعسكر ومن الجيش كله لاعود من جديد الى الجيزة تحت الطلب ! وكانت تحت الطلب تعنى أننى أكون مستعدا دائما للدخول الجيش عند أى لحظة خطر يتعرض لها الوطن! وهى نكتة بالطبع لاننى خرجت من الجيش والوطن يتعرض فعلا للخطر ، ولم أكن أنا وحدى الذى خرجت ، خرج معى كل الافندية ، وتركنا الطلاينة خلفنا للشاويش خلاف وللصول الذى يحلم بالشهرة عن طريق الادب ..

وخرجت من المعسكر الى دكان عبده بكر ، وبعد شهر واحد أصبحت محررا فى دار الهلال . ولكن خلال هذا الشهر وقع حادث غريب . فقد هبط على ذات مساء شاب كان يعمل معنا لفترة فى مسامرات الجيب . وكان اسمه خلف وكان وسيما وصحيح البدن وله هيئة وشكل أبناء الذوات الهنود . وكان

يعمل محاميا ولكنه صادف كثيرا من المتاعب فلجأ الى الصحافة وكان قريبا الى قلب الرجل الطيب • ولقد نصحه الرجل الطيب بأن يتجه الى الترجمة ، وكان رأى الرجل الطيب أن المترجم الذى ينقل أدب الشعوب الى لغتنا ينبغى أن يكون أديبا وفنانا ومحبا للشعب ولقد وافق خلف على هذا الرأى فعلا وانهمك فى ترجمة كتاب لدستوفسكى ، ولكنه سرعان ماهجر دستوفسكى الى سمرست موم ، ثم هجر الجميع الى كاتب فرنسى وترجم له فصولا من كتاب فلسفة الحب ! ثم مالبث أن اختفى نهائيامن المجلة ولم أره بعد ذلك الا عندما هبط علينا فى دكان عبده بكر • ولقد ارتعت بشدةعندما رأيته ، كان يبدو عليلا ومنهكا للغاية ، وكان منظره يدعو الى الأسى ، وعيناه متقرحتان ، وفى وجهه بثور ، وحذاؤه مخبوط ومضروب فى أكثر من موضع •• وبنطلونه ممزق وجاكتته باهتة اللون وقميصه ممزق كأنه خارج لتوه من خناقة حامية ، وعندما استفسرت منه عن حاله لم يتكلم •• آثر الصمت البليغ وسرح فى ملكوت الله •• وبدا لى وأنا أتفرس فيه كأنه مجذوب يعيش حول ضريح سيدنا الحسين ••

وفى آخر الليل طلب منا أن نسمح له بالنوم فى دكان عبده حتى الصباح •• ورفض عبده فى أول الأمر ، ظنا منه أن خلف لابد وأن يكون لصا عريقا اعتاد الاجرام • وهارب من البوليس ويبحث عن مكان يلجأ اليه •• وفى النهاية وافق بشرط أن يغادر الدكان فى الصباح الباكر قبل أن يكتشف وجوده أحد •• ومع ذلك فقد نام خلف فى دكان عبده أسبوعا كاملا ، وكان أكثر المتحمسين له عبده نفسه ، وكان شديد الكرم معه ، يشترى له الطعام ويعد له الشاى ويمده بين الحين والآخر بالسجائر •• ولكن عبده الذكى كان يرمى الى شىء آخر ، فقد كان عبده هاويا للمسرح وكانت له فرقة مسرحية خاصة به ، وأراد أن يستغل خلف فى تأليف الروايات ••• ولكن خلف المسحوق تماما لم يستطع أن يكذب طويلا على عبده ، ولم يلبث أن غادر الدكان ذات صباح ولم يعد ، ولقد عرفت من الرجل الطيب بعد ذلك أن خلف فقد عقله ، وأنه نزيل مستشفى المجاذيب ، ثم عرفت بعدذلك

أنه مات فى الطريق ، صدمته عربة فى مصر الجـــديدة ولفظ أنفاسه على الفـور ٠٠ ولقد قدر لى أنا أيضـــا أن أغادر دكان عبده المكوجى الى غير رجعة ٠ وبعد رحلة قصيرة الى دار الهلال ومقابلة لم تستمر طويلا مع رئيس التحرير ، وحديث قصـير بالتليفون من اسماعيل الحبروك ، أصبحت محررا فى دارالهلال ٠٠ ولقد بدت دار الهلال أمام عينى شامخة وجليلة ، والـدار نفسها كانت نظيفة والرخام يلمع بشدة والسكون يشمل كل شىء على غير عادةدور الصحف وكانىفىمستشفىمن مستشفيات العاصمة الانيقة ولقد تحدث معى رئيس التحرير حديثا خاطفا ولكنه بلور ولخص فيه كل فلسفة دار الهلال وكل أهدافها ٠ نحنهنا نهتمبتسليةالناس ، وعليناأننقدمللقارىءكلماينشده انه يبحث دائما عن كل شىء طريف ! ولم أفهم وقتئذ ما هى الطرافة ، وحسبت أنه يقصد الظرف وأن الشىء الطريف هـو الشىء الظريف ٠٠ وعنـــدما استفسرت عما يقصـــده رئيس التحرير ، أجابنى أحد المحررين بحماس ، يعنى لازم تجيب شىء جديد ، القارىء يحب الجــديد ، وضرب لى أمثلة حية من انتاجه هو شخصيا ، وسحب عددا من مجلة الاثنين ٠٠ وراح يتصفحها ببطء ثم توقف عند صفحة معينة وقال ٠٠ بص ، دا موضوع طريف ، أنا عامله ! وكان الموضوع فى دولاب ممثلـة شهيرة ، وعدة صور عن ملابس الشتاء القادم ثم الممثلة نفسها وهى تعرى فخذيها ، ثم الممثلة أيضا وقد برز صدرها للهواء النقى ! ورأيت توقيع المحرر « بقلم جلال مرزوق » واندهشت لانه لم يكن فى الصفحة أى شىء بقلم هذا الاستاذ والموضـوع المنشور كله بعدسة المصور ، ولكن المجد كله للاستاذ مرزوق ٠٠ وتنهد الاســتاذ بعد أن انتهى من شرحه العمـــلى ، ورفع سماعة التليفـــون فى رشاقة وطلب الســت الممثلة ، وراح يدردش معها دردشة طويلة عن الموضوع ، وما بذله فى سبيل نشره وانتهى الكلام بموعد مع الممثلة فى المســاء وعندما نهض واقفا نظر نحوى فى زهو ممتزج ببلاهة ، وقال قبل أن يغادر الحجرة ، اذا كنت عاوز أى حاجة أنا تحت أمرك ٠٠ ثم قـذف أمامى بكارت ٠٠ وعلى الكارت كان اسمه بارزا بحروف صفراء فى لون الذهب ، الاستاذ مرزوق ، صحافى ! ووضعت الكارت فى جيبى وتمنيت أن يكون لى مثله فى قادم الأيام !

***

كان فوج المحررين الجدد الذين اقتحموا دار الهلال أخيرا يتكدس أفراده جميعا فى حجرة واحدة . وكان منظر الحجرة الخشن البائس يوحى للزائرين أن هذه الحجرة قد انفصلت نهائيا عن دار الهلال ، كما ان كل الاصوات النشاز التى كانت تتصاعد فى جو الدار الهادئة هدوء المقابر كان مصدرها هذه الحجرة التى اصبحت مقرا لهذا الفوج البائس من المحررين الجدد . وكانت النظرة الاولى الى هؤلاء المحررين تؤكد أنهم حديثو الصلة بالدار . فقد كان المحررون القدامى جميعا يرتدون قمصان حرير وبدل أنيقة وأربطة عنق غاية فى الحلاوة والجمال . وكان أحدهم واسمه نصرت عبد العليم يرتدى نظارات ملونة ويضع السيجارة دائما بين شفتيه ويتكلم من طراطيف أنفه ويفلسف كل شىء وكأنه الفيلسوف جان جاك روسو نهض من قبره فجأة ليهدى البشريه الى طريق السلام . وكان الاستاذ نصرت قد كتب عدة قصص قصيرة فى مجلة الاثنين الواسعة الانتشار فأصبح نجما من نجوم المجتمع المصرى ولكن لعدة شهور . ثم مالبث أن اختفى اسمه من المجلة ثم اختفى هو نفســـه من المجتمع ، وقنع بركن فى كازينو أوبرا كل مساء يدخن فيه الشيشة ويجتمع ببعض الاصدقاء الذين كانوا يؤمنون بعبقرية الاستاذ . ورغم انطفاء اسمه وذبول أحلامه فى الشهرة والانتشار الا ان وظيفته فى دار الهلال كانت تتيح له سيطرة كاملة على المحررين ، فقـــد كان يقوم بدور المراجع ، وكان يستطيع ان يمنحك مائة جنيه كل شهر ، أو يمنحك نصف جنيه فقط لا غير لو أراد .. ولذلك كان يقضى الساعات الطويلة فى الحجرة البائسة مع قطيع المحررين الجدد يحكى لهم أمجاده العريضة فى الصحافة ، ويصحح لهم معلوماتهم الخاطئة عن الحياة . وكان يصحبه خلال هذه الساعات صمت عميق من جانب المحررين .. ويضمن أيضا نفاقا لا حد له

من جانب البعض الطامع فى مزيد من عطف الاستاذ ومزيد من فلوس الدار ٠٠ ولكنى اكتشفت من أول لقاء أن الاستاذ فاضى تماما من كل ثقافة ٠ وخاوى تماما من كل موهبة ٠٠ وأنه قبل مجيئه الى هنا كان باشتمورجى هرب من عيادة طبيب والتحق بدار الهلال كموظف فى الادارة ٠ ولكنه استطاع بفضل نبوغه فى النفاق ان ينقل من الارشيف الى التحرير ، واستطاع أن ينشر عددا من القصص ٠٠ ثم ارتكب غلطته الكبرى عندما نسى أنه يحتل هذا المكان ليس بفضل عبقريته الفذة ولكن بفضل سلوكه كتابع أمين لأصحاب النفوذ فى الدار ٠٠ فلما شمخ بأنفه عليهم ، عزلوه ببساطة وجردوه من كل شىء ٠٠ وأغلقوا عليه باب حجرة ضيقة ليراجع فيها أعمال المحررين ، غير أنه كان شديد الثورة ضد النظم القائمة فى الدار ، هذه النظم نفسها التى رفعته من كاتب فى الارشيف الى كاتب قصة ٠ وكان يزعم أن حقد أصحاب الدار عليه ليس الا لكبـــريائه الوطنى وثقافته العريضة !

وكان يحلم دائما باصدار مجلة .تقضى على مجلة الاثنين ثم تقضى على دار الهلال نفسها ٠ وكان يؤكد دائما أن لديه مائة قصة جاهزة لنشرها فى المجلة المزعومة !

ومضى شهر كامل وأنا أعمل فى دار الهلال دون أن أعرف المبلغ الذى سأتقاضاه آخر الشهر ٠ كان على أن أقدم ما أستطيع من الموضوعات وكانت هذه الموضوعات تخضع لتقييم وتقــدير مدير التحرير ٠ وكانت العلاقة بينى وبين مدير التحرير لا تسمح بالخوض فى هذا الموضوع فقد كان رجلا قصيرا ومشوها وحاد المزاج ، وكان يسهر فى نقابة الصحفيين يلعب القمار حتى الصباح ولكنه والحق أقول كان على دراية بهذا النوع من العمل فى دار الهلال فقد كان يعرف الخط العام للمجلة والسياسة التى ينبغى أن تسير عليها ٠ وكانت كل اهتماماته محصورة فى الطريف والظريف من الامور ، وكان كل أصدقائه من المقامرين ، وكل صديقاته من بين بنات الكومبارس المترددات على أستديوهات السينما ٠ وكان أحيانا ينشر لبعضهن صورا بالمايوه عند اقتراب فصل الصيف باعتبارهن من بنات الاسر التى اعتادت الاصطياف وكانت له بطانة من المحررين يسهرون معه أحيانا ويتكلمــون

باسمه أحيانا ٠٠ وكان هؤلاء المحررون ينفقون عن سعة ، ويدخنون نفس الصنف الذى يدخنه مدير التحرير ويرتدون نفس الالوان التى يرتديها ٠٠ بل كانوا أحيانا يقصون علينا نفس الحكايات التى يقصها عليهم ، وعلى أنها حدثت لهم شخصيا وليس لمدير التحرير !

وجا آخر الشهر ، ووقفت أمام عم حبيب صراف الدار كبائع غلبان معكوم تحرى ، وسألنى عن اسمى عدة مرات ، ثم ألقى نظرة على كشف أمامه ، ثم أدخل يده فى درج ٠٠ ثم أخرج رزمة أوراق مالية وراح يعد فيها ، وأدركت أن الرجل أخطأ ، فهو يعد أوراقا مالية من فئة العشرة جنيهات ، وأنا شخصيا لم أكن أطمع فى أكثر من ستة جنيهات أو ثمانية ٠ هذا اذا كنت سعيد الحظ ! ولكن عم حبيب واصل العد ثم راح يفرد الاوراق أمامى ٠ أوراق بلغت خمسين جنيها ثم ورقة من فئة الخمسة جنيهات ، ثم ورقتين من فئة الجنيه ثم أوراقا صغيرة من فئة العشرة قروش ٠ وكاد يغمى على ٠٠ فانا لم أحلم أبدا منذ ان احترفت الصحافة بأن أمتلك مبلغا بهذا القدر ٠ وأنا كنت أعتقد حتى هذه اللحظة أن الوزير يتقاضى خمسين جنيها فى الشهر وأن الملك يتقاضى أكثر من مائة جنيه ٠٠ وهأنذا فى لحظة أقفز الى درجة الوزير ٠ وها هو عم حبيب يمنحنى خمسين جنيها وأكثر مرة واحدة ٠٠ وأمسكت بالنقود فى خوف ٠٠ وترددت فى التوقيع فقد كنت متأكدا أن النقود ليست لى ٠٠ لعلها لرجل آخر اختلط اسمى باسمه فى ذهن عم حبيب ٠ وقررت أن أصارح عم حبيب بالامر لكى أثبت له أننى رجل شهم وأمين ٠٠ ولا أقبل المال الحرام مهما كان قدره ومهما كان مصدره ! ولكن عم حبيب شخط شخطة عنترية أفزعتنى ، ودعانى الى التوقيع لأفسح المجال لغيرى من المنتظرين ، ووقعت فعلا ، ولهفت المبلغ وخرجت من دار الهلال أجرى ، كأننى قاتل تطارده عشرة كلاب متوحشة ٠٠ وسبعة أيام كاملة وأنا صايع فى الشوارع دون هدف ٠٠ أرتاد البارات والمقاهى وأستعمل التاكسيات ٠٠ وأدخن السجاير الامريكانى التى يدخنها طاقم المحررين الملتف حول رئيس التحرير ٠٠ واشتريت لنفسى حذاء جديدا ٠٠ فقد كان حذائى القديم قد بلى من كثرة الاستعمال ، وكانت المياه المتخلفة من الامطار تتسرب الى قدمى من خلال الثقوب الكثيرة التى طرأت

عليه ·· وكان لونه أجرب لم تعد تنفع فيه الاصباغ ولا الورنيش ولقد ارتديت الحذاء الجديد داخل المحل ، ثم قذفت بالحذاء القديم فى الميدان الكبير وانصرفت هاربا ، وأحسست براحة لاحد لها ، وكأننى امرأة زانية تخلصت من جنينها الذى رزقت به فى الحرام ·

وعدت من جديد الى دار الهلال ·· عدت اليها وقد تغيرت كثيرا ، واكتشفت خلال الاسبوع الذى مضى أننى أصبحت أكثر رقة وأكثر طيبة وأقل غلظة وأقل حدة عن ذى قبل ·· وجلست فى سكون فى ركن الحجرة أكتب وقد اعترانى فجأة احساس بأن ما أكتبه مهم · كنت اكتب موضوعا عن فنان الشعب · الرجل أبو أرغول الذى يحتل كل أسبوع ركنا فى سوق الثلاثاء يغنى مواويل أدهم الشرقاوى ومسعود ووجيده · ولقد وافق عليه رئيس التحرير بصعوبة · ووصفه بأنه شحات ، وقال أن الفنان هو من يعمل فى المسرح أو فى السينما ، أو البنت التى ترقص فى الصالات ·· ونطق الكلمة بانجليزية ARTIST وقال ان الكلمة ينبغى عدم ابتذالها ·· واستبدل العنوان بعنوان آخر ·· مطرب الشعب !

وفجأة هبط علينا محرر من طاقم المحررين اياهم ، وجلس أمامى · وتفرسنى بشدة ، وسألنى وهو يهز رأسه ويغمز لى بعينيه :

• هيه مبسوط ؟

ـ الحمد لله ··

• فهمى بك عملك مبلغ محترم ·

ـ آه فعلا ··

• شكرته والا لأ ؟

ـ لا والله ··

• شوف العبط ·· مش تروح تشكره ··

ـ بكره بقى ان شاء الله ··

• أقولك ·· تعرف اسكابينو ؟

ولم اكن اعرف اسكابينو ، ولم اكن قد سمعت به من قبل ، وخيل الى أنه محل جاتوه مثل جروبى ·· أو كاتزانس ، وربما

هو قهوة مثل بوديجا و الشمس ٠٠ ولما بدا جهلى الشديد ، أضاف الرجل الخبير ٠

٠ سكابينو بتاع الجرافتات ٠٠

وهززت رأسى وقلت كاذبا :

ـ آه ٠٠

٠ طيب فوت عليه بعد الضهر ، عنده تشكيلة جديدة رائعة٠ هات نص دستة لفهمى بك وروح بكره اشكره ٠

ونهض الرجل الخبير على الفور ولم يترك لى أى فرصة للرفض او للرد ٠٠ وجلست أفكر فى هذا العرض المريب ، نص دستة كرافتات لفهمى بك وأنا نفسى ارتدى بدل الكرافتة شيئا يشبه الحبل ٠ولو عثرت على دستة كرافتات فمن المؤكد أننى ساستعمل بعضها وابيع البعض الاخر ٠ كما اننى حتى هذه اللحظة لم اكن قد تلقيت أى هدية فى حياتى ، ولم أكن قدمت أى هدية لاحد على الاطلاق ٠٠ ثم هل هذه هدية ؟ ام رشوة ؟ وهل النقود التى قبضتها هى أجر ما كتبت ٠٠ ام فى أموالنا حق معلوم لمدير التحرير المسـئول ؟ وهل هذا النظام معمول به هنا فقط أم فى كل دور الصحف الاخرى ؟ وهل هـذه هى الصحافة ؟وهذا هو الطريق الوحيد المؤدى اليها ؟ ام ماذا ؟

وقررت فى النهاية امرا ٠٠ لن اذهب الى سكابينو ٠٠ولن اهدى شيئا لفهمى بك ٠٠ ومضت الحياة عادية فى دار الهلال حتى جاء أول الشهر ٠٠ وعندما وقفت امام حبيب صراف الدار اكتشفت أن المبلغ هبط من سبعة وخمسين جنيها الى سبعة عشر جنيها ، وهبط فى الشهر التالى الى ستة جنيهات ، ثم الى لاشىء فى الشهر الرابع ٠ وأصبحت محررا بلا أجر فى دار الهلال ٠٠ واقتراحاتى كلها مرفوضة وموضوعاتى كلها مردودة وحركاتى كلها سخيفة ودمى بايخ وصوتى مزعج بشكل رهيب !

ورحت اقترض من المحررين الرائجين ، ثم رحت اتناول منهم اجرا لقاء ماكتبته لهم ، وذاع صيتى فى الدار ، فأصبحت كاتب عمومى ٠ أكتب موضوعات المحررين لقاء اجر معلوم اتقاضاه آخر الشهر ثم احتكر جهودى محرران احدهما يعمل الان مندوبا للاعلانات واخر ضاع فى الحياة وعاد الى قريته بعد ان داخ دوخة الارملة فى مصر !

كان الرجل الاول شديد الذكاء شديد الطموح ولكن امكانياته لم تكن تسعفه لتحقيق اغراضه ٠٠ وكانت كل حصيلته فى الثقافة قبل ان يصبح محررا فى دار الهلال هى عشر روايات جيب لارسين لوبين ، وروايات السينما المصرية ، وكان واسع الاطلاع عليها ، وعلى صلة وثيقة بجميع مؤلفى الاغانى فى مصر وكان يطلق عليهم وصف الشعراء ٠٠ وكان صديقا لاحدهم وهو مؤلف وتاجر فراخ ، وكان يكتب عنه كل شهر موضوعا فى المجلة ، ويلتقط له صورا وهويؤلف الى جانب أقفاص الفراخ وكان يكتب فى الفرق بين صوت الديك وصوت الشاعر ٠ وكان الشاعر الفرارجى كريما فقد كان يهدى المحرر اياه خمسة أجواز فراخ كل اسبوع ، وكان المحرر كريما هو الاخر ، فكان يستولى على الهدية اسبوعا ، ويرسل بها الى بيت مدير التحرير اسبوعا آخر ٠٠ وعندما اطمأن الى كفاءتى واتقانى فى العمل ، ترك لى مهمة كتابة المواضيع وتسليمها باسمه وتفرغ هو لعمله الآخر فقد أصبح مديرا لدعاية شركة أفلام !

أما الرجل الاخر فكان من الارياف ٠٠ وكان مدرسا الزاميا قبل ان يعمل بالصحافة ٠ واغرب شىء انه استقال من وظيفته ليتفرغ لعمله الآخر كسكرتير لوكيل عام احدالاحزاب السياسية الكبرى ، ومن خلال عمله فى الحزب تسلل الى دور الصحف المختلفة ، ومنها الى دار الهلال ٠٠ ورغم ان الحزب الذى كان يعمل داخله كان حزبا عقائديا ، الا أن اهتمامات الاستاذعلوى كانت كلها نسائية ، وكان وثيق الصلات بكل الجمعيات النسائية فى مصر ، وكان قادرا على الحديث مع السيدات بالساعات دون أن يكل ، وكانت اهتماماته تافهة تدور كلها حول الطبيخ واصناف الطعام والحلوى اللازمة لبناء الجسم ٠ وكان يؤكد فى كل مناسبة أن الارز هو الطعام الكامل ٠٠ وأن الحلويات تساعد على تكاثر الدم ، وان شرب الماء على الطعام يسبب كوارث عظمى وان الرجل الكامل هو الذى يأكل ثم يشرب بعد الانتهاء من الاكل بساعتين ٠ ورغم أن الاستاذ علوى كان أعزب الا أنه كان قد دخل تجربة الزواج مرتين ! مرة فى بداية الحرب العالمية الثانية وكان يسكن فى حارة فى عابدين وعلى رأس الحارة كانت احدى الفتيات تبيع الجاز بدون كوبون وبسعر مرتفع وكان علوى يحصل لها على الكوبونات بنفوذه فى دوائر وزارة التموين ،

وكانت تربح من وراء هذا العمل مبالغ طائلة ، كان علوى يحصل على بعضها مقابل خدماته ، ولقد تطورت الصلة بينهما الى حب ثم الى زواج ، ولكن علوى سرعان ما سئم حياته فهجرها ٠٠ ولكن البنت الغلبانة التى جربت الزواج من رجل يتمتع فى الحياة بنفوذ لم تقبل ان تفرط فيه بسهولة وقاتلت فى سبيله بأسنانها وباظفارها ٠٠ وادى بها الامر الى انتظاره كل صباح امام دار الهلال ، والصراخ داخل الدار ! ورغم الفضيحة فقد أصر علوى على موقفه ، ولم تجد البنت بدا من رفع الامر الى القضاء ٠٠ وفعلا ٠٠ حصلت على حكم ضد علوى بالنفقة او السجن ٠٠ ولما لم يكن مع علوى ما يدفعه ، فقد القوا به ذات صباح فى السجن ثم قبل العودة اليها فافرجوا عنه ، ولبث معها شهرا ثم هجرها مرة أخرى ولكن بدون مشاكل ولا قضاء !

ثم تزوج مرة اخرى من بنت كومبارس جاءت الى دار الهلال لتظهر فى موضوع عن ملابس الخريف ٠ وبعد الموضوع خرجت البنت مع علوى الى مأذون السيدة زينب ٠٠ وعادا فى المساء الى بيت علوى زوجين سعيدين للغاية ٠ ولكن يبدو أن الامور تكشفت لهما بعد ذلك فأنفصلا دون ضجة ٠ فقد ظنت البنت انها حصلت على الشهرة والمجد بزواجها من علوى ، وظن هو انه حصل على الاستقرار المادى بزواجه منها ٠٠ ثم اكتشف بعد شهر انها مفلسة ، واكتشفت هى أنه هايف وتم الطلاق فى هدوء وعاد يسعى من جديد على رزقه فى دار الهـــلال ٠ ولقد كان علوى نموذجا غريبا من البشر لم اصادف مثله فى حياتى ٠٠ بل لعله أغرب نموذج التقيت به فى الحياة ، ورغم أن والده كان من رجال الدين ورغم انه كان من بيت طيب الا انه لم يكن يشعر بخجل تجاه أى شىء ٠٠ وكان يقبل القيام بأى عمل لرؤسائه حتى ولو تحول الى قواد دون اى غضاضة ! ورغم انه كان يصنع اى شىء وكل شىء الا انه لم يكن طماعا او طموحا ٠٠ فلم يكن يهدف الى شىء الا ان يعيش فى هدوء ٠ وكانت كل امنيته فى الحياة أن يعيش فى شقة بمفرده ٠٠ وان يصبح دخله ثلاثين جنيها كل شهر ٠ وكان يتمتع بقوة ثور ولايشكو من مرض على الاطلاق وكان يبدو لاهيا وسعيدا ومبسوطا رغم المشاكل العديدة التى تلاحقه فى كل مكان ٠٠ ولقد تسبب فى انقســام مروع داخل

الحزب وتسبب فى طرد وكيل الحزب وعدد من أعضائه الكبار ، ولكنه لم يشعر بالذنب أبدا . وكان يلقى اللوم على عقلية زعماء الحزب التى لاتريد ولا تقبل أى جديد ولم يكن هذا الجديد سوى شقة استأجرها علوى فى ميدان شهير وكان وكيل الحزب يتردد عليها وكان علوى يتولى اعداد كل شىء من النساء الى الخمور الى الحشيش .

ومع النساء والحشيش كان وكيل الحزب يجمع انصاره داخل الحزب لمناقشة الامور السياسية ، ولاتخاذ موقف موحديهدف فى النهاية الى خلع رئيس الحزب وبعض اعوانه ، وذات مرة تسلل واحد من انصار رئيس الحزب الى الشقة وصادق علوى واغدق عليه بالفلوس والهدايا وانبسط علوى شديد الانبســـاط ، وانشكع غاية الانشكاع وأطلعه على كل أسراره ، بل جعله عمدة ، فى الحشيش .. هو الذى يرص ، وفى الخمر هو الذى يصب ، وفى الليالى الطرية هو الذى يتولى كل شىء وهو الذى يفهم كل شىء .. ودحرج علوى اكثر حتى ترك له مفاتيح الشقة ، وكانه ترك مفاتيح الكرار للقط واهتبل القط الاسود - مع الاعتذار للاذاعة - هذه الفرصة وهبر من مكتب علوى فى البيت كل الاوراق المطلوبة وكل الوثائق التى تدين الوكيل والانصار والاخ علوى ولكن بقيت وثيقة واحدة ، وهى وثيقة هامة وحاسمة وفاصلة عند الحساب . ولكى يحصل رئيس الحزب وانصاره على هذه الوثيقة فلابد من تعاون علوى معهم ، ولكن كيف ؟ وعلوى هو اليد اليمنى للوكيل المتمرد . وكانت مشكلة ولا مشكلة كوريا ، ولكن القط الاسود لم يكن من النوع الذى تقف أمامه عقبة أو يمنعه عن الوصول الى أغراضه أحد ما ، خصوصا اذا كان هذا الاحد رجلا طيبا ومنهارا ومستعدا لاى شىء وكل شىء مثل الاستاذ علوى .

وفعلا تم الامر على خير مايشتهى القط الاسود ، دفع للاستاذ علـــوى ببعض النقود وغمره ببعض الهدايا ويسر له كثيرا من الامور ثم اتفق معه على أن يسجل قعدة من هذه القعدات للسيد الوكيل وبطانته . وليه ؟ للذكرى وللتاريخ . ولكى تنفع عندما تمر أيام الحظ الحلوة ويصبح التسجيل هو الشىء الحى الباقى لايام الحظ الفانية !! وصدق علوى بالطبع !! وانبســـط جدا

لهذا الاقتراح الرائع الذى يحفظ الذكريات والقعدات والسهرات الطرية !!

ولكى يتم الامر على خير وجه ، قام علوى بالتسجيل لكى يكون الامر كله مفاجأة للوكيل الطيب الساذج الذى أسلم روحه ونفسه للاخ علوى !

وذات مساء حافل رهيب ، كان بيت علوى يشغى بالناس ، سياسيون من عينة الوكيل ، وفتيات فى عمر الورود ، وشبان كالغزلان وخمر وحشيش ، وكل مالذ وطاب مما تعصر المعاصر ومما تنبت الارض ، جلست الشلة والتسجيل دائر ، علوى مبسوط لأنه يعد مفاجأة عظيمة وحلوة ، والبيه الوكيل أيضا مبسوط لأنه يسهر سهرة من سهرات العمر ! وتطرق الحديث خلال السهرة الى السياسة ومن السياسة الى المؤامرة ! وخلال الحديث ضحكات وهمسات وقرصات مفيش بأس ..

وانتهت السهرة ، وانتهى الرجل الطيب .. وعلى صوت التسجيل الدائر فى ممر الحزب ، استطاع رئيس الحزب اليقظ المدرب الوصول الى خلع الوكيل والانصار والاخ علوى .. وكانت التهمة الموجهة اليهم جميعا هى خروجهم عن الخلق اللائق ، وارتكابهم ما يخجل وما يشين دون وازع من دين أو ضمير .. وتكرر اسم علوى فى بيان الحزب أكثر من مرة .. ومع ذلك كان شديد الاصرار على أن الامور يوما ستستقيم ، وانه يوما ما سيعود على رأس الحزب من جديد !



٧

ثلاثة شهور وأنا فى دار الهلال أكتب للمحــــررين وأقبض منهــــم ولا احد يدرى فى الدار • وكان فــهمى بك مــديــر التحرير يلتقى بى أحيــانا فتبدو عليــــه الدهشة لانى لازلت مقيما فى الدار مع انى لا اتقاضى شيئا • ولو كان فهمى بك يقوم بعمله على خير وجه ، لاكتشف أن كل أعمال الاســـتاذ علوى الجديدة بخطى وكذلك أعمال الاستاذ الآخر صـــديق المؤلف تاجر الفراخ ! ولكن فهمى باك لم يكن يؤدى عمله على الوجه الأكمل ، وكان يترك عمله فى الدار لبعض المساعدين ، متفرغا فى النهاية لقبول الهدايا من المحررين ولعب القمار فى الليل والسهر فى الشاليه الذى كان يملكه محرر فى شارع الهرم على ربوة عالية تطل على قرية نزله السمان • وفى هذا الشاليه البعيد عن العمران وعن المدينة ، كان فهمى بك يسهر أحيانا وسط شلة من بنات الكومبارس فى المسرح والسينما ، وكان علوى يحضر أحيانا هذه السهرات ، وكان يحكى دائما فى الصباح لكل من يلقاه عن أدق تفاصيل السهرة ، وكان يبدو عليه الغيظ الشديد لأنه لايملك شاليه من هذا الطراز ، وكان

يحلم دائما بأن يصبح له شاليه يوما ما ، وعندئذ يستطيع تحقيق أحلامه فى عالم الصحافة ، ويضمن الاستقرار الذى ينشده منذ زمن بعيد • وذات صباح ذهبت الى دار الهلال على غير العادة وكانت الحجرة خالية ولا أحد هناك • وكنت أشعر بقلق بالغ لاأدرى سببه ورحت أتمشى فى الحجرة جيئة وذهابا كأننى نمر هائج فى قفص فى حديقة الحيوان • وفجأة دخل الحجرة رجل مهيب يرتدى بنطلونا وقميصا من حرير ويرتدى فوق كم القميص كما آخر من قماش رخيص أسود اللون • ثم نظر نحوى وأجال بصره فى أرجاء الحجرة ، ولما لم أكن أعرف ما هو هذا الرجل الغريب ،فقد جلست على المكتب الذى كان بالقرب منى لحظة دخوله الحجرة • ولكن الرجل أبدى دهشة بالغة ارتسمت على قسمات وجهه لجلوسى فوق المكتب ، وكأننى ارتكبت عارا لم يرتكبه أحد من قبل ، واقترب منى فى خطوات بطيئة وأشار نحو المكتب وسألنى فى غرور ولاغرور حكمدار يسأل بائع لبن غشاش •

• ايه ده ؟

ولما كان اصبعه اتجه نحو المكتب فقد اجنبه على الفور :

• دا مكتب ••

وبنفس الطريقة أشار نحو الكرسى وقال :

• وايه ده ؟

ولما كان اصبعه مد اتجه نحو المكتب فقد أجبته على الفور :

الفور ••

ـ دا كرسى

وقال الاستاذ المهيب وكأنه اكتشف سر الحياة فجأة :

ـ والناس بتقعد ع الكرسى والا ع المكتب ؟

وقلت أنا ببلاهة وبعدم مبالاة •

ـ ساعات تقعد ع المكتب ، وساعات تقعد ع الكرسى •

وهز الاستاذ رأسه ، ثم سألنى عن اسمى قبل أن ينصرف وبعد لحظة حضر فراش نشيط وأبلغنى أننى مطلوب حالا لمقابلة الاستاذ الجريدينى ولم أكن أعرف ماهو الجريدينى هذا كما لم أكن أعرف أى شىء عن مهنته بالضبط • وعندما ذهبت لأكلم الجريدينى ، اكتشفت أنه يجلس فى حجرة من زجاج كأنه سلعة معروضة للبيع فى محلات عمر فندى ، كانت الحجرة

الزجاجية مستديرة وتتوسط قاعة كبيرة لكى يتمكن الاستاذ الجريدينى هذا من القاء نظرة شاملة على كل ماحوله ، ولم يكن حوله شيء يستحق النظر ، فقـــد كان كل من حوله عددا من الموظفين الغلابا العجائز ، هم كل موظفى الارشيف والادارة فى الدار واقتحمت الباب وقد نويت شرا ، فأنا الآن شديد الزهق شديد الغلب ، ودار الهلال أصبحت جهنم الحمراء بالنسبة لى ، فلا أنا محرر فيها ، ولا أنا أستطيع الاستغناء عنهـــا ، ولا أنا أبحث لنفسى عن عمل آخر • ووقفت أمام الجريدينى وقد اتخذت موقف المتحدى ، وسألنى الاستاذ وقد راح يتمرجح على مقعده الهزاز الدائرى •

• أنت بتشتغل ايه هنا يا استاذ ؟

• محرر •

وقلب بين أصابعه عدة أوراق اكتشفت من القاء نظرة عليها انها الدوسيه الخاص بى ، وقال وأصابعه تعبث فى الاوراق :

• لكن دا أنت بقالك كام شهر مالكش انتاج •

• أصلى زهقان

ورفع الجريدينى رأسه وألقى على العبد لله نظرة فاحصة وقال وهو شديد الدهشة :

• زهقان ؟زهقان من ايه ؟

• ماليش نفس أشتغل •

• حضرتك مؤهلاتك ايه ؟

• مهندس !!

• مهندس •• أتفضل ••

وأشار الجردينى الى المقعد الوحيد فى الحجرة ، وعلى الفور جلست ووضعت ساقا على ساق ، واندهشت جدا لتصرف هذا الابله المعتوه الذى أقعدنى بشدة لمجرد كذبة حمقـــاء بأننى مهندس • مع أننى أعمل فى دار المفروض أنهـا تنتج الثقافة والفن والادب !

وتبسط الجريدينى معى فى الحديث وسألنى فى ود بالغ :

• وحضرتك خريج جامعة فؤاد ؟

• لا أنا خريج جامعات ألمانيا •

• ماشاء الله ••• ويتعرف ألمانى ؟

• طبعا ••

• وتخصصك ايه يا أستاذ ؟•
• مباني ••
• عالي قوي ، طيب دناهاحتاجك قريب، أصل عندنا مشروع عشان دار الهلال ؛ ايه رأيك يااستاذ تبقى تتعاون معانا •
• اذا كان هناك فرصة
• طيب أنا آسف على اللى حصل منى • أنا ماكنتنش اعرف سعادتك •

وضغط الجريديني على الزروطلب للعبد لله واحد قهوة مظبوط. وانتشرت فى الدارحكاية لقائى بالجريديني ، وهرع أكثر المحررين ليتفرجوا على العبد لله وهو جالس مع الجريديني ساقا على ساق وكاعب السيجارة في فمه ولا رئيس تحرير الاهرام •• وسرعان ما انتشرت اشاعة في أنحاء الدار أننى مرشح لوظيفة هامة فى الدار واننى على وشك أن أكون سكرتيرا للتحرير فى احدى المجلات ! وهكذا أدركت من انتهاء المقابلة أن الجريديني هو أهم رجل فى الدار بعد أصحابها بل هو أهم من اصحابها ، وانه شقيق المستشار القانوني للدار ، وانه ثرى أمثل ، وانه مدير عام الدار ، وانه يتدخل فى كل شيء ، فى الادارة والاعلان والتحرير أيضا !

ولو أردت أن أمضى فىهذا الشوط الىالنهاية لكان لى ما أردت، ولكنى كنت زهقانا من دار الهلال الى الحد الذى لم يكن فى استطاعتي أن أمضى داخلها وقتا آخر • وكان شيء جديد آخر قدحدثداخل الدار ، فقدعينحديثا مديرا للتحرير طالبفىالجامعة الامريكية • وكان شابا طيبا وساذجا وعديم الخبرة • من أول لقاء بينى وبينه أدركت أنه تعلم كل شيء عن الصحافة فى أمريكا ، ولكنهلميكن يعرف حرفا واحدا عنالصحافة فىمصر •

ولقد اوصانا جميعا فى أول اجتماع بالاتجاه الى الترجمة • ولميكن يدرىأنكل المحررين لايعرفون حرفاواحدا منالانجليزية وان كل معلوماتهم فى الانجليزى ، انه عسكرى احتلال موجود فى مصر ! كما اننى تضايقت اكثر من تصرفات ولد نصاب اسمه السرساوى ، كان وجهه مثل وجه الخنزير الحديث الولادة وكان من النوع الذى تكتشف محاسنه عند أول نظرة ثم تقضى العمر كله تحصى عيوبه دون جدوى ، وكان يمتاز بمواهبعتاة المجرمين ، فلا ينفعل ولايغتاظ ولايحتج أبدا • وكان خبيرا فى

التغرير بالفتيات وكان يسلبهن نقودهن وحليهن ثم يفر منهن في النهاية • ولكنه كان موهوبا وكان صاحب اسلوب مشرق وذكي ولو أنه استغل موهبته الفذة في موضعها الصحيح ، ولو أنه تمسك بعض الشيء بالقيم والشرف والامانة والصدق لكان اليوم علما من اعلام الحياة الصحفية والادبية في مصر • ولكنه لمع فترة ، ثم اختفى قبل الاوان ، ولقد قضى الناس عليه ، ولكنه قضى على نفسه اولا ، واحترف الكذب في النهاية ولم يسلم رجل شريف واحد في مصر من لسانه ، ولكنه كان صديقا لكل المرتشين والمنحرفين واصحاب السلوك والسمعة المشينة • وعندما التقيت به أول مرة ادعى أنه ينشيء دارا للنشر ، وانه اشترى كتبا من العقاد والحكيم وطه حسين • وانه ينوى اصدار كتاب لى في السلسلة الادبية الكبرى أو هكذا سيطلق عليها !

وفي النهاية طلب مني عشرة قروش فكه لان كل النقود التي معه اوراق من فئة العشرة جنيهات ! وفي دار الهلال أيضا التقيت بمحرر آخر مدعى وجاهل وحقير غاية الحقارة ، وكان اسمه سعد الكاتب ولكنى اكتشفت أنه ليس اسمه • وانه اضطر لكى يطلق على نفسه صفة الكاتب ان يغير شهادة ميلاده ، وكان يكتب قصصا خرافية على شاكلة قصص طرزان وكان مغرورا الى الحد الذى تصور نفسه فيه اعظم كاتب انجبته مصر ، وكان جاهلا الى الحد الذى لم يستطع فيه ان يكتشف عظمة نجيب محفوظ ، مفضلا عليه هلفوت مثله اسمه عزيز حب الرمان !

ولقد ظل عزيز هذا متصورا لفترة طويلة من الزمان أنه انبغ ما أنجبت مصر من الكتاب حتى قرأت خبرا ذات مرة عن انتحاره ، ثم فوجئت به بلحمه ودمه يقتحم على مكتبى في احدى دور الصحف ، وعرفت انه لم ينتحر • ولكنه هدد فقط بالانتحار لضيق ذات اليد ، ثم طلب مني أن أجمع له من المحررين زملائي عشرة جنيهات اعانه ، وهددني بانه سينتحر اذا لم يحصل على هذه النقود !

شيء آخر جعلني افر من دار الهلال ، فقد ارادوا تطعيم الدار بدم جديد من الشباب يتولى المسئولية في مجلة جديدة • واختاروا فعلا أحد الشبان الذين دخلوا الدار مع فوج المحررين البائسين الذى كنت أنا احد افراده ، وكان المحرر الذى وقع الاختيار عليه ليكون أول مدير تحرير للمجلة الجديدة يدعى

منير وكان أكثرنا وسـامة وأكثرنا أناقة وأكثرنا جهلا ٠٠ واغرب شيء أن هذا الدم الجديد لم يكن جديدا على الاطلاق ، ولكنه كان أكثر فسـادا من الدم القديم ٠٠ فلقـد حول المجلة الى بورصة للسمسرة وجعل صفحاتها معروضة للبيع ، وللايجار ٠٠ وقام فترة توليـه مسئولية التحرير التى امتدت زمنا طويلافى منزل أحد المطربين المشهورين بالبلاهة والغباء ٠

وكان يوم اختيـار منير ٠٠ هـو أول أيامى فى دار الهلال ٠ فلقد اكتشفت اننى لكى اشق طريقى فى الدار فلابد أن أكون من طراز منير ٠ ولما كنت عكسه تماما ، فقد كان المستقبل شاقا امامى ، وان على ان اهجر الدار قبل فوات الأوان ، ولقد هجرتها فعلا ٠٠ ولكن الى أين ؟ كان البحث عن مكان آخر هو مشكلة حياتى ! كان فى السوق عدة جرائد ومجلات صغيرة مثل الحوادث والخبر والصباح والغريب والشباب ، ولكنها جميعا كانت مفلسة وكانت لاتدفع نقودا لاحد ٠ وكانت هناك الجرائد اليومية الكبرى ، ودخولها أصعب من دخول الجنة ، ثمة مجلة أخرى كانت فى السوق وكانت تتأرجح بين الانتشار وقلة التوزيع وكانت وفدية يشرف عليها أحد نواب الوفد وهو فى الوقت نفسـه شـقيق أكبر مسـئول فى الحزب ! وكانت المجلة تستكتب عددا من كبار الكتاب مثل طه حسين والدكتور مندور وسلامة موسى وعزيز أحمد فهمى ، وكان يعمل فيهـا مجموعة من الشباب الناضجين وعـدد من الصحفيين القدامى وكانت تصدر مجـلة أسبوعية أدبيـة يتولى رئاسة تحريرها الدكتور ابراهيم ناجى ويعـاونه عـدد من لادباء الشـبان سيحتلون فيما بعد صدارة الحياة الأدبية والفنية بعد ذلـك ٠ ولقد اخترت هذه المجلة بعد تفكير شديد ولعدة أسباب ٠ اولا لانها المجلة الوحيدة التى يمكن العمل فيها والتى يمكن فى الوقت نفسه الحصول منها على بعض الجنيهات كل شهر ٠ وثانيا لان رئيس التحرير كان صديقى ، وكان رجـلا طيبا وخدوما واستطاع أن يحتفظ بنقائه وسط غابة الصحافة الشريرة ٠٠ كان قاسم جودة هو رئيس التحرير ، وكان قاسـم فى بداية حياته صحفيا لامعا وشابا وفديا متحمسا ، ثم انشق على الوفد مع مكرم عبيد واشترك فى وضع الكتاب الاسود ، وهو موقف خاطىء دفع مستقبله ثمنا له ٠ فلقـد كان حزب الوفد حزبا شعبيا وجماهيريا ومناضلا ضد الاستعمار وضد الطغاة من أسرة

محمد على ، وكان أيضا حزبا فاسدا ومنخـــورا من الداخل ، ولكن كان ورغم ذلك من أعظم الاحزاب الموجودة ، وأشـدها صلابة وأكثرها التصاقا بالجماهير وتعبيرا عنها ٠

وكان الكتاب الاسود صورة صادقة لفساد الوفد ولكنه كان لمصلحة منهم اكثر فسادا ، وكان يخدم فى النهاية مصالح الاستعمار والقصر ! ولقد كان مكرم عبيد رجلا صادقا ولكنه كان رجلا منفعلا ، ولقد استطاع القصر وبطانته التأثير عليه فى لحظة انفعال فخرج على الوفد محاولا طعنه بشدة ، ولعله أفاق بعد ذلك بسنوات ليجد نفسه وحيدا وقد خسر اكبرسند له فى حزب الوفد ، واكتشف انه وقع فريسة فى يد الملك واحزاب الاقلية ، ولعله اراد ان يكفر عن خطيئته بالعودة الى حزب الوفد ، ولكن الوفد كان لايرحم من يخرج عليه ، ولا يقبل بين صفوفه مرة اخرى من يطعنه فى ظهره ٠ وكان الوفد هو الشعب كله ، ولكن بلا تنظيم ولا جهاز يحرك قلبه ولقد ظل سنوات طويلة ينبض بالحرارة ولكن دون حركة ، ورغم ضعفه ، وشيخوخته فقد ظل هو الممثل الطبيعى والحقيقى للشعب المصرى الى أن قامت الثورة ، وكل الذين خرجوا عليه ذهبوا الى النسيان وكنسهم التاريخ فى ترابه ولعل قاسم جوده قد أفاق لنفسه هو الاخر ، فعاد الى حزب الوفد ولكن من الباب الخلفى وكانت مجلة النداء هى الباب الخلفى الذى دخل منه قاسم !

وعندما ذهبت اليه فى قهوة الانجلو اطلب عملا استقبلنى بحفاوة وصافحنى وطلب لى زجاجة بيرة وجلس يسألنى عن احوالى ، وحكيت له ماعانيته فى دار الهلال ، وماجرى فيها من مآس ورسم على شفتيه علامة ازدراء كبرى وقال وقداكتسى وجهه بحمرة فاقعة :

• تعرف ٠٠ الدار دى مش بتاعة صحافة ٠٠ دى كان لازم تكون محل خردوات زى محل عمر أفندى ٠

ثم طيب خاطرى ووعدنى بالبحث عن عمل لى فى مجلة النداء فى أقرب فرصة ٠ وطلب منى أن أمر عليه مرة أخرى فى القريب وهكذا أضطررت الى البقاء فى دار الهلال فترة أخرى فى انتظار أن يحقق قاسم جودة وعده ، وفى خلال تلك الايام التى قضيتها فى دار الهلال انتظر ، تمردت على المحررين الذين اكتب لهم وطلبت رفع السعر الى الضعف ، فوافق الاستاذ صديق المؤلف

الفرارجي ، ورفض الاستاذ علوى لضيق ذات اليد ، ولكنه لكى يغرينى على التعامل معه دعانى الى الغداء عنده فى المنزل . وكان يسكن فى حى طولون ، وفى حارة ضيقة تقع على دحديرة خلف المسجد ، وكان البيت قديما تفوح منه روائح عطنة ، وتتزاحم البيوت فى الحارة وتتشابك ويتداخل بعضها فى بعض ، حتى أنى كنت اسمع الجيران يتكلمون فى البيت الرابع ، وعنـــدما أصبحنا داخل الشقة انشغل علوى باعداد طعام الغداء ، وبعدأن انتهينا من الطعام نهض ليعد لنا الشاى ، ثم فتح الباب وراح ينادى بصوت مزعج ، وسرعان مالبى نداءه صوت نسائى فيه بحة ولسعة نفذت الى عظامى . ولم تلبث صاحبة الصوت أن اقتحمت علينا الشقة فى جرأة ، وقد ارتدت قميص نوم رخيص وأرسلت شعرها الاسود الناعم خلف عنقها وعلى كتفيها وكانت جميلة رغم فقرها وجسمها يكاد يبرز من القميص الرخيص الذى ترتديه ،وصدرها بارز بشكل مثير ، حتى خيل الى أنه يبرز بعوامل صناعية ، وعندما صافحتها فى أدب غضضت بصرى خجلا ، ولكن علوى مد يده وعبث فى صدرها أمامى وقال وهو يضحك :

• بذمتك مش سعاد تنفع فى السينما

ولما امنت على كلامه ، سالتنى فى لهفة :

• صحيح والنبى ..

ثم جلست تحكي لعلوى ماحدث لها بالامس وكان علوى قد أرسلها بتوصية خاصة الى مخرج صديقه لتعمل كومبارس فى فيلم من الإفلام . ولقد اشتغلت طول الليل مقابل جنيه ، وستذهب مرة اخرى مساء الغد ، وستعمل معهم لمدة أسبوع وستلهف عشرة جنيهات كاملة . وقالت لعلوى بعد أن انتهت من قصتها وهى تضربه بيدها على رأسه :

ــ اكتب عنى بقى

وأشار علوى نحوى وقال :

ــ ده اللى هيكتب عنك ، صحيح هوه صــغير كده لكن ده رئيسى فى الشغل .

ونظرت البنت نحـوى نظرة فاحصة أربكتنى ، وقالت وهى تتقصع :

ـ رئيسك ٠٠ مش معقول ، انت عاوز تهرب منى ٠٠

وقال علوى وهو يقسم بكل المقدسات ٠

ـ زى مابقولك كده ٠ احكى له على قصـــة حيـــاتك وهو هيكتبها ، وهيطلع صورتك فى المجلة ٠

ونهض علوى وارتدى ملابسه ، ثم استأذن فى الانصراف وخرج دون وداع ، واكتشفت أننى أصبحت وحيدا مع البنت المستوية فى شقة علوى ، وأحسست بأننى ارتعشت كلى ٠٠ وضربت معى لخمة فلم أعرف كيف أتصرف معها ، وفجـــأة ، نهضت ، ومددت يدى أصـــافحها وأســـتأذن ، ولكن البنت المجربة شهقت وتقصعت ، وضربت صدرها بيدها وقالت :

ـ ايه يادلعدى ، قرفت مننا والا ايه ؟ عامـل بيه ؟ دانت اللى يدور عليك يلاقى الست أمك كانت غسالة ٠



٨

كانت البنت مجربة وشجاعة وتتمتع بشخصية قوية أجبرتني في النهاية على الجلوس في ركن الحجرة كاليتيم البائس اعتذر لها بكلمات لامعنى لها . ولم اكن في الحقيقة اقصد اهانتها ولكني كنت انجو بنفسي من مواجهة موقف لم أواجهه من قبل .

وجلست البنت بعد أن هدأت ثورتها تحكي لي قصة حياتها وجلست انا أمامها اتصنع الاهتمام الزائد كمن سيكتب هذه القصة يوما ما واكتشفت وهي تحكي أنهـا لا تحكي شيئا من الواقع ، ولكنها تفبرك قصة صحفية سينمائية تصلح للشاشة وفي نفس المستوى الذي شاهدته البنت في أفلام تلك الايام . وقالت أنها أحبت شابا طيـارا يسكن في حارتهـا ! مع انني أستطيع ان أقسم بأغلظ الايمان أن أحدا من سكان حارتهم لم ير الطيارة في حياته وان ركوبها بالنسبة لأي واحد منهم حلم لا يتحقق الا بلقاء الجن أو العثور عـلى خاتم سليمان ! المهم ان البنت وقعت في غرام الولد الطيار والولد الطيار وقع في غرام البنت وأنهما كانا يقضيان أغلب الوقت في حديقة الاورمان ، واحيانا في حديقة الاندلس ، ثم وعدها بالزواج ثم سلبها أعز ما تملك ، ثم يافرحة ما تمت خطفها الغراب وطار ، وطار الواد الطيار ولم يعد ، سقطت به الطائرة واحترقت ، واحترق أملها الكبير مع الحطام !

ومن لحظتها أقسمت ألا تتزوج · وألا تحب ، فقد مات الذى كانت تحبه ، وهى لذلك تقتحم ميدان العمل ، ولذلك أيضا اختارت السينما لكى تتمكن يوما من انتاج قصة حياتها على الشاشة ! واقترحت فى نهاية القصة أن أكتبها تحت عنوان « حب من غير أمل » !٠٠

وقلت لها أنها قصة عظيمة ، وأنها ستحقق نجاحا لاحد له ، وأرباحا طائلة ليس لها نظير ! وقضيت لحظات سعيدة طيبة مع البنت ثم جلست أنتظر علوى وحيدا فى الشقة ، ولما يئست من حضوره انصرفت تاركا له ورقة بأننى سألقاه فى صباح الغد ، ولقد استولت على الدهشة عندما التقيت بعلوى فى اليوم التالى ولكنه لم يفاتحنى فى شىء مما حدث بالامس ! ولكنه قدم لى موضوعا لاعيد صياغته من جديد ثم استأذن فى الانصراف لأنه على موعد هام فى حزب النهضة ٠٠ وكان حزب النهضة حزبا نسائيا تديره امرأة قبيحة شمطاء ٠٠ وكانت تتخذ من شقة فى شارع دوبريه مقرا للحزب ، وكانت هذه الشقة ملتقى بنات الذوات ورجال السلك السياسى والمشتغلين بالصحافة والأدب والفن وكنت قد ترددت على هذا الحزب عدة مرات مع الرجل الطيب ، وتعرفت هناك على بنت اسمها تهانى كان أبوها تاجرا كبيرا فى وكالة البلح ٠٠ وكانت يتيمة وحزينة وشاردة على الدوام ٠٠ ولقد دعوتها ذات مرة على الغداء وجلست معها على شاطىء النهر ، وخيل الى أنها متيمة وأنها واقعة فى حب العبد لله · فضممتها الى صدرى وطبعت على فمها قبلة · ولكن البنت التى ظننتها متيمة وواقعة فى حبى ، بكت فجأة وعبثا حاولت أن أسكتها دون جدوى وعندما قمت معها لتوصيلها الى المنزل غادرت التاكسى دون أن تنظر فى وجهى · ولم أرها بعد ذلك أبدا ، ولم تعد تتردد على حزب نهضة مصر بعد ذلك ٠٠ وفى هذا الحزب تعرفت على بنت قبيحة عجفاء مشوهة كانت طالبة فى أحدى الكليات · وقد ظلت طالبة لمدة عشرة أعوام وقد وقع فى حبها اثنان من أصدقائى وكان أحدهما خياليا الى حد بعيد ، وكان الآخر عكسه تماما · ولذلك فاز الرجل الآخر بالبنت المشوهة ، وأثرت هذه الحادثة على قلب الرجل الحالم ، ولعلها لاتزال تؤثر فيه حتى الآن · ولقد عرفت البنت العجفاء أكثر شبان مصر وأكثر رجالها · وألقت بنفسها فى أحضان أجيال

متعاقبة • ولذلك ستجد فى دفتر قلبها توقيعات بعض الشيوخ وبعض الرجال وبعض الشبان وبعض الصبيان أيضا • ولقد كنت أعجب كيف استطاعت بنت شكلها مثل شكلى وجسمها فى حجم جسم ولد صايع يتسكع فى ميدان الجيزة ، كيف استطاعت مثل هذه البنت أن تحصل على كل هؤلاء المعجبين !؟

ولقد ناضلت طويلا داخل هذا الحزب حتى وقعت ذات مرة فى امرأة مناضلة من مناضلات الحزب ، كانت فى الاربعين من عمرها ولكنها كانت تبدو أصغر سنا ، وكانت جميلة حقا وخفيفة الدم الى درجة تجعل من يراها مرة لايستطيع أن ينساها أبدا •

وكانت متزوجة أكثر من مرة ولكن عندما عرفتها كانت وحيدة ، وكانت قد هجرت زوجها الاخير منذ شهر واحد • وحكمة الله أن جميع أزواجها كانوا من العجائز الاثرياء ولقد خرجت من كل صفقة زواج بربح مادى كبير ، فأصبحت هى الاخرى من كبار الاثرياء • وكان لها نفوذ كبير فى دوائر الحزب ، فقد كانت تمده بالمساعدات المادية •• وكانت تقيم الولائم لعضواته ، وهى ولائم كانت تجمع بين الكرم والترف • وكانت هذه الحفلات السياسية الهامة فرصة للتعارف بين الجنسين ! وذات حفلة كنت أتوسط حلقة وكانت السيدة صاحبة البيت تجلس فى ركن قريب ، عندما أصدرت فتوى خلاصتها أن المرأة تفقد سحرها بعد سن الخامسة والعشرين ، وكان رأيا فجا من شاب صغير عديم التجربة والخبرة ، ولكن المرأة الثرية المجربة أخذت المسألة مأخذ الجد فأقتربت منى وزجرتنى بنظرة حادة ثم تجاهلتنى بقية السهرة وقررت أنا أن أختفى من دار الحزب ، ومن حفلات السيدة الثرية • ولكنها التقت بى مصادفة بعد شهر ، وسألتنى عن سر غيابى وأعطتنى رقم تليفونها وعندما اتصلت بها دعتنى الى منزلها ، وسألتها فى سذاجة •

ـ هوه فيه حفلة النهاردة ؟

وأجابت هى بالايجاب ووعدتها بتلبية الدعوة • وحلقت شعرى الذى كان يغطى قفاى كالخنافس • ولمعت الحذاء مرتين وحرصت على أن أقترض ربطة عنق ملائمة • وتوجهت الى

الحفلة وفي نيتى أن اقع على صيد ثمين يعوضنى جفاف الايام التى مضت منى !

ولم أكتشف أنه لاحفلة هناك ولايحزنون حتى بعدأن دخلت المنزل ، وجلست وحيدا فى حجرة الصالون أنتظر قدوم الست المضيفة وعندما حضرت غندورة كالعهد بها ، رائعة الجمال كأنها تمثال فى متحف ·· سألتها عن سر تأخر الضيوف فقالت فى بساطة :

ـ مفيش ضيوف غيرك الليلة ··

وشعرت عندئذ أننى على أبواب مغامرة لذيذة ، وأننى مقبل على القيام بدور لم يسبق لى القيام به من قبل !

وجلست أمامى تصب خمرا فى كاس وهى فى ثوب شفاف يكشف عن مفاتنها وراحت تتحدث حديثا فياضا فى السياسة والادب والعلم وسرعان ماطردت الخاطر السىء الذى راودنى وشرعت فى الحديث بطلاقة ورحت أرغى كأننى بالع راديو فى أشياء شتى · ولكنها فجأة ضحكت وجذبتنى من شعرى نحوها وانحنت فقبلتنى وقالت وهى تضحك ·

ـ دمك خفيف يامضروب ··

وانتهزت الفرصة كأى ساذج وجذبتها نحوى أنا الاخر ، ورحنا نتبادل القبلات والعناق ! ولما كنت وقتئذ فى العشرين وهى فى الاربعين فقد كنت أصدق منها فى التعبير عما يجيش بصدرى ، وكانت هى أقدر منى على قيادة نفسها بحكمة وحنكة ومعلمة ليس لها نظير · وعندما هممت بها ردتنى فى لطف ·· ثم ردتنى فى عنف · وانكسفت كما بنت بكر فاجأها شاب عابث فى الطريق ·· واعتذرت لها عن سوء سلوكى وقلة أدبى وفساد ظنى · وقبلت الاعتذار على الفور ثم فتحت حديثا آخر جادا غاية الجد ، ودخلت أنا الآخر فى موجة الجد التى شملتها ولكنها بعد قليل ضحكت ضحكة أشعلتنى ثم مدت يدها وقرصتنى ومددت يدى أنا الاخر وبادلتها القرص ، ثم احتضنتها بشدة وقبلتها كالمجنون ، ثم هممت بها ، ولكنها مرة أخرى ردتنى فى لطف ثم ردتنى فى عنف ، ثم أنبتنى بشدة على مسلكى المتوحش ·· واعتذرت لها مرة أخرى وجلست

مكسوفا كتلميذ راســب عدة أعوام فى مادة واحدة ! وقبلت السيدة الكريمة اعتذارى ثم راحت تصب لى كأسا آخر ، ومع الكأس راحت تتحدث فى السياسة ٠

وتكرر المشهد بعد ذلك أكثر من مرة ، تبدأ هى بالمناغشة ثم أبادلها ثم أندفع أكثر ثم أقفز محـاولا الوصــول الى آخر الشوط ٠٠ ثم تنهرنى بشدة وتنهانى بعنف ثم أجلس مكسوفا وأعتذر ٠٠ وحتى الفجر كنت قد اعتذرت عشرين مرة ، وأدركت أننى لعبة الست الكريمة تلك الليلة ، وأنهـا ترد على رأيى بأسلوب عملى لكى أتعلم الادب فى الحديث فى المستقبل ٠ كان الفجر على الابواب عندما غادرت الفيلا سكرانا حزينا شديد الهـم ، مكسوفا اكاد أطلب من الارض أن تنشـق لتبتلعنى وتخفينى بعيدا عن الانظار ! ولقد ظللت أعواما طويلة بعد ذلك أغض من بصرى كلما واجهتها فى أى مكان ، ثم تحاشيت لقاءها بعد ذلك ، ولم ينقذنى منها الا اختفاؤها هى نفسها من الحياة العامة ٠ ولكن الدرس الذى علمتنى أياه كان رهيبا وقاسيا على نفسى ، ولقد أثر فى نفسى الى حد أننى جبنت عدة سـنوات عن أن أخطو الخطوة الاولى مع أى امرأة ٠ وفقدت الثقة بنفسى الى حد اننى كنت أخشى مغازلة أى امرأة ولو كانت خدامة خشية أن ترفضنى بشدة ، ولم تمسح المرأة الخبيثة نفسى بالنسبة لها فقط بل أننى كنت أخشى النظر فى عينى أى سيدة فى حزب النهضة فقد كنت أعتقد أنها قصت قصـتى لكل من تعرفهم ! وعدت الى دار الهلال مهموما قلقا أريد أن أهرب من الدار ومن القاهرة كلها ، وخطر لى أن أغادر مصر كلها على ظهر مركب وفعلا رحت أسأل كل من ألقاه عن أسلوب العمل فى المراكب ! وهل أصلح أنا للعمل فى المراكب وخصـوصا وأننى معتل الصحة ؟ وهل يوجد على ظهر المراكب عمل خفيف لائق ؟ ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما استطعت أن أمسح من ذاكرتى أحداث تلك الليلة الغريبة ٠ ولكن علوى لم يقطع صلته بحزب النهضة كما أنه كان على علاقات وثيقة ومتينة بكافة الاحزاب النسائية فى مصر وكانت هذه الاحزاب هى المنجم الخصـب الذى يحصل منه علوى على المواد الخام لسهرات الشاليه الذى يقع فوق الربوة عند الهرم ٠٠ وكانت سـيدات السـياسة المصرية يشعرن حقا بالسعادة لانهن سيقضين السهرة مع بعض

رؤساء التحرير والمحررين المسئولين فى صحف دار الهلال !
ولقد طلبت من علوى أن يصـــحبنى معه مرة فى أحدى هذه السـهرات ، ولكنه فتح فمه ونظر نحوى بدهشـة وكأننى مجنون ٠٠ وقال وهو يمسـكنى من كتفى ويهزنى بشدة ٠٠

ـ أنت عاوز تخرب بيتى ، دا فهمى بك لو شافك هيرفدنى ، دى قعدات خاصة ومقفولة ٠ دا فهمى بك لو عرف انى بقولك يرفدنى ٠٠ يا خبر أسود ، دا أنت باين عليك مجنون ٠

ولم يدرك علوى اننى لم اكن أعرف حقيقة مايدور فى الشاليه منه وحده ٠٠ لقد كنت أعرف الحقيقة كاملة من أكثر من مصدر ، كان علوى حقا هو أهم مصدر ، ولكن كانت هناك مصادر أخرى غيره ! وكانت أخبار هذه السهرات منتشرة فى المدينة فى الوقت الذى كان فهمى بك يظن فيه أنها جلسات مقفولة وخاصة ٠

وفى هذه السهرات كان فهمى بك يلعب القمار مع شلة المحررين أصدقائه ٠٠ وكان هؤلاء يتعمدون الخسارة ليكسب وكانت هذه الخســارة بمثابة رشــوة لفهمى بك لكى يرضى ولذلك وصلت مرتبات بعض هؤلاء المحررين الى مائتى جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ يفوق ستمائة جنيه من عملة هذه الايام ولقد بلغت بى السذاجة حدا جعلنى أحاول الثورة ضـد نظام العمل فى دار الهلال وفعلا فاتحت عددا من المحررين المضطهدين بضرورة رفع أصواتنا بالشكوى من نظام العمل فى الدار ٠ وطالبت بأن يكون هدفنا الغاء نظام القطعة ووضع مرتبات ثابتة حتى لا يكون هناك مجال لاى تلاعب ، وللقضاء على نفوذ رؤساء التحرير ومديرى التحـرير ولقطع الطـريق على الرشــوة والمحسوبية واتخذت من مقهى فى الجيزة مكانا للقاء واعداد الثورة المنتظرة وهجم على المقهى عدد من المحررين لم أكن انتظر منهم استجابة لهذا العمل الذى ننوى القيام به بالمرة وظننت اننى قطعت شوطا بعيدا فى سبيل تحقيق الاحلام ، وفى هذه الجلسات التى كنت أعقدها كل مساء فى القهوة قلت كل ما اعرفه مما يدور فى الشاليه ، والكرافتات التى طلبها منى صديق رئيس التحرير والموضوعات التى أكتبها باسم ميخائيل وعلوى ٠٠ وبدلا من أن تكون هذه الاسرار والاخبار وقودا للثورة المنتظرة اكتشفت أن أسرارى كلها واخبارى كلها تصل الى فهمى بك أولا بأول ٠٠وأنه يعلم خطواتنا كل ليلة بدقة اكثر من الدقة

التى يعلمها بعض المشتركين فى الثورة ٠٠ أغرب شيء ان السذاجة بلغت بنا حدا لم نكتشف معه أن بعض هؤلاء الذين أخذوا يترددون على المقهى ويحضرون جلساتنا ويشتركون فى المناقشـــات معنا ، كانوا من بطانة فهمى بك ٠٠ وكانوا من سماسرته ٠٠ وانهم من جلسائه كل ليله فى الشاليه ، ومن المشتركين معه فى الحوار السياسى الذى يدور كل ليلة مع سيدات السياسة المصرية ! ولكن هكذا شاءت الاقدار لنا ٠٠ أو ان شئتم الدقة هكذا شاءت غفلتنا وسذاجتنا وعدم خبرتنا بالحياة وبالناس ! وذات صباح ، فوجئت بالبواب يمنعنى من دخول الدار ٠ واكتشفت ان على الباب ورقة معلقة من الادارة تعلن فيها أنه ممنوع دخول غير المحررين المدونين فى الكشوف الرسمية ٠ ودخلت فى حوار مع البواب ثم فى عراك ٠٠ وأصررت على الدخول لاجمع أشيائى التى فى الدار ، رغم أنه لم يكن لى شيء فى الداخل على الاطلاق ٠٠ ولقد سمحوا لى بالدخول مع أحد الموظفين لاجمع حاجياتى المزعومة ٠ ولما لم يكن لى أى شيء هناك ، فقد اتهمت الدار بالسرقة ، واشعت جوا من الصخب والضجيج فى أنحاء الدار ٠٠ وانتهى صخبى بالخروج مطرودا فى صحبة الموظف حتى الباب ٠٠

وتذكرت بعد أيام وانا جالس على المقهى فى الجيزة وعد قاسم جودة ٠٠ فقمت اسعى الى مجلة النداء ٠٠ واستقبلنى قاسم بحفاوة ٠٠ وقال وهو يهز ذراعى فى حماس :

ـ انت فين ياراجل ، دنا بادور عليك ، خلاص ياعم مبروك المدير وافق أنك تشتغل بمرتب عشرة جنيه فى الشهر ٠

وكان هذا هو أعظم خبر سمعته فى حياتى ٠٠ هأنذا بعد تعب شديد أصبح لى مرتب ثابت ووظيفة معينة ٠٠ وهأنذا الآن استطيع أن أكتب فى هدوء وأن أنشر على مهل ، وأن أرتب حياتى فى حدود المبلغ الذى سأتقاضاه ٠٠ وقررت أن أبذل أقصى جهدى لكى ارد لقاسم جوده جميله الذى يطوق عنقى وان اثبت للجميع أن موقف قاسم منى لم يكن مجاملة وانما لاننى استحق هذا واكثر

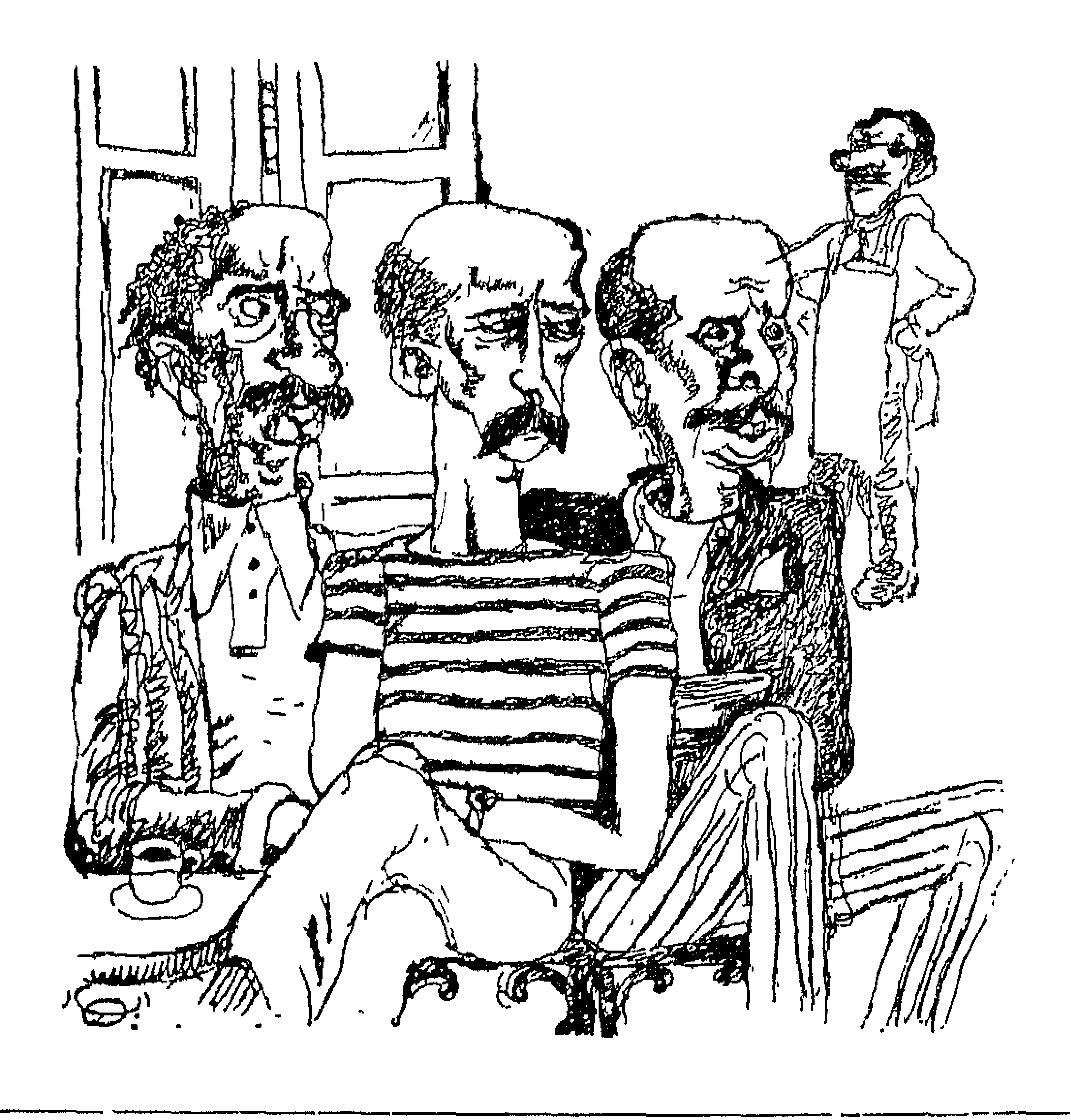
منه بكثير !وجاءنى رجل عجوز من محررى المجلة القدامى ونصحنى
بأن اتجه الى الحصول على الاخبار لانها الصحافة الحقيقية ، وقال
دعك من كتابة الموضوعات انها لا تضمن العيش حتى لاكبر
الادباء ٠٠ وضرب أمثلة عديدة بابراهيم عبد القادر المازنى
والشيخ عبد العزيز البشرى والدكتور زكى مبارك ٠ وقال
الرجل العجوز وهو ينصحنى ٠٠ الكاتب كالفراش كلاهما يمكن
الاستغناء عنه فى أى لحظة ٠ ثم نهض واتجه الى مكتب آخر أمامى
وجلس وبسمل وحمد الله ، ثم اخرج أوراقا بيضاء من مظروف



كان يحمله تحت ابطه ٠٠ ثم انهمك في الكتابة ولكن بصعوبة بدت من خلال توقفه الطويل احيانا ٠٠ وكان يلعق شفتيه خلال هذه الفترات ويضغط عـــلى جبهته بيده ، ويخبط على المكتب خبطا شـــديدا ٠٠ وبعد ساعات نهضت من مكاني واقتربت منه ، والقيت نظرة على الورق الذى أمامه ٠٠ كانت صفحة واحدة مكتوبة وتحت عنوان كبير ٠٠ « حديث مع الشنقيطى » وكلاما فارغا كثيرا ليس له معنى ٠٠ واسلوب مثل اسلوب تلاميذ المدارس ٠٠ وعندما اكتشف وجودى فوق رأسه ، نظر نحوى ثم نظر نحو الورقة التى أمامه وقال وهو يهز رأسه :

ـ أهى دى الكتابة ، دى الصحافة اللى تأكل عيش ٠٠

وهززت رأسي موافقا وانصرفت ٠



٩

كانت مجلة النداء أشبه بسوق الثلاثاء ، كل شيء فيها معروض للقراء ‥ كل شيء وكل لون وكل صنف ، وكانت مرآة صادقة لحزب الوفد ، وكان حزب الوفد قد بلغ حدا من القوة جعل كل الشعب فيه ، وكان أيضا قد بلغ حدا من الضعف جعل كل المتناقضات داخله ‥

وعلى صفحات النداء مثلا كان ينشر سلامة موسى مقالاته عن العلم ، وكان عزيز أحمد فهمى ينشر مقالاته فى عالم الخرافة والهيلولة التى على قفا الشفق . وكان عزيز احمد فهمى نموذجا حيا على فساد العصر . كان عندما التقيت به حطام انسان مدمن على كل انواع الحشيش والافيون . وكان يأكل الحشيش علنا وكان يدعى أن بلسانه مرضا خبيثا لا يشفيه الا المخدرات . وكان قبيح الوجه الى درجة لا تطاق ، شعر رأسه تساقط منذ زمن بعيد ، وفمه المفتوح دائما يشبه قبرا مهجورا نبشته الذئاب .

وقد تتضح أبعاد المأساة أمام القارىء اذا علم أن عزيز أحمد فهمى كان منذ عشرين عاما سابقة على ذلك العام الذى التقينا فيه ، كان ألمع وأجمل شاب فى مصر . وكان كاتبا فريدا من نوعه . وكان صاحب أسلوب لاذع للغاية ، ساخر غاية السخرية وكان عدوا للوفد . شن حملة هوجاء ضد الوفد ورئيسه ، جعلت بعض الألاضيش يدبرون له كمينا دخل بسببه السجن ‥ وكانت

التهمة الموجهة له : احراز المخدرات . وخرج عزيز من السجن شخصاآخر . تحول الكاتب اللامع الساخر العظيم الى شخص هلامى وعلى بـاب الله . منظره منظر شـحات وعقلة عقل مجذوب وتصرفاته تصرف مدمن أهلكته المخدرات ! وراح يتدحرج شيئا فشيئا حتى وصل الى القاع .

وعندما وصل الى مجلة النداء كان قد سقط من القاع الى شيء يشبه الفضاء ، وراح يدورمع الريح مغمى عليه حتى غادر الدنيا ذات صباح فى حجرة عارية من الاثاث فى زقاق مظلم بارد كئيب . ولحظة صعود روحه الى خالقها لم يكن معه فى الحجرة سوى قطة مريضة كانت تربطه بها صلة صداقة عميقة امتدت عدة سنوات .

وكان سلامة موسى نموذجا اخر لفساد العصر ولكن على نحو آخر . كان واسع الثقافة ، وصاحب موقف اجتماعى ، وكان شديد الثورة على كل القيم البالية والمقدسات القديمة ،ولكنه كان يكتب فى النداء أى كلام ، ويقبل أى معاملة نظير حفنة جنيهات لاتزيد عن عشرة ، وكان هو فى غنى عنها تمـامـا اذ كان ميسور الحال قليل النفقات ، لا يدخن ولا يسهر ولا يشرب الخمر .

ولقد تعجبت من مسلكه هذا وتعجبت أكثر لهذا الرجـل المثقف الى هذا الحد ، الذى كان فى أعماق أعماقه متعصبا الى هذا الحد .

ولعل هذا نفسه هو الذى دفعه فى نهاية حياته الى العمل فى دار صحيفة كبرى كان يناصبها العداء ويهاجم أفكارها بشدة . ولعله نفس الموقف الذى دعاه فى النهاية الى أن يكتب كلاما كان يرفضه ويحاربه من قبل .

والى جانب هؤلاء الاعلام كان يعمل عشرات الأرزقيه هـم فى الاصل محاسيب بعض الشيوخ والنواب المحترفين وكان يعمل أيضا عشرات من الصحفيين المحترفين يكتبون ما يطلب اليهم بالاجر ولم يكن لهؤلاء أدنى اهتمام بشيء ، وكان كل همهم تحقيق مصالح شخصية على حساب المجلة .

وكان فيها أيضا شباب يتفجرون بالحماس والنشاط . وفى أدمغتهم تدور أفكار جديدة ، ولديهم طموح من نوع خاص .

كانت جريدة النداء اذن عالما خاصا مستقلا ، ولم يكن لها نظير بين دور الصحف الاخرى ، وكانت شيئا وسطا بين دار الهلال ومسامرات الجيب • فهنا محررون محترفون يعملون بالاجر وهنا أيضا صياع وعلى باب الكريم ، وهنا أساتذة وأصحاب رأى علموا الاجيال المتعاقبة ، وهنا كل شيء وأى شيء يحتفظ بالشكل أما الجوهر فلا شيء يهم •

الجريدة تظهر كل أسبوع كالمعتاد ، والمحررون يعملون كل يوم كالمعتاد ، ومع ذلك فليس للمجلة قارىء واحد مواظب ، وانما تقع فى أيدى القراء مصادفة وتمضى بهم ولا تؤثر فيهم •

ورغم أننى نشرت فيها عشرات المقالات خلال شهر واحد ، الا أننى لم اسمع من احد على الاطلاق كلمة استحسان واحدة ، أو كلمة استهجان واحدة • أغرب شيء أن المحررين انفسهم لم يكونوا من قراء المجلة ، وكان يوم الصدور بالنسبة لهم يوم عيد لا لشيء الا لانه يوم الاجازة !

وكان أمام باب المجلة بقال نشيط كل بضاعته جبنة وطرشى وعيش بلدى ، وكانت مرتبات المحررين تذهب كلها الى هذا البقال فقد كان أغلب المحررين عزاب ولم يكن لهم بيوت وكان كل طعامهم من عند البقال ، ولما كانت الجبنة والطرشى تقطع القلب وتحتاج الى شاى تقيل ليقتل سمها فقد توسع البقال فأصبح بقالا وقهوجيا ، ولما كان الشاى بعد الجبنة يحتاج الى تدخين سجاير ، فقد توسع البقال فأصبح تاجر سجاير أيضا ••

من خلال الجبنة والشاى والسجاير استطاع البقال ان يستولى على مرتبات المحررين كل شهر ، واصبح التعامل بينه وبين الادارة مباشرة بعد ان تكررت مماطلة المحررين وزوغانهم أول الشهر ، واستطاع أن يصل الى اتفاق مع الادارة للحصول على الديون بشرط ان يقدم أوراقا بامضاء المحرر •

ولقد تطورت تجارة السيد البقـــال تطورا خطيرا بعد ذلك فأصبح يبيع الحشيش والافيون • واغلب الاوراق الممضاة من المحررين التى قدمها البقال للادارة كانت ثمنا لهذه الاصناف الممنوعة •

ولكن أغرب شيء وقتها خلال الشهر الذى قضيته فى المجلة هو ان محررا طيب القلب استطاع العثور على حجرة مهجورة

فوق سطوح المجلة ، واستطاع الحصول على سرير سفرى صغير واحتل الحجرة دون علم احد ، واصبح يبيت فى المجلة كل ليلة وكان يمكنه الاستمرار دون أن يدرى احد ، لولا حادثة وقعت ذات مساء عندما حضر ذات ليله الى المجلة ومعه فتاة كومبارس ، وسمح له البواب باصطحابها ، ثم اغلق البوابة وصعد هو الاخر الى السطح معللا النفس بقضاء سهرة لطيفة • غير أن المحــرر رفض ان يشارك البواب فى قضاء السهرة ، ونهره بشدة وطرده شر طردة •

وفى الصباح كان خبر الحجرة التى فــوق السطوح قد بلغ صاحب المجلة • وثار صاحب المجلة بشدة وهدد المحرر بالطرد ثم أنذره فى النهـــاية بأن يدفع أجر الحجرة وبأثر رجعى أو يستقيل فورا من الجريدة •

وقبل المحرر الاقتراح الاول ودفع اجر الحجرة واستقام فيها بعد ذلك وأصبح ساكنا وله شأن وأصبح من حقه دعوة من يشاء الى الحجرة دون ان يكون للبواب حق مشاركته السهرة أو الاقتراب من الحجرة فى أى وقت !

وفجأة وقبل نهاية الشهر بقليل جاء الى الجريدة رجل فــلاح وموظف بالحكومة ، وعلى صدغة عصفورة ناصحة وتكاد تهم بالطيران ، جاء الرجل ليتولى منصب مدير عام المجلة ، واعلنت الطوارىء فى الحال فقد أشيع أنه جاء ومعه مشروع كامل للتنظيم •

وعندما جاء أول الشهر نزلت ووقفت أمام احمد عبد العزيز صراف المجلة ، وكان رجلا باردا كسمكة ميته ، وراح الرجل يتفرسنى كأننى عجيبة من مخلوقات الرب انقرضت منذ زمن بعيد • وهز أحمد عبد العزيز رأسه عدة مرات واعلن الخبر الذى لم اكن اتوقعه أبدا • اسمى ليس فى كشف المحررين ، بمعنى اخر انا لازلت على باب الكريم وبلا مرتب وحسبت الامر مجرد مزاح ، ولكننى تأكدت ان الامر جد كل الجد عندما التقيت بالمرحوم قاسم جودة وبدا قاسم بائسا ويائسا وغير ذى نفوذ •

وخرجت من مكتب قاسم لا اكاد ارى شبرا واحدا امامى ، ورغم أننى لم اكن قد تجاوزت العشرين من العمر ، الا اننى رحت أجر رجلى جرا كأننى قفزت الى سن المائة فجأة ، وأحسست بالدموع تنزلق من عيونى الى جوفى وبأننى اختنق ، ورحت أمشى على غير هدى ولم انتبه الا وأنا على كوبرى قصر النيل

وهواء مارس البارد المنعش اللذيذ يضرب وجهي بقسوة · كانت المشكلة التي أواجهها أكبر من أن تحل ·· ففي خلال الشهر الذي مضى أحسست بزهو لم أحس به من قبل ·ولاول مرة في حياتي اشعر بنوع من الاستقرار لم اشعر به في حياتي · كنت قد اصبحت محررا وبعشرة جنيهات في الشهر واتاح لى هذا المرتب الوهمى حرية أوسع فى التعامل مع الناس · وعلى الطريق الموصل الى بيتى اقترضت من البقال ومن القهوجى ومن دكان السجاير · وكان الجميع فى انتظارى أول يوم فى الشهر ، وكانوا على أحر من الجمر لعدة أسباب ··
أولها ـ للحصول على مافى ذمتى من نقود ·

والسبب الثانى ـ أن احدا منهم لم يكن يثق فى اننى قد استوظفت فعلا ، واننى يوما ما سأقبض بأصابع يدى الخمسة على عشرة جنيهات مرة واحدة ·

ولقد تحقق ظنهم فعلا ، اتضح أنهم كانوا أعلم منى بمهنة الصحافة ، وأدرى منى بالاحوال فى مجلة النداء ·

ولا زلت أذكر ماحدث فى ذلك اليوم المهبب بالتفصيل · ذهبت كعابى الى حديقة الارومان واقتحمتها فجأة · رغم اننى لم اكن من هواة الحدائق ولم يسبق لى الذهاب الى أى حديقة الا لغرض سرقة البلح أو معاكسة فتيات المدارس · واخترت مكانا تحت شجرة وجلست كالعاشق الولهان احدق فى لا شيء وعقلى يعمل ولكن بلا انتظام كأنه ساعة روسكوف خسرانة ، واحسست فجأة بأننى أحمل عمارة الايموبيليا فوق رأسى ، وأن سيفا ملتهبا يخترق عظام رأسى ويستقر فى مخى ، فى أكثر الاجزاء حساسية من مخى ، وشعرت بأننى أكاد اسقط مغشيا على · كانت الشمس قد مالت الى المغيب عندما استيقظت لأجد نفسى تحت الشجرةوحارس الحديقة يهزنى بعنف لكى انهض وأمضى ، فقد أغلقت الحديقة أبوابها منذ فترة ·

والقى الرجل الطيب على مسامعى سؤالا وأنا اتحرك نحو باب الخروج ·

هوه انت غريب يابنى ؟

وهززت رأسى فى فتور وانا أزحف كسلحفاة عجوزة نحو الخارج · ورحت اتسكع فى شارع مراد فترة قبل ان ازحف

من جديد نحو الجيزة • وعلى اقرب كرسى في قهوة محمد عبد الله جلست وطلبت واحد شاى مظبوط للغاية وعندما حضر عم عبده ومعه الشـــاى وقف أمامى وراح يتفرسنى وعلى فمـــه ابتسامة ، وقال وهو يهز رأسه برفق :

الشاى ده هتدفعه راخر والا من حساب الشهر الجديد ؟

ووخزتنى كلمة « راخر » فهى تعنى ببساطة أن عم عبده قد أصدر حكما لا يقبل النقض ان فلوس الشهر الماضى ستدفع حتما وازعجنى شعور عم عبده الواثق من نفسه ، فهذه الثقة الزائدة عن الحد ستدفعه حتما الى ارتكاب جريمة فى اللحظة التى يكتشف فيها أن ثقته لا مبرر لها ، واننى لا أملك نقودا من أى نوع على الاطلاق •

وجلست أفكر فى وسيلة للهروب من عم عبده ، ثم الهروب من البقال وبتاع السجاير ، فاذا لم أتمكن الا من الهروب من عم عبده ، فمعنى ذلك أن على العبد لله أن يبحث لنفسه عن مأوى ينام فيه تلك الليلة •

وفجأة قطع حبل تفكيرى يد هزت كتفى بعنف • وارتعش بدنى كله فقد ظننت أنه البقال ، وعندما التفت مذعورا وقد رسمت على شفتى ابتسامة نفاق مريضة ، وجدت صديقى الشاعر كمال النجمى أمامى • وكان كمال قد هجر العمل معنا فى مجلة مسامرات الجيب ، ثم زهـد الحيـاة فى المدينة وآثر العودة الى مسقط رأسه فى الصعيد الجوانى ، ومضت عليه سنوات لا نسمع عنه خبرا حتى فوجئت به تلك الليلة ، يقف منتفشا كالديك الرومى ، عليه علامات سرور دفينة ، وهو الذى يبدو مكتئبا على الدوام•

وسألنى كمال عن الاحوال فحكيت ليه باختصار ، ومط شفتيه فى ازدراء وقال بطريقته المشمئزة: لسه الصحافة فيها الوساخات دى ؟ هه •• شىء حقير قوى •

وسألته عن أحواله فقال وهو شديد الانبساط أنا كسبت الجايزة الاولى من مجمع اللغة العربية ، ودون أن أسأله ، قال على الفور •• الجائزة ثلثمائة جنيه ••

وسألته فى براءة : وهتقبض الجايزه امتى ؟

فقال على الفور : أنا قبضتها خلاص !

وهتفت بدون وعى : كذاب !
ولما مط شفتيه احتقارا ..
قلت متحديا : طيب ورينى ؟

وانتزع كمال رزمة أوراق مالية من فئة العشرة جنيهـــات : ووقع قلبى فى قدمى ، هاهو شـعار عم سعد بياع العرقسوس يتحقق « فرجه قريب » !

وهاهو الفرج يتحقق فعلا ومن حيث لا أحتسب ومن حيث لم أكن أدرى !

وقال كمال : انهض بنا نسهر ليلة من ليالى العمر .

وقلت لكمال : اعطنى عشرة جنيه قبـــل كل شىء وعندئذ أستطيع أن أتحرك .

وناولنى كمال المبلغ واستأذنت عدة دقائق دفعت خلالهــا ديون البقال وبتاع السجاير ، وعدت مرة أخرى لادفع لعم عبده ، ثم انطلقت مع كمال النجمى لنقضى أياما من أحلى أيام العمر ، فلقد كنا نملك الشباب والامل والمستقبل كله ، ولأول مرة كنا نملك مع كل هذه الاشياء المال . ولكن المال الذى كان مع كمال النجمى لم يلبث أن تبخر . وعدنا من جديد نبحث عن عمل ، ولازلت أذكر تلك الليلة الممطرة الموحلة التى سبقت رحيل كمال النجمى الى الصعيد . كان الوقت شتاء وعاصفة رهيبة تصفع وجه القاهرة بشدة ، وعبثا حاولنا اللجوء الى مكان يحمينا من البرد وبشرط ألا يكلفنا شيئا . ثم تذكرنا فجأة أن زميلا من زملاء مسامرات الجيب قد فتح الله عليه فاشتغل فى جريدة يومية ميتة لم يكن يقرؤها أحد على الاطلاق ، ولم تكن تظهر فى السوق ، ولكنها كانت تطبع مائة نسخة لزوم استهلاك اعضاء الحزب والسفارات الاجنبية ، وكان رئيس تحريرهـــا متخصصا فى وأد الجرائد المنتشرة ، وكان مغرورا ككل فاشل ، فاستعان بزميلنا اياه مديرا لمكتبه ، مع أن البيه رئيس التحرير نفسه لم يكن فى مكتبه شىء أكثر من المقال الفاشل الذى ينشره كل يوم .

ودخلنا على صديقنا فى الليل وفى البرد ، واستقبلنا فى مكتب فاخر ، وأكثر من مدفأة تنفث الدفء فى أرجاء المكان ، وعلى الباب فراش مستعد ، وطلب لنا الشاى ثم راح يشرح لنا ماخفى من عبقريته ؟ وماهى العوامل اللازمة للنجاح ؟ ولماذا تتوفر فيه هذه العوامل بينما لا تتوفر فى أحد سواه ؟

وقضينا الليل كله نسمع ولا نعلق . والحق أننا قضينا الليل بطوله نشرب الشاى وندخن السجاير ونستمتع بالدفء .
وفى الفجر غادرت مكتبه الى الشارع ، وغادره كمال النجمى الى الصعيد .

كانت تلك هى آخر ليلة لكمال فى القاهرة قبل أن يغادرها لمدة عامين كاملين ثم يعود من جديد ولكن بعزم جديد وفكر جديد وثقة بالنفس لا حد لها .
فقد كان كمال قد حصل على جائزة الشعر ، وكان ديوانه اسمه « الانداء المحترقة » وقد استغرق الاسم ثلاث ساعات كاملة من وقت اللجنة لكى تتعقب الاصول اللغوية لكلمة الانداء منذ فجر اللغة .
وفعلا ، عدت من جديد الى النداء ولكن بمرتب حقيقى ، ثمانية جنيهات كل شهر . ونصحنى الرجل الفلاح أبو عصفورة الذى هو مدير الادارة أن أنتبه جيدا فى عملى وأن أحصل على مناشت وهو جمع مكسر غير سالم لكلمة مانشيت !

ولقد وعدت بالحصول على مناشت كثيرة ، وضحكت فى سرى من جهله العظيم . لانه لو كان قد اشتغل بالصحافة من قبل ولو لمدة يوم واحد لأدرك أن المنشيت يحصل عليه الصحفى المحترف المدرب مرة كل عدة شهور !
وكانت حرب فلسطين قد هدأت وتوقف صوت الرصاص ، وكفت صرخات الجرحى عندما أصبحت محررا وله مرتب ..
ولقد بدأت العمل بسلسلة تحقيقات صحفية عن شهدائنا فى المعارك . وقدمت أكثر هؤلاء الشهداء فى لحظاتهم الاخيرة ، وفى أكثر من عشرين صفحة كاملة وكان عملا صحفيا مجيدا رغم أن أحدا من الناس لم يشعر به . حتى أسر هؤلاء الشهداء أنفسهم لم يشعروا لحظة واحدة أن هناك مجلة سيارة تكتب قصص أبنائهم ومع ذلك مضت الحياة هينة لأول مرة ، وشعرت لأول مرة فى حياتى بأننى فعلا قد أصبحت صحفيا . وشعرت أيضا بواجب القيام بدور الصحفى النشـــيط فى المجتمع !! فأسهر حتى الصباح وأنام حتى الظهر ، وأكتب فى المساء ، ثم أنطلق فى الحياة بغير حدود !

وذات مساء هبط فى مطار القاهرة زعيم من زعماء العالم ، وعلم من أعلام الفكر والسياسة فى العصر الحديث ، وقائد لأمة

من أكبر أمم آسيا والكرة الارضية ٠٠ هبط مطار القاهرة الزعيم نهرو ، ولقد أتيح لى أن ألقاه مصادفه ، وأن أحصل منه على كلام هز مصر كلها هزا وأشعل نار معركة حامية الوطيس بين القصر والوفد ٠ ولكن كيف التقيت به وكيف دار الحديث بين الزعيم الكبير والصحفى الشقى الذى كان منظره يوحى لمن يراه أنه تلميذ عابث أو صبى جرسون فى كافتريا المطار ٠٠ !!

انها قصة وقعت فعلا ، ولكنها أغرب من الخيال ٠

ولقد حدث لى خلال الاسابيع الاولى لعملى المستقر فى الصحافة عدة حوادث هامة للغاية ، سيكون لها أثر بعيد فى نظـــرتى للامور عامة وللحياة السياسية فى مصر على نحـــو خاص ٠٠ وكانت الحادثة الاولى تتلخص فى أن رجلا تركيا منزوش المخ أبله لايكاد يفرق بين لاعب الكورة وحمار الوحش ، وصل الى مصر فجأة فى زورق شراعى فى طريقه الى رحلة بحرية حـــول العالم ٠٠ وما أن وصل التركى الابله الى القاهرة ورسا بزورقه على ضفة النيل الغربية بالقرب من كوبرى الجلاء حتى ثارت ضجة هائلة فى المدينة حول الامير الاشقر الوســـيم صاحب النظرات الحالمة والذقن المدبب ٠ وتهافتت عليه بنات الطبقة الراقية (!!) حتى أصـــبح الامير التـــركى ولا أمير من أمــراء المماليك ، دعوات وسهرات وحفلات وحوادث طلاق كـــل يـــوم وحوادث انتحار وحوادث هروب من بيت الزوجية ٠٠ ثم حط الامير فى النهاية على بيت الامير محمد على رءوف وأصبحت كل جهوده فى دنيا الغرام حكرا للاميرة نسل شاه أجمل وأشهى بنات أسرة محمد على ! ولقد قدر لى أن أرى هذا الامير ذات ليلة من ليالى شهر يونية الحارة حينما دعا سموه الى مؤتمر صحفى على ظهر زورقه ، ولم يكن فى المؤتمر الصحفى سوى محرر آخر مثلى وعشرات من مندوبى الاعلانات جاء كل منهم يسعى على رزقه ٠ وبينما سكت أنا وزميلى الصحفى ، راحت الاسئلة تنهمر على رأس الامير من مندوبى الاعلانات ، وسمو الامير أياه يجيب وقد رسم على شفتيه ضحكة عريضة بلهـــاء ليس لها مناسبة ، والحق أن الرجل كان تافهـــا غاية التفاهة ، جهولا غاية الجهل ، ولكنه كان فى الوقت نفسه وسيما غاية الوسامة ، جميل الصورة كأنه يوسف الصديق ، مفتونا بنفسه كأنه نجمة سينما عالمية مدللة وكان يتمتع بشارب دوجلاس ، بدا من النظرة الاولى أنه محور حياة صاحبه ، وأنه أهم موهبـــة

يتمتع بها الامير ·· ولقد كانت الاسئلة التى أخذت تنهمر على رأس الامير الهايف أكثر هيافة من سموه ، وكانت كلها من طراز ، هل تنوى سموك مقابلة ملوك العالم ؟ هل تنتهز هذه الفرصة لحل بعض المشاكل العالمية ؟ مارأى سموك فى مشكلة فلسطين ؟ · ولقدأجاب سمو الامير علىهذا السؤال بجواب يليق بحجم المشكلة ، قال سمو الامير ونفس الابتسامة البلهـــاء مرتسمة على وجهه : مشكلة فلسطين بعدين متى تمام ، بعدين لازم مشكلة فلسطين لازم ! وقد أبدى أحد مندوبى الاعلانات اعجابه الشديد بالتصريح الخطير بأن صاح معجبا كأنه من سميعة أم كلثـــوم ، الله ، الله يا أمير ! فى الوقت الذى انطلقت منى ضحكة مجلجلة رغم أنفى ، وقد انتهت الضحكة بشخرة غير متعمدة ، ولقد تأزم الموقف للغاية ولكن سمو الامير ضحك هو الآخر وشخر ، ثم قال وهو يهز رأسه ·· فلسطين ·· ها ها ها ! ولقدانتهى المؤتمر الصحفى بعد ساعة ، وانصرف مندوبو الاعلانات بعد أن وقع الامير على أذونات نشر تدفع بعد ذلك·· وانصرفت انا والصحفى الآخر ، ولكنه توقف عنـــد البـــاب وأستأذن منى لدقائق ، ثم غاب عندالزورق وعادوالضيق يبدو عليه · وراح يزفر بشدة ونحن نتمشى على الشاطىء ، ثم فجأة قال فى غيظ شديد · يلعن أبو الامـــرا اللى بالشـــكل ده ! واستطرد دون أن أسأله ، قال أمير قال ، دا شحات ولا يسوا ، دنا رجعت له بحسب عنده دم ، ولكن ولاحياة لمن تنادى·· أنا افتكرته هيناولنى ظرف لكن لافيه ظرف ولاحتى جواب ، وعندما سألته عن سر الظرف الذى ينتظره ، قال فى براءة ، ظرف فيه فلوس ، ماهى دى العادة ، لما يكون راجل أمير زى ده لازم يفرق ظروف على الصحفيين ، لكن دا باين عليه شحات ! ولم يكن سموه يبدو عليه فى الحقيقة أنه شحات ، ولكن كان يبدو عليه أنه نصاب · وانه ولد حلنجى كما الثعبان ، وأنه صـــايع تركى مغامر ، استطاع أن يركب على اكتاف الطبقة المصرية الراقية (!) وأن يعبث بأجمل بنات تلك الطبقة وأن يتقاضى منهن الحساب ! ولقد كان يوم مغادرته مصر يوما صعب وقفاته كما يقول مطرب الارغول · خرجت مئات من البنات والنساء الى الشـــاطىء ومناديلهن مبللة بالدموع ·· وأغلب الظن أن الامير الصايع ركن الزورق فى ترعة المحمودية واســـتقل أول ســـفينة الى اسطنبول ! بعد أن عاش فى مصر عاما كأعوام هارون الرشيد ،

وخرج منها بثروة تكفيه بقية العمر . ولقد أدركت من خــلال هذا الحادث البسيط أن الحياة فى مصر عفنة الى الحد الذى سمح لنصاب تركى وسيم أن يبيع فيها الكذب والحب . ولست ادرى حتى هذه اللحظة ما الذى أعجب ستات الزمالك فى هذا التركى الابله ؟ ثقافته أم درايته أم فهمه الواسع العميق ؟ أم خفة دمه؟ أم لعله الشارب الدوجلاس هو الذى جذب كل هذا العــدد الهائل من الستات الراغبات فى البهجة .. والبنات الساعيات الى الفرفشة ، خصوصا اذا كان الرجل المفرفش يتمتــع الى جانب موهبة الشنب بموهبة أخرى هى لقب الامير ! أما الحادثة الاخرى فكانت أعجب وأغرب فقد تلقيت دعوة من صــديق صحفى كان لامعا تلك الايام بأن أتوجه معه الى حفلة شاى فى الخامسة مساء فى مكتب بشارع سليمان باشا ، وقال يشجعنى على الحضور أن على ماهر باشا سيحضر الحفل . ولمــا كانت ملابسى لم تكن تسمح بحضور حفلة يحضرها رجل صاحب مقام رفيع فقد اعتذرت .. ولكن الصديق الح وأصر عــلى أن أحضر .. وقال يغرينى على الحضور .. ستتعرف على الباشا فى الحفلة وسيفيدك هذا فى عملك الصحفى . وفعلا ذهبت الى المكان ومعى طوغان فقد كان معزوما هو الآخر .. ولم نجد هناك ألا سبعة أشخاص يبدو عليهم جميعا أنهم من الطلبة .. وثلاثة أشخاص فى المعاش ، علمنا بعد ذلك أن أحدهم عضو فى مجلس النواب عن دائرة فى الصعيد . ثم خمسة من محررى الصحف الغلابا أمثالنا . ورغم هذا العدد الضئيل من الحاضرين فقد كانت الموائد عامرة بكل أنواع التورته والجاتوه والفواكه .. وبدا على الحاضرين جميعا عندما بدأوا فى شرب الشاى أنهم لم يتذوقوا طعاما على الاطلاق منذ أول أمس ! وراح بعضهم يرشف بصوت عال ، وبعضهم يمضغ بطريقة مقززة كأنه طاحونة دبش فوق جبل المقطم ، وفجأة قطع عليهم لذتهم دخول على ماهر فجأة وترك الجميع الاكل والرشف والزلط جانبا ووقفوا يصفقون للباشا الانيق الذى أرتسمت على محياه تعبيرات صارمة كأنه روميل على أبواب معركة العلمين ! وفجأة قال الباشا يخاطب الحاضرين يا شعب مصر ، لقد دقت ساعة البداية وحانت ساعة العمل ، وأنى أعلن عليكم قيام جبهة مصر ، لتعمل على تطهير البلاد ، ونموها السريع ، واقرار السلام والعدل فى ربوع العــالم ! وعليكم (يقصدنا نحن) أن تتمسكوا بمبادىء جبهتكم ، وأن

تناضلوا « برضه احنا » نضال الابطال من أجل تحقيق برنامجكم ، وسننتصر باذن الله وبفضل تضحياتكم « احنا أيضا) ! ولما لم يكن لى أى برنامج ، ولما كنت لا أنوى التضحية بأى شيء ! ولاننى كنت أحب مصطفى النحاس ولا أحد سواه ولأننى كنت أرى أن على ماهر رجل مثل مدينة طنجة ، على الحياد فى كل شيء ، فقد أدركت أننى لست المقصود بكلمة أنتم ، ولذلك نظرت خلفى ، فاذا بالخمسة عشر شخصا الآخرين ينظرون خلفهم بحثا عن هؤلاء الذين سيؤمنون أولا ثم يضحون بعد ذلك وخرجت دون أن أهتم بما جرى ، وحسبت الامر كله حفلة شاى وهزار ورجل وزير طيب أطعمنا دون أن يريد منا جزاء ولا شكورا !

ولكن فى صباح اليوم التالى خرجت الصحف اليومية بعناوين بارزة للغاية وعلى عرض الصفحة ، على ماهر يعلن تأليف جبهة مصر ، الجماهير الغفيرة تحضر المؤتمر وتعاهد على ماهر على الالتفاف حول مبادىء الجبهة والتضحية من أجل النصر ! حشود غفيرة ! هل كان بين الخمسة عشر رجل واحد اسمه حشود وأبوه اسمه غفيرة ! أين هذه الجماهير التى عاهدت والتى ضحت ؟ أغرب شيء أن بعض الجرائد نشرت صورة الباشا وهو يخطب ثم صور الخمسة عشر رجلا وهم يصفقون ، وعلى هذه الصورة قام حزب جبهة مصر بزعامة على ماهر باشا · ولكنه قام لينفض ! ولفظ الحزب أنفاسه قبل أن ينتهى على ماهر من ألقاء خطابه الخطير فى الحفل ! هكذا أذن تصور الجرايد مايجرى فى الحياة للناس ·· أمور كلها نصب واحتيال وأحسن من السرقة وكافة شيء يغضب الرحمن · أما الحادث الثالث فقد هزنى بعنف ، وقلب أمعائى من الداخل كأنه طعام فاسد · ولقد كان بطله صديق صحفى شاب طيب وساذج · وقد همس فى أذنى ذات صباح أنه أصبح مكافحا وطنيا وأنه أصبح عضوا فى منظمة شيوعية أسمها حدتو ·· ولقد كنت تلك الايام اسمع عن الشيوعيين فى مصر وانفر منهم ولكننى كنت معجبا بهم على نحو ما ·· وقال صديقى أنه سيتسلم هذا الصباح منشورات تدعو الى الثورة ضد النظام الملكى ، وأنه سيتولى قيادة منطقة فى وسط القاهرة ، وأنه سيكون مسئولا عن أربع خلايا كل خلية مكونة من أربعة أفراد ، وراح يحكى لى عن هدف الثورة القادمة ، وبرنامج المنظمة ، وكفاحها وتاريخها الحافل الطويل ! ولقد

ـــ بهذا التطور المفاجيء الذى طرأ على صديقى ، فلقد كنت اعرفه حق المعرفة ، وكنت أعلم أنه يؤمن فى السياسة بالظهور فى الصور الى جانب الزعماءدون أن يكون مؤمنا بمبادىء هؤلاء الزعماء • وكانت بوصلته تبدو دائما خربانة فى بحر السياسة المصرية الهائج المتقلب ، ولذلك كان فاقد الاتجاه الصحيح فى كل الاحيان •• ورغم هذا كله فقد صدقتـــــه ، وذهبت معه وأنتظرنا أكثر من ساعة عند باب سينما مترو حتى أقبل فى النهاية شاب أصلع يضع نظارات طبية بشنبر سلك رفيع ويرتدى بدلة قديمة خفيفة رغم الشتاء القارس ، ويتأبط رزمة أوراق ملفوفة بعناية فى جريدة قديمة ، وعندما أصبح فى محاذاة صديقى غمزله بعينه فمضى هذا خلفه بحركة لا ارادية كأنه منوم مغناطيسيا •• وانحرفا معا داخل عطفة فى نهاية شارع سليمان باشا ، ثم سلمه الاوراق ولم يتبادلا كلمة واحدة وافترقا على الفور • وراح صديقى الذى أصبحت الاوراق فى عهدته يمضى سريعا فى الشارع دون أن يخاطبنى بكلمة • وبدت عليه أهمية مفاجئة كأنه عمرو بن العاص على أبواب مصر، وعندما حاولت التحدث اليه شـخط شـخطة عنترية وأمرنى بالصمت • وراح يضرب على غير هدى حتى وصلنا الى ميدان باب اللوق • وركبنا الترام معا ولكن فى صمت وفى مقاعد متباعدة •• وكان صديقى ينظر باهتمام شديد الى كل راكب جديد يصعد الترام ثم يغمز لى بعينه مؤكـــدا لى عن طريق الاشارة أنه مخبر نشيط يتعقبه ! ورحنا نعبر شوارع الجيزة وحواريها حتى وصلنا الى منزل صديقى ، وصعدنا فى حذر وأغلقنا الباب ، وتنهد الصديق بعمق وزفر زفرات حارة وبدا كأنه تخلص من كابوس شديد •• وعاد من جديد يحكى لى قصة كفاحه وجهاده ! ثم سألنى فى براءة منقطعة النظير •• مش لما الشيوعيين ياخدوا الحكم أنا أبقى رئيس تحرير ؟ ولم أجبه بشيء ، وسألته أنا الآخر عن مصدر المنشورات التى معه ، وفوجئت بأنه لايدرى ، وأنه يعانى من وجودها معه ، وأنـــه يخشى لو تركها فى البيت أن تضبط هنـــاك ويكون مصيره السجن لا محالة •• ثم صمت طويلا قبل أن يقول ، أيه رأيك لو حرقتها ؟ ولم يكن ينتظر منى جوابا ، كما لو أن سؤاله هذا لم يكن سؤالا ، ولكنه كان قرارا أصدره وانتهى الامر • وفعلا نهض الصديق وأحضر علبة كبريت وراح يحرق الاوراق الخطيرة

أمامي ٠٠ وفجأة والدخان يعمى عيوننا انطلقت [illegible]
رغم أنفى ، ضحكة طويلة عميقة صافية ، كانت هى خير تعليق على الرواية كلها • وسألنى صديقى وهو يغالب الضحك ، أنت بتضحك ليه ؟ وقلت في هدوء : انت يظهر مش فى منظمة حدتو ، انت فى منظمة حرقتو !

وضحك هو الآخر ، ثم ظل يحرق الاوراق فى هــــدوء وباعصاب قاتل محترف معتاد !

أما الحادث الاخير فقد كان أنكى وأمر !

أوفدتنا المجلة الوفدية التى نعمل بها الى المنصورة لنقوم بعمل تحقيق صحفى عن أملاك ابراهيم عبد الهادى باشـــا رئيس الوزراء السعدى ، وذهبت ومعى صديقى علوى الصحفى أياه الذى كان معنا فى دار الهلال والذى ترك العمل هناك وتفرغ للعمـــل فى مجلة النداء وبمرتب ثمانية جنيهـــات كل شهر • ولم أفهم السبب الذى دعا مدير التحرير الى الاصرار على ضرورة سفره معى ، مع أن هذه الامـــور لم تكن ضمن اهتماماته ٠٠ ثم اكتشفت بعد ذلك بزمن طويل أن مـــدير التحرير أقتسم معه قيمة بدل السفر ، وأن علوى وعده بهدية زبدة فلاحى عند عودته من المنصورة ! كانت الرحلة ناجحـــة وموفقة لولا تصرفات الاخ علوى ٠٠ ففى أول لقاء لنا مع عمدة طلخا وهو نائب وفدى متحمس أقسم الرجل أن نقضى الليل فى منزله ، ولكننى اعتذرت له بشدة • وأخيرا وافق الرجل على أن يتركنا نمضى وشأننا ، وعند باب الدوار دس العمدة يده فى جيبه وأخرج أوراقا مالية دسها فى يد علوى • وتناولهاعلوى على الفور ورفع يده نحو السماء وراح يدعو الله على طريقـــة الشحاتين ، الهى مايجوعلك كبد ولا يعريلك جسد يا حضرة العمدة ! وعندما عاتبته على هذا التصرف المعيب ، راح يلقى على مسامعى محاضرة طويلة عن أسلوب التعامل مع النـــاس والسلوك الطيب فى الحياة ، وكانت خلاصة مفاهيمه ان الحياة تعاون ، وان الناس فى خير ماتعاونوا !

ولقد قضينا فى المنصورة عشرة أيام كاملة ٠٠ ارتكبنا فيها كل الجرائم واستعملنا كل الوسائل ، حتى حصلنا على كل المستندات الدالة على استغلال الباشا لنفوذه كى يضمن لارضه الرى المريح والخصب الدائم •

مستندات حكومية أشبه بالروايات الكوميدية ! مستندات تحمل ترقيعات الباشا رئيس الوزراء ، والباشا وزير الاشغال والبيه مدير الرى والافندى الملاحظ والولد الغفير ! وفى آخر ليلة لنا فى المنصورة جاء الموظف الذى سرقنا الدوسيه من عهدته يبكى ويلطم فى اللوكاندة ولكننا ادعينا البراءة ، وأبلغناه أن الدوسيه أرسل الى القاهرة ، وطلبنا منه أن يصحبنا الى المجلة ووعدناه برد الدوسيه وبمكافأة كبيرة ! وفى تلك الليلة الاخيرة أيضا حدث للعبد لله حادث غريب للغاية ، فقد كان يسكن فى الحجرة المجاورة لحجرتنا فى اللوكاندة رجل فى حوالى الستين من عمره ، يرتدى جلبابا وبالطو أصفر وطربوشا ويضع تحت الطربوش منديلا محلاويا عريضا ، ويمسك فى يده بمظلة ٠ وكانت معه زوجته وهى فى السادسة والثلاثين من عمرها ، شابة مليحة ممتلئة عفيه ، جمالها متوحش ، نظراتها وحركاتها كأنها لبؤة تبحث لها عن أسد جامد وقوى وخطير ٠٠ وكان صديقى علوى الذى تجذبه رائحة النساء من على بعد ألف ميل قد لضم معها فى كلام ليس له مدلول !

وجلست أنا ليلتها مستمعا ، وكنت لم أزل صبيا فى الثانية والعشرين من العمر ٠ وقد لفت نظرى ليلتها أن المرأة العفية المستوية كانت تختلس النظر نحوى بين الحين والحين ، وكان لوقع نظراتها تأثير عجيب على نفسى فقد كانت عيناها واسعتين عميقتين سوداوين ولامعتين كأنهما من الزفت المغلى ! المهم أننى فى تلك الليلة الاخيرة التقيت بالمرأة فى بهو الفندق المتواضع وكان الزوج فى الخارج وكان من عادته أن يخرج كل صباح ليعود فى المساء ، ويظل يسعل حتى تنقطع انفاسه ويسقط مغمى عليه من شدة السعال ! وتفاهمنا بسرعة أخذت تشكو وتضج بالشكوى من التهاب فى الاعصاب ، وراحت تحكى للعبد لله وهى تبكى كيف أرهقها المرض الى حد أن الزوج اصطحبها معه الى المنصورة لتشم الهواء وتسرى عن نفسها قليلا ، ولكنه جاء بها الى البندر وتركها فى اللوكاندة وانشغل عنها بأصدقائه فى المنصورة ٠ وفرحت الست لهذا الوضع وسرحت هى على كيفها ، وكانت ليلة ليلاء انتهت بزغرودة طويلة من الست المشتاقة الى ذكر يروى عطشها الشديد الى الحنان والحب والمتعة ! وأدركت سر انشغال زوجها عنها فى

المنصورة ·· لعلها حركة ذكاء من جانبه ·· ولعـــل كل شيء يدور من خلف ظهـــره وهو يدرى ! ·· المهم أننـــا عدنا فى الصباح الى القاهرة · وقابلنا صاحب المجلة الوفدى وسلمناه فضيحه رئيس الوزراء السعدى · ولكن هذا الموضوع أختفى الى الآن فلم يكتب له أن ينشر قط ! يبدو أن الفساد كان سمة العصر ، وما يحدث فى جانب حزب السعديين يحدث مثله فى جانب حزب الوفد ! ولقد علمت بعد ذلك بسنوات أن الموضوع كله سلمه صاحب المجلة لرئيس الوزراء وقد تمت الصفقة بين الطرفين وانتهى الامر ·· وضاع الموظف المسكين ففصلوه بعد ذلك ، وضاع نشاطنا الصحفى الرهيب فلم يسفر الا عن خيبة الأمل والفشل والهم ! وعدت من جديد أدور فى نفس الساقية التى أنا مربوط اليها ! عدت أكتب أى كـــلام وانشر أى شيء وذات يوم فوجئت بأنني في المحكمة فقد قاضانى أحد المقرئين المشاهير الكبار ·· وكنت قد كتبت عنه كلمة ساخرة وقصيرة وقلت بالحرف الواحد ، والشيخ فلان يشرب الكوكولا ·· و·· و يدخن السجاير و ·· هل أقول ؟ لا ، فانا شخصيامن عشاق الشيخ ! وكانت هذه أول قضية صحفية فى حياتى ، ولقـــد علمتنى الكثير وزودتنى بتجارب غنية ولكن يوم نظر القضية لم يغمض لى جفن ، وظللت طول الليل أفكر فى المصير الاســود الرهيب الذى سأنتهى اليه !

وذات مساء هبط مطار القاهرة المرحوم نهرو · ولم يكن فى استقباله سوى حكمدار القاهرة منـدوبا عن رئيس الوزراء ، وعدد من الصحفيين وموظفي السفارة الهندية ، ورجل اســمه فخر الدين كان يمثل اندونسيا فى القاهرة ، وكانت بلاده فى ثورة ولا ثورة فيتنام هذه الأيام !

وكنت أقف فى المطار الى جانب فخر الدين وطوغان ، وكان منظرى لايسر عدوا ولاحبيبا ، بدلتى شتوى رغم أننا كنا فى عز الصيف ، وجيوبى منتفخة بأوراق ليس لها لزوم ، وفى يدى أوراق وأقلام لزوم الصـــحافة · وتقدمت نحو المرحوم نهرو وصافحته وسألته باللغة الهندية عن الصحة والاحوال فابتســـم نهرو وربت على كتفى وشـــدنى من يدى معه الى استراحة العظماء · وانخدع الحكمدار فظننى مســئولا كبيرا فى سفارة الهند ، أو لعله ظن أننى عميـد الجالية الهندية فى

القاهرة ، وأننى ممصوص وممقوت من أثر الجهد البالغ أيام الكفاح . المهم أن الحكمدار الطبيب رفع يده تعظيم سلام للعبد لله . وأغرب شىء أن نهرو هو الاخر انخدع مثل الحكمدار . فقد ظن أننى أحد كبار المسئولين المصريين بدليل أن الحكمدار مندوب رئيس الوزراء قد رفع يده للعبد لله بالتحية والاجلال . وجلست فى استراحة العظماء بين نهرو والحكمدار ساعة زمان ، ونهرو يتكلم فى السياسة ويتكلم فى امور الحياة . وكانت فى مصر معركة حامية الوطيس على الضمان الجماعى العربى وقال نهرو كلاما ضد هذا الضمان ثم نهض ووقف الى جانب الطائرة وقال كلاما شاعريا لم أفهمه . وصافحنا جميعا ثم ركب الطائرة وانصرف فى سلام !

وقضيت ساعة مع فخر الدين فى المطار أسأله عن الكلام الذى قاله نهرو فى استراحة العظماء ، ونقلت الحديث كما ذكره فخر الدين ، ثم قضيت الليل بأكمله فى بوفيه بمحطة السكة الحديد . ثم توجهت ومعى الحديث الى جريدة صباحية كبرى . وعندما اطلع مدير التحرير على الحديث رحب بى بشدة .. ولكنه رفض نشر الحديث الا اذا حصلت على توقيع من السفارة الهندية بأن الحديث صحيح وأنهم لايمانعون فى نشره !

وأخذت بعضى وتوجهت الى دار السفارة الهندية واكتشفت أنه لايوجد بالسفارة سوى موظف هندى فعلا لايعرف من العربية حرفا ! ولما أوضحت له المسألة برمتها ، وشرحت له الموقف بصراحة ، وافق على الفور على نشر الحديث ووضع خاتم السفارة على الاوراق كلها .

وهكذا نشر الحديث فعلا فى أكبر صحيفة يومية فى مصر ولكن بلا توقيع ، وقد أحزننى هذا الموقف بشدة ، ومع أنهم منحونى عشرة جنيهات فى الحديث ، الا أننى تمنيت أن أدفع عشرة جنيهات أخرى وأضع توقيعى أسفل الحديث !

فلقد كان هذا العمل هو أول خبطة صحفية فى حياتى . ولقد أقام الدنيا وأقعدها بعد ذلك ، وهاجم صدقى باشا السراى واستشهد بالحديث ، وهاجم جلاد باشا صدقى باشا فى جريدة الزمان ، ولم يكتف بهذا بل هاجم نهرو أيضا .. وأصبحت أزمة دولية كبرى ، واضطر نهرو بعد أسبوعين من

نشر الحديث الى تكذيبه وهو فى باريس ، وقال للصحفيين الفرنسيين ، لاأذكر أننى التقيت بصحفى مصرى فى مطار القاهرة ٠

وكان نهرو على حق ، فهو لم يعرف لحظة واحدة أننى صحفى ٠٠ ولا الحكمدار المصرى مندوب رئيس الوزراء كان يعلم صفتى ٠
ولكن الجريدة اليومية الكبرى التقطت القفاز كما يقولون ، وتحدث نهرو ونشرت الحديث مختوما بخاتم السفارة ، واضطرت السفارة الى السكوت فلم تعلق على الموضوع بشىء !

ولقد خيل الى أن حديث نهرو فرصة للعمل فى الجريدة ٠٠ ولكنهم رفضوا بشدة ، واقترحوا أن أعمل معهم بالقطعة ٠٠ وهو نظام كان يجعل من الصحفى شيئا أشبه بالشيال فى محطة مصر ٠ فأنت عليك كل الواجبات نحو الجريدة ٠٠ ولكن ليس على الجريدة أى واجب نحوك ٠٠ وبينما لا تستطيع تمثيلها أو التحدث باسمها فى أى مكان فانك تستطيع أن تنشر فيها انتاجك ، وضع مقلوب رفضته بشدة أنا الآخر وعدت للعمل فى هدوء فى مجلة النداء ٠٠

وذات يوم تلقيت دعوة من صديقى فخر الدين لحضور حفلة استقبال كبرى فى فندق سميراميس احتفالا بأعلان استقلال اندونيسيا وكانت أول مرة أدخل فيها سميراميس ، وأول مرة أيضا أحضر فيها حفلة استقبال من هذا النوع ، ولذلك دخلت الحفل أتلفت خلفى كأننى فلاح يدخل بيت العمدة لأول مرة ٠ وأحسست بخجل شديد عندما رأيت كل الرجال فى ملابس أنيقة ، وكل النساء فى رشاقة الطاووس ٠ ولمحنى فخر الدين فأقبل نحوى وسحبنى من يدى ووقف يتكلم معى عدة دقائق ولكنها كانت كافية لاعادة الثقة الى نفسى !

ووقفت فى الحفل وحيدا بعد ذلك حتى أفتتح البوفيه ٠٠ فاتجهت نحوه فى خوف شديد كأننى ذاهب الى مدرس اللغة العربية ٠٠ وعندما رأيت ادجار جلاد باشا استأنست ووقفت الى جواره ٠٠ ولم أكن أعرف جلاد باشا ولم يحدث أى لقاء بيننا من قبل ٠٠ ولكنها الخيبة العريضة أوحت الى أنه مادام جلاد باشا صحفى ، ومادام وجهه مألوفا لدى ، فهو أهون من

الآخرين الذين يملئون الحفل ٠٠ ورحت أزحف خلفه ألتقطمن البوفيه نفس الاشياء التى يأكلها ، واكتشفت أن كل شيء التقطه كان مملحا ، ومع ذلك لم أجرؤ على أنآتناولشيئا آخر ٠٠ وعندما جاء دور الشاى طلب الباشا فنجال شاى بدون سكر ٠٠ وكذلك فعلت أنا الآخر ٠٠ ووقفت أتجرع فنجال الشاى كأنه سم أزرق ٠

واكتشفت بعد ذلك بسنوات أن جلاد باشا مريض بالسكر بينما كنت أنا أشكو من مرض الملح !

وعندما خرجت من الحفل الفاخر توجهت الى أقرب مقهى فى ميدان التحرير وطلبت واحد شاى بسكر ثقيل لكى أكسر سم الشاى الآخر الذى شربته هناك ٠٠ ولعلها كانت أولحفلة وربما الاخيرة ولسنوات قادمة ٠

وفى هذا العام تألفت وزارة جديدة برئاسة حسين سرى باشا لاجراء انتخابات جديدة ، وخاض الوفد الانتخابات بكل قواه ٠٠ وتقدم للترشيح عدد من كبار الصحفيين كان أحدهم رئيس تحرير الجريدة اليومية الكبرى اياها التى نشرت بها حديث نهرو ٠ وأصدرت المجلة ملحقا يوميا عن الدايرة وتولى الاشراف على تحريره زكريا الحجاوى ثم تطور الملحق خلال المعركة الى ملحق للجريدة وعهدوا بالاشراف عليه الى محرر آخر ٠ وقبلت العمل فى الملحق الجديد بالقطعة ، وسافرتالى الاسماعيلية مع محرر آخر اسمه هلال كان أشقر مثل عساكر الاحتلال ، طويلا وطيبا وساذجا على نحو ما ٠ وكان يعمل بالصحافة بدون حماس وبلا طموح وكان كل آماله أن يزيد دخله عدة جنيهات تعينه على الحياة فى مستوى أفضل . وكان يعمل مدرسا للغة الفرنسية فى احدى المدارس الثانوية وكان يبدو فخورا ومتعاليا بمهنته الاخرى ، وكنا اذا دعوناه للسهر معنا اعتذر عن القبول لانه على حد تعبيره « مانا مش زيكوا برضه ، أنا مدرس ثانوى » ! وكانت عبارة أنا مدرس ثانوى هذه يرددها فى كل مناسبة ، وأحيانا كان يرددها فقط دون مناسبة على الاطلاق ٠

المهم انا ذهبت مع هلال الى الاسماعيلية لنكتب موضوعا عن المدينة المصرية التىيدخلها المصرى بجواز سفر ويحكمها انجليز وكانت الاسماعيلية فى ذلك الزمان نسيج وحدها بين مدن

مصر . كان الانجليز يسكنون اغلب عماراتها وكانت الحياة تسير داخل المدينة على نحو انجليزى . وحتى المارة فى الشوارع جميعا انجليز ! وفى الليل كانت الاسماعيلية تنقلب الى كباريه ، العساكر يرقصون فى الشارع ،والضباط الانجليز يرقصون فى البارات ، الغناء انجليزى والصراخ انجليزى ، كأننا فى مدينة مارجيت على شاطىء بحر الشمال ! وقضينا الليل فى بار اسمه بيكاديللى وفجأة وقع بصر هلال على ولد استرالى كما فحل الجاموس المعتبر جالس وقد فتح صدره وبان الشعر الكثيف يغطى جسمه ! ويداه المفتولتان القويتان تتدليان بجواره وقد غطى الذراعين وشم أخضر شديد الاخضرار ، نبات أشجار ونخيل . وقد تدلى رأسه الكبير على صدره وراح فى نوم عميق ومع الولد الاسترالى الفحل ، تجلس بنت سنيورة جاويش فى الجيش ، ما احلاها وما اطعمها ! ونهض هلال كالضبع ، وتوجه نحو البنت الجاويشة ، وجلس على المقعد المجاور ، وسأل البنت كام سؤال ، والبنت تسمع وتجيب ، ثم سألته بعد فترة : لماذا هذه الاسئلة ، وقال هلال : انا صحفى فى القاهرة وسأنشر حديثك ! واعترضت البنت لانها مجرد جاويش فى الجيش وطلبت منه ان يذهب الى القائد البريطانى ويبدوأن البنت كانت ساذجة وكانت صادقة ، وحسبها هلال بنت عايقه ولئيمة وشقية ، فأقسم لها بدون مناسبة انه لا يجرى حديثا الا معها، لأنها فى الواقع وبالنسبة لهلال أعظم من كل ملوك انجلترا !

واستيقظ الولد الاسترالى على صوت هلال المسرسع ، فنظر نحوه بنصف عين ثم اشار له برأسه بأن ينصرف ، ثم لم يلبث ان نام من جديد .

ولم يهتم هلال بالولد الاسترالى وعاد الى مناقشة البنت الحلوة . ولكن الاسترالى استيقظ مرة اخرى ونهر هلال وامره بالانصراف ثم نام وارتفع شخيره فى الفضاء . ولكن هلال مضى فى طريقه مع البنت . غير أن البنت أبدت نفورا من هلال فسره هو لخيبته بأنه مجرد دلال وعندما استيقظ الفحل الاسترالى للمرة الثالثة ، كانت البنت يبدو عليها الضيق الشديد ولم يتكلم الاسترالى هذه المرة ولم يحتج ، فقد اعذر من انذر ، رفع يده الغليظة وطاح بهلال فأذا به مع المقعد خارج بكاديللى ، واذا بهلال حمامة فى الطريق الى محطة الاسماعيلية

والواد الاسترالى خلفه وانا خلف الجميع وصوت هلال للجو ، وصوتى انا الآخر يرن حتى أبو صوير • ولسوء حظى انتبه الواد الاسترالى الى أننى أجرى خلفه ، فظن أننى أريد به سوءا فأنحرف نحوى فجريت فى الظلام نحو منتصف الشارع ، ولم الحظ أن بالشارع حديقة وانها محاطة بسياج ، لهذا انكسرت رجلى على هذا السياج ، ولكنه كان قدرا أخف من قدر كما تقول أمى ، فقد انكسرت رجلى ولكنى انقذت من الموت باعجوبة ! اذ أننى عندما سقطت عــلى الارض ، لم يرنى الواد الاسترالى فأستأنف سعيه خلف هلال !

ولقد قمت بعد ذلك احجل كالغراب الى لوكاندة بسطا • وعندما التقيت بهلال ضحكت حتى كدت اموت بالاختناق • فقد كان منظره يضحك الارمل •• وجهه شــوارع ، وبدلته تحولت الى هرابيد والدم يغطى كل جزء فى جسمه • ثم ياللهول هلال افندى المدرس الثانوى يبكى !! وقضينا الليل فى قسم البوليس ، ورغم اننا ذهبنا الى البيكاديللى فى صــحبة احد الضباط الا ان الولد الاسترالى رفض ان يذهب معنا الى القسم وفى النهاية كاد يعتدى على ضابط البوليس نفسه !

ولم أر هلال منذ تلك اللحظة لااعرف اين ذهب ولا ادرى اين ذهبت به الايام ! ولذلك كتبت انا موضوع الاسماعيلية ونشر الموضوع بأســـمى وفى تلك الليلة التى علمت فيها ان اسمى سيكتب فى الجريدة الكبرى ظللت ساهرا حتى الفجــر فى محطة الســـكة الحديد
انتظر الجرائد حتى تصدر • وعندما حصلت على نســخة من الجريدة • توقفت تحت عامود نور اقرأ المقال واقرأ اســمى ، ورغم ان اسمى كان أسفل المقال وبالبنط ٩ الذى لا يرى الا بصعوبة ، فقد احسست بلذة لم اشعر بها فى حياتى ، لاقبل ذلك ولا بعد ذلك • ورحت اقرأ المقال عدة مرات ، فأحسست بأننى أكاد أهم بالطيران واحلق فى الجو • ثم رحت اتمشى نحو الجيزة واثناء المشى رحت التهم المقال ! وجفا النوم عيونى تماما فظللت ســـاهرا حتى سقطت فى المســاء مغمى على • رغم اننى تقاضيت على المقال ثلاثة جنيهات ، الا اننى اعتبرت نفسى من كبار الصحفيين ! ورحت اتردد على نادى العوالم فى آخر الليل حيث كان يسهر هناك بعض الفتوات وبعض الصحفيين وبعض الفنانين !

وكانت الانتخابات في عنفوانها ، واخبار اليوم نشن حملة صحفيةعلى حزب الوفد أفقدت حزب الوفد نفسه الثقة في نفسه! واتهمت الحزب بالفساد والرشوة واتهمت رئيسه بكل ما يشين الرجال .. وانتهت الى أن الجماهير قد انصرفت عن الوفد الى أحزاب الملك والاقلية .. ولكن نتيجة الانتخابات كانت مذهلة .. فقد اكتسح الوفد جميع الدوائر ، وانضم الشعب بجميع طوائفه الى حزب الوفد ، وعاد النحاس الى الحكم ، وأصبحت الجريدة اليومية الكبرى منتدى لرجال السياسة والحكم والفن !

وأصبحت سهرتي كل مساء في حديقة دار الجريدة .. ومن خلال هذه السهرات تعرفت على فنان مصري متشرد وأصيل ، ونموذج لن يتكرر ، حياته تكاد تكون متشابهة مع حياتي مع فارق واحد هو أن حياته أعرض وأخصب ، ولقد توثقت الصلة بيني وبينه بسرعة .. ومن لحظتها ونحن أصدقاء ، ولقد صاحبته أحيانا وخاصمته أحيانا ولكنني أحببته دوما . ولقد أحببت فيه شجاعته وانفعاله الدائم وقدرته الفذة على مواجهة المشاكل وطاقته التي بلا حدود ، واقتحامه لأصعب المسائل ببساطة المقامر الفنان .. وكان الرجل وقتئذ صاحب ألمع الاسماء في الحقل الادبي ، وكانت برامجه في الاذاعة سريعة الانتشار وكان صاحب صيت يدوي كالطبل في أنحاء مصر والعالم العربي .. وفي أول ليلة سهرت فيها معه أنفق أكثر من عشرة جنيهات ... ثم اقترض مني عشرة قروش ليدفع أجر التاكسي ! وربما لهذا السبب أحببت عبد الرحمن الخميسي وصادقته . ولأنه كان متفائلا رغم ظروفه السيئة .. لا يبالي بما سوف يحدث غدا رغم أعبائه المالية الضخمة .. وفي تلك الايام كان الخميسي غارقا لشوشته في حب شجرة ، ثم تحول عنها الى حب طالبة في الجامعة ، وكان يبكي كلما تذكرها ، ثم يعكف وحده أحيانا لتأليف قصائد غزل في الحبيب الذي يتبغدد ! ولقد اهتم الخميسي بكتاباتي وأسدى لي النصيحة باخلاص . وأقترح علي مرة أن أكتب قصة .. ولكني زعمت له أنني لست من هواة القصة ، وأخفيت عنه أنني أكتب القصة فعلا ولكني لا أنشرها .. ثم فجأة تحول الخميسي عن مجراه لسبب لا أدريه وتخلى عن أسلوبه الرومانسي

وراح يكتب بطريقة تعليمية أقرب الى الخطابة منهـــا الى الفن الذى كان طابعه القديم ‥ ولم أشعر بالارتياح تجاه أسلوبه الجديد ‥ ولكنه عندما دخل معركة صحفية مع محمد التابعى حول الفن والعمـــال ‥ ارتحت لرأى الخميسى وان كنت قد أعجبت بأسلوب محمد التابعى ‥ ثم اختفى الخميسى بعـــد ذلك فلم نعد نراه ثم علمنا أنه تزوج ‥ ولكنه قبل أن يفارقنا الى بيت الزوجية كنت قد تعرفت من خلاله على أعداد وفيرة من المثقفين والصحفيين والفنانين ‥ فقد كان واسع الاتصال بالناس ، على صلة صداقة متينة بألوف من جميع الاوساط والطبقات ‥ مولعا بالموسيقى والغناء ‥ ولكن أغرب أصدقائه على الاطلاق كانوا من الذين ضيعتهم الايام ‥ هؤلاء الـــذين حلموا يوما بالمجد والنجاح والشهرة ثم انكسروا أمام التحديات وكان يبث فى هذا النوع من الناس الامل ، ويجدد فيهم الثقة رغم تأكده من أنهم لا يصلحون لشىء ‥ ولكنه كان يســعى دائما لكي يوجد لهم أعمالا مستقرة ‥ ولكن أحدهم رفض كل الاعمال التى عرضت عليه ، وفضل أن يبقى الى جانب الخميسى ولا يزال يتبعه كظله حتى الآن ! ولعل هذه الميزة هى أبرز ميزة فى الخميسى ٠ ميزة المسح بعطف على جراح الفاشـــلين والساقطين فى الحياة ٠

ولكن أبرز رجل عرفته من خلال الخميسى ، كان صـــحفيا وشاعرا وكاتبا وفنانا وظريفا ، وكان رجلا ولا كل الرجال ، وكان مرآة متحركة لمصر تلك الايام ، وكان بعضا من تاريخها وقبسا من روح مصر الذكية القلقة العابثة على نحو ما ‥ وأدركت أن الخميسى ، يحب كامل الشناوى لنفس الاسباب التى أحب من أجلها الخميسى ، ثم علمت بعد ذلك ومن الخميسى نفسه ، أن لكامل الشناوى أفضالا كثيرة عليه ‥ وعند أول لقاء لى مع كامل الشناوى عاملنى بازدراء شديد ٠ وأهملنى بشكل يكاد يكون متعمدا ، وفى اللقاء الثالث سألنى عن مسقط رأسى فلما أجبته ‥ المنوفية ‥ قال مندهشا : أنت أول فنان تنجبه المنوفية ! وعندما استنكرت ذلك بشـــدة ، وعددت له أسماء عشرات الفنانين المشاهير وكلهم من المنوفية ، نظر نحوى فى احتقار ممزوج بالطيبة ‥ وقال وهو يهز رأسه ‥ أنا باقولك فنان ‥ فنان ‥ فاهم ، اللى انت ذكرتهم دول كلهم

شعراء ، وكتاب ، لكن مش فنانين ·· فاهم ·· وعندما لم أتكلم ، قال بصوت خفيض : أنت مش فاهم حاجه أبدا !

لم تكد تمضى أسابيع على عملى فى الجريدة الكبرى حتى صدمت صدمة كبرى فى أحلامى · فلقد كانت الجريدة مجرد بناء أجوف ، وهرم من الرمال الناعمة · وكانت الاوضاع فيها أكثر اعوجاجا منها فى أى مكان آخر · وتعرفت خلال العمل على عشرات من أصحاب الاسماء اللامعة حياتهم أكثر بؤسا من حياتى ، ومرتباتهم لا تكاد تكفيهم ثمن الدخان والشاى · وعشرات من الموهوبين الاصلاء لايجدون حتى هذا الاجر التافه ·

ولكن فى الناحية الاخرى كان هناك عشرات من الهلافيت النافهين كل مواهبهم أنهم أصدقاء صاحب الجريدة وأنهم يسهرون أحيانا معه يقصون عليه أحدث النكت وآخر أنباء المجتمع · ويتقاضون مقابل ذلك مئات الجنيهات باعتبارهم محررين وليس باعتبارهم ندماء ، وأدركت خطر الجريدة التى تستطيع أن تخلق أصناما يعبدها الناس ، وتستطيع أن تخلق من الفسيخ شربات ! وتعجبت أكثر لهذا الجهاز الخطير الذى اكتشفه البشر والذى اسمه الادارة ، والذى يستطيع تحويل الموهوبين الى متسولين ، بينما يجزل العطاء وبسخاء لكل من يستطيع الحصول على اعلان من مدير شركة . ولكل من يستطيع أن يعقد صلة صداقة متينة مع نائب أو محسوب أو شيخ يملك مئات الافدنة وألوف الناخبين تحت أمره !

وكانت هذه القشرة اللامعة من الصحفيين تسهر كل مساء حتى الصباح فى نادى نقابة الصحفيين تلعب القمار وتخسر عشرات الجنيهات كل ليلة · وكان أبرزهم رجل من الاقاليم يملك جريدة أسبوعية تصدر فى الصعيد بينما كان هو مقيما على الدوام فى القاهرة ·· وكان الرجل خفيف الدم كربما الى درجة السفه ·· وكان مشهورا بألوان معينة من الاطعمة المفضلة ·· وكان صاحب نفوذ كبير فى نقابة الصحفيين ·· فقد كان على علاقة وثيقة بسكرتير عام النقابة وكبار الصحفيين وجميع المسئولين فى الصحف · وكان فى استطاعة هذا الرجل السمين الذكى أن يجعل من أى انسان فى مصر عضوا فى نقابة الصحفيين ، وكان دائما على استعداد ليمنح أى انسان شهادة

بأنه محرر فى المجلة الاقليمية التى يملكها فى الصعيد ..
وكان سكرتير عام النقابة على استعداد لاعتماد الشهادة ، وبعد أيام يصبح هذا المخلوق ـ أى مخلوق ـ عضوا بنقابة الصحفيين له كافة الحقوق وليس عليه الا واجب السهرة فى النقابة ولعب القمار حتى الفجر ! والى جانب هذه الشلة المقامرة من أعضاء النقابة كانت هناك شلل أخرى كثيرة أبرزها على الاطلاق شلة أصحاب الصحف الميتة . وكان كل واحد من أفراد الشلة يملك امتيازا باصدار صحيفة ، غير أن هذه الصحف وقفت عند هذه المرحلة فقط ولم تصدر قط .. وبالرغم من ذلك كان أصحاب هذه الصحف يتقاضون مصاريف سرية كل شهر من الحكومة ، ويتقاضون أيضا اعانات شهرية من النقابة ! وكان هؤلاء الصحفيون رغم تفاهة دورهم الصحفى يتمتعون بنفوذ واسع داخل النقابة وكانوا يستطيعون فرض أى مرشح ..
ولذلك كانوا يشعرون حقا بالسعادة كلما حدثت انتخابات جديدة ، فقد كانت الانتخابات فرصة للتهليب ، كما كانت أيضا فرصة للعمل ، والسبب أن حضرات المرشحين وكانوا جميعا من أصحاب الصحف وكبار المسئولين فيها ، يقومون بتعيين عشرات من العاطلين قبل كل انتخابات تجرى لضمان أصواتهم فى المعركة .. وكانت خطابات الفصل تصل الى هؤلاء المحررين فور ظهور النتيجة ليعودوا عاطلين مرة أخرى فى انتظار انتخابات أخرى تفتح أمامهم أبواب الرزق .. ولقد كان أبرز أعضاء هذه الشلة ثلاثة .. أحدهم كان مستشارا صحفيا للخديوى توفيق ، وكان الصحفى الوحيد الذى حضر مذبحة دنشواى .. وقد وصف ذلك اليوم الاغبر بأسلوب ينم عن جهل صاحبه بحقيقة المأساة .. فقد وصف الموكب الرسمى وعساكر الانجليز ، وسعادة قاضى التنفيذ ، ووصف الجلاد أيضا ، وفى النهاية كتب عدة أسطر عن الفلاحين الاشقياء الذين أعلنوا العصيان ضد السلطة الشرعية وضد الحاكم الشرعى للبلاد !..

وعندما تعرفت اليه أول مرة كان فى الثمانين من عمره ..
وكان حريصا على أن يبدو متصابيا وشابا .. واذا صافح انسانا تعمد أن يضغط على يده بشدة استعراضا لقوته التى يتغنى بها على الدوام .

وكان عبد الفتاح الخطيب هو الرجل الثاني فى الشلة .. وكان فى الخمسين من عمره .. قضى منها فى مهنة الصحافة عشرين عاما ، ولكنه لم يمارس العمل حقا سوى شهر واحد وتفرغ بعد ذلك للجلوس فى نادى النقابة مع شلة المعاشات . وكان عبد الفتاح يبدو ممرورا غاية المرارة ، حزينا غاية الحزن شديد السخط على كل شيء .. على الحكومة وعلى الشعب وعلى الصحافة وعلى الفول المدمس وعلى قطار السكة الحديد .. ولكنه لم يتحرك حركة واحدة فى حياته بعد الشعور بالسخط .. وكان يتكلم ويتحرك كأنه زعيم من زعماء الشعب المصرى أجبرته الظروف على الانزواء فى ركن .. وأحيانا عندما كان يلتقى بعشرات من الشبان المترددين على نادى النقابة ، كان يجلس معهم منفوشا كالديك ويقضى الساعات الطويلة يسرد على مسامعهم كفاحه الطويل فى عالم السياسة ، وتجاربه الحافلة فى دنيا الصحافة . وكان دائما على حق بينما كل الآخرين دائما على خطأ .. وكان اذا انطلق فى تلك اللحظات القليلة السعيدة فى حياته فلا أحد فى الوجود يستطيع وقفه ! خصوصا اذا صادق نفوسا بريئة وآذانا صاغية .

وذات مرة حكى لنا كيف نصح رئيس الوزراء سرى باشا بكذا وكيت ولكنه لم يستمع لنصحه .. ومع ذلك فقد أسدى نفس النصيحة لصدقى باشا .. ولكنه لسوء حظه ـ حظ صدقى ـ لم يستمع لنصحه .. وظل يتكلم عن موقفه من الوزراء والبشوات ونصائحه المتكررة لهم دون جدوى . وعندما انتصف الليل كان قد وجه نصائحه لجميع البشوات فى مصر حتى لم يبق منهم باشا واحد لم ينصحه ! ولكنه استطاع أن يخرج من المأزق ببراعة وبعد لحظة صمت وتفكير عميق ، قال عبد الفتاح فجأة لقطيع الشبان البائسين الملتفين حوله : « وعلى كل حال أنا نصحت جلالة الملك ، وانشاء الله هيعمل بالنصيحة » !

ولم أتمالك نفسى فضحكت !! ولكنه كان ذكيا الى الدرجة التى لم تجعله يلتفت الى هذه الضحكة الساخرة الشاخرة من ولد عابث مثلى !

تجاهل الامر كله ومر عليه مرور الكرام .. وعندما نهضنا للانصراف كانت وكسة ولا وكسة دنكرك .. انتحى عبدالفتاح

بالجرسون ركنا وراحا يتهامسان ، ولكن الهمس لم يستمر طويلا ، سرعان ما ارتفع الهمس فأصبح ضجيجا ثم عراكا ثم ضربا بالركبة وبالرأس •• وترنح عبد الفتاح فى أول لحظات الصدام وتمدد على الارض يصرخ ويتوجع • وانتشى الجرسون بخمرة النصر السريع على عبد الفتاح ، وانتابته حالة جنون مريعة ، فهجم علينا يريد أن يتقاضى الحساب منا ويعلم الله لم يكن معناشىء على الاطلاق ، ولولا الفلس الاغبر لما احتملنا أكاذيب عبد الفتاح !

ولقد انقطعت صلتي به بعد ذلك حتى التقينا مرة أخرى فى مجلة الصريح ، وقد تغير عبد الفتاح فأصبح أكبر سنا وأكثر هما ! ولقد حضر ومعه مقال يريد نشره •• ونشرناه فعلا ليس لانه يستحق النشر ، ولكن لان انتخابات نقابة الصحفيين كانت على أشدها ، وكان رئيس تحرير المجلة على رأس قائمة المرشحين ••

ولقد احترنا فى المبلغ الذى يجب أن نعطيه لعبد الفتاح ثمنا للمقال ، وقدرت أنا أن خمسة عشرجنيها كافية لمثل هذا العمل التافه ولكن عبد الفتاح رفض بشدة واستنكر هذه الفعلة كأننى أتيت ذنبا لا يغفره الله •• وعندما سألته عن المبلغ الذى يطمع فيه قال بهدوء ، مائة جنيه !!

وتصورت أنه جن ، لان الدكتور طه حسين بجلالة قدره قد يفكر عدة مرات قبل أن يطلب مبلغا مثل هذا ثمنا لمقال واحد •• ووعدته خيرا وانصرف على أن يعود فى يوم آخر !

وعندما أبلغت رئيس التحرير بالامر على أنه نكتة ، فوجئت بأنه موافق على المبلغ المطلوب ! وأدركت أن المائة جنيه ليست ثمنا للمقال ولكنها ثمن لسكوت عبد الفتاح خلال المعركة !

وأدركت أيضا أن عبد الفتاح يستخدم ذكاءه بذكاء ! وأنه يعلم أن الانتخابات هى فرصته الوحيدة !! وأنه خلال كل انتخابات يسعى كثعبان الغابة ليلتهم خنزيرا بريا أو غزالة ثم ينام يجترها فى هدوء ولمدة شهور حتى تسنح فرصة أخرى !

وكان ثالثهم رجل شديد اللطف خفيف الدم صاحب موهبة حقيقية •• ولو أنه اتجه الى التمثيل مثلا لكان نجما ولا نجيب الريحانى ، وكان كريما ظريفا ساحر الحديث ، سريع النكتة

بارع القفشة ، صاحب ضحكة مميزة ترن كأنهاأجراس كنيسة صباح يوم عيد ..

كان على السايس قصيرا ونحيفا ويرتدى « بابيون » ويضع على رأسه طربوشا ويدخن سجاير توسكانى خبيثة الرائحة الى درجة لاتطاق ! وكان يعمل فى جريدة مسائية ويتقاضى مبلغا لايكاد يكفى ثمن السجاير التوسكانى !

وعندما تصدر الجريدة يبدأ رحلته الابدية مترددا على جميع البارات الفقيرة فى العاصمة .. وكان يطلق على شلته «شلة المشائين » .. وكان شعاره الذى يرفعه من كل بستان زهرة ! اذ كان ممنوعا فيمذهبه أن يتناول أكثر من كأس واحدة فى البار الواحد ! وآخر الليل كان يحضر الى نادى النقابة سكرانا للغاية مبسوطا تماما الانبساط يدندن بأغانى شعبية قديمة . وفى الفجر كان يستقل عربة حنطور وكان يصر على أن يركب الى جوار العربجى ، وأحيانا كان يتولى هو قيادة الحنطور حتى بيته ! فاذا وصل الى البيت كان من عادته أن يقف وسط الشارع وبشائر الصبح تطل من خلف الافق ليقضى حاجته فى الطريق العام !

ولكم سببت له هذه العادة الغريبة مشاكل شتى ! وبسببها نام فى أقسام البوليس عدة أيام وتحررت ضده عدة محاضر .. وأحيانا كان العسكرى الجلف يعتدى بالضرب على الفنان الضائع ..

وعقب كل خناقة من هذا النوع كان يلزم البيت عدة أيام حتى يشفى من جراحه !!

وعندما أغلقت الجريدة أبوابها لم يتخل عن عادته أبدا ، الطواف طول الليل على البارات ، ثم السهر فى نادى النقابة . ولكنه حرم نفسه من لذته الكبرى وهى ركوب الحنطور ، اذ لم يكن يملك فى أيامه الاخير أجر الحنطور من النادى فى قلب القاهرة الى منزله فى مصر القديمة ! وكان يقطع المشوار على قدميه ، ثم يقف وسط الشارع أمام منزله ليقضى حاجته كالعادة ..

وذات مساء ، وكان المساء الاخير الذى شاهد فيه الناس الرجل الفنان فى نادى النقابة .. فقد حضر عم على وكان

سكرانا الى درجة الترنح ، وفى النقابة حفلة ساهرة تضم أصحاب الصحف الاثرياء وكبار الصحفيين المتريشين وعددا من البشوات والوزراء وأصحاب الطين .. وجلس على فى التراس يشرب قهوة سادة ، وبعد أن انتهى من شرب القهوة هم بدخول القاعة التى تشهد الحفلة الانيقة ، ولكن الرجل الطويل العريض الذى يحرس باب القاعة منعه من الدخول لان الدخول بالملابس الرسمية وعاد على الى التراس وجلس يفكر لحظات ، ثم نهض فجأة وخلع ملابسه كلها ، واقتحم الحفل عاريا تماما كما ولدته أمه . وارتاع الوزراء والبشوات وأصحاب الطين وصرخت نساؤهم بشدة لمنظر الرجل الملسوع الذى اقتحم المكان عاريا تماما الا من حذائه وطربوشه . وباظت الحفلة وخرج عم على الى منزله ولم يعد أبدا .

ومات عم على بعد ذلك بأيام ، بعد حياة قصيرة عريضة ذاق فيها كل الوان البؤس والفقر . ولكنه رغم كل شىء كان أحد أبناء الجيل الذى اقتحم غابة الصحافة فى عهدها الاول ، وتعرض لكل أخطارها وذاق كل مرها ، وشرها وبذل دمه نقطة وراء نقطة ، لكى يشيد أصحاب الصحف دورا جديدة ويكدسوا ثروات هائلة ..





١٠

كانت مصر في بداية الخمسينات قد صادفت عهدا من الهدوء والاستقرار لم تألفه منذ بداية الحرب العالمية الاخيرة·وكانت حكومة الوفد فى الحكم ، ومن عجب أن صحف الوفد انهارت كلها فجأة ،وتحول اكبر الكتاب فيها الى نواب وشيوخ،وتحول صغار المحررين فيها الى أصدقاء للشيوخ والنواب الذين كانوا ينتشرون كل مساء فى مقاهى الاوبرا وشارع عماد الدين ·

ولقد كانت هذه هى أول مرة أدخل فيها مثل هذه المقاهى الانيقة ، بزبائنها الاثرياءجدا ، بجرسوناتهاالخواجات ، بسهراتها التى يخسر فيها عمد الارياف مئات الجنيهات كل ليلة فى لعب الطاولة · ولقد كنت أظن حتى هذه اللحظة ان رواد المقاهى كلهم من الصيع ، وكلهم من المقاطيع · حكمة أزلية استقرت فى نفسى ، ربما من خلال رأى أمى فى المقاهى وروادها وفى أول جلسة اكتشفت كم كانت امىساذجة وكم كانت عديمةالخبرة

هاهم ذوات البلد جميعا ينفقون وقتهم فى المقهى يلعبون الطاولة ويشترون أغلى وأندر الاشياء دون أن يتحرك الواحد منهم خطوة · ولقد استرعى انتباهى هذا العدد الهائل منباعة

المانجو والفستق والبطارخ والبطيخ الشمليان الذين يقتحمون المقهى كل لحظة • وكانوا أصحاب فطنة فرغم جلوسنا الى جوار هؤلاء البهوات فان أحدا من هؤلاء الباعة لم يعرض علينا بضاعته وكان البائع الفطن يتجه مباشرة الى البيه الذى معنا وكان البيه يكتفى باختلاس نظرة الى البضاعة فاذا اعجبته غمز له بعينه • وكان البائع يفهم الغمزة فيضع البضاعة جانبا ويحاسب الجرسون • ويمضى !

ولقد احببت هؤلاء البهوات فى اول لقاء وتمنيت ان أعيش معهم ، وفى أخر لقاء علمت ان امى من فلاسفة العصر ، وان هؤلاء البهوات مجرد صياع مثل رواد قهوة امين فى الجيزة مع فارق واحد ، هو ان هؤلاء الصياع أغنى !

ولقد كان موسم القطن ناجحا وحركة انتعاش كبرى شملت كل شىء فى البلاد ، وانتشرت البدل الشاركسكين البيضاء، وكثر عدد مدخنى السيجار وانتشرت نوادى القمار ، وانتعشت البارات وأصبح شارع عماد الدين مثل الحريقة الوالعة • وكل الناس سكارى بالفلوس والفن والانبساط الذى ليس بعده مطلب •

وكان ملك البلاد قد خرج من مصر باسم مستعار يلف شواطىء اوروبا ويستدعى الوزراء ليقسموا اليمين بين يديه السعيدتين وقانون أخبار القصر يلقى معارضة شديدة ،والامة تغلى بالغضب وليس بالثورة ، وعشرات الصحف خرجت فجأة كلها تلعن وتسب فى النظام الذى كان قائما تلك اللحظة ولكن الاحوال رغم ذلك كانت عال والاشيا كانت معدن والناس كانت عايشة

وفجأة ، وقف مصطفى النحاس فى البرلمان ليعلن على الشعب نبأ هز مصر كلها هزا ، وتحكم فى مصيرها لسنوات طويلة قادمة •• وقلب كل شىء فى البلد رأسا على عقب ، وهز كل ركن حتى المقاهى المنتشرة فى شارع عماد الدين وفى الاوبرا • وكان الخبر •• الغاء معاهدة ١٩٣٦ ، ولم تكد تمر اللحظات على بيان النحاس حتى خرجت المظاهرات فى الشارع •• واصطدمت مظاهرة بدورية بريطانية فى الاسماعيلية ، وسرعان ما انطلقت الرصاصات ، واشتعلت النيران ، وسقط الشهداء وأصبحت مصر فى ثورة •

وذات مساء قدر لى ان أستقل اخر قطار غادر محطة مصر الى السويس فى رحلة صحفية • ولكن لم أعد من السويس الابعد

ذلك بأربعة شهور كاملة ·· ولقد كان وقتا قصيرا كالحلم ، ولكنه كان كافيا لان أرى بوضوح شكل المأساة بلا رتوش ، وقبح الاحوال بلاتزويق وان أشم رائحة العفن بلا كمامة ، وان أضع يدى على الجرح المفتوح الذى راح ينزف بلا انقطاع حتى تقطعت أنفاس مصر ليلة ٢٦ يناير المشهور ·

ولكن هذه الرحلة الغريبة التى قطعتها فى قطار يزحف كالدودة فى الصحراء ذات مساء ملتهب من شتاء ١٩٥١ الى السويس ستكون هى رحلة العمر كله ·هأنذا صحفى محترم فى طريقى الى عمل خطير المسئولية فى رحلة خطيرة الاهمية ذات وضع خاص بين كل فترات التاريخ · وفى القطار ضباط بوليس فى طريقهم لقيادة المعارك ، وعساكر بلوكات نظام لا تدرى من الامر شيئا ولكنها تنفذ أمرا صادرا اليها بالتحرك الى السويس · عساكر بطاسات صفيح وعصى خشبية وبلا سجاير ولا نقود ·وفجأة توقف القطار بعنف واهتز بشدة ،وانكفأنا جميعا على وجوهنا ثم تذز البعض ينظر من النافذة يستطلع الامر · وقبل ان نلتقط أنفاسنا صعد الى القطار فصيلة عساكر انجليز بمدافع وأوامر واستسلمنا جميعا للامر الصادر الينا · رفعنا ايدينا فوق رؤسنا وبدأ التفتيش فى حقائبنا وفى جيوبنا ، ولو استطاعوا لفتشوا فى عقولنا ·

لم يكن التفتيش جادا بالنسبة لنا نحن ركاب الدرجة الاولى وبدا واضحا أن الانجليز لا يقصدون الاهانتنا وجرح كبريائنا، أما أمتعتنا وحقائبنا فلم تمتد اليها يد !

ولكن الوضع تغير تماما عندما اقتحم العساكر الانجليز عربات الدرجة الثالثة ، قضوا فيها ساعات طويلة يفتشون كل شبر وكل ركن وحتى الاجسام فتشوها وأجبروا الصعايدة على خلع ملابسهم ، وعندما رفض أحدهم تنفيذ هذا الامر ، ضربه عسكرى انجليزى طويل كالنخلة بمؤخرة البندقية على رأسه فسقط مغشيا عليه · وبعد ساعات طويلة مريرة ، سمح الانجليز للقطار بالتحرك الى السويس ·

كانت المدينة هادئة تماما ، لا صوت ولاحتى همس ، وكل شىء يبدو مكانه كما كان منذ عشرة أعوام عندمااخترقت شارع النمسا فى ذلك الوقت المتأخر من الليل فى طريقى الى لوكاندة فؤاد · ولم يكن فى لوكاندة فؤاد الا سرير واحد فى حجرة مشتركة ينزل فيها « رجل عجوز » على حد تعبير حارس اللوكاندة

ولم أستطع رؤية الرجل العجوز شريكي في الحجرة لانه كان لحظة اقتحامي الغرفة يغط في نوم عميق ولانى كنت حديث العهد بالنزول في اللوكاندات ، ولانها كانت أول مرة فيحياتي أسافر فيها الى بلد بعيد لاقيم فيهفترة طويلة،فقدأطفأت النور ونمت دون ضجة ٠ ولكنني لم استطع أن أغمض عيني الا عندما لاحت تباشير الصباح ، وتصاعدت أصوات الديكة من أسطح البيوت القريبة !

وعندما فتحت عيني كانت الشمس تتوسط السماء ، والجو بديع للغاية وحركة المرور في الشارع تحدث ضجة شديدة ، وأصوات الباعة والزبائن تختلط وتتشابك ، ولم يكن يبدو على الشارع أن حركة غير عادية تجرى حول المدينة ٠ وارتديت ملابسي على عجل ونزلت الى المحافظة لاسأل عن حقيقة الاحوال ، وأدهشني أن كل شيء هادىء وعادى ، واستقبلني المحافظ في مكتبه الفاخر وراح يتحدث عن التدابير التي اتخذها لمواجهة الموقف ، ثم تحدث عن تكهناته بالنسبة للمستقبل ، ومع ذلك لم أخرج من حديثه بشيء ٠

وعندما أستأذنت في الانصراف سألني وأنا عند الباب ٠٠ انشاء الله الحديث بتاعي هينشر امتى ؟

ولم يكن في نيتي نشر حديثه لانه كان غير ذي موضوع ومع ذلك طمأنت سيادة المحافظ الى أن حديثه سينشر في القريب ٠

عندما عدت الى حجرتي في اللوكاندة بعد جولة سريعةفي المدينة ، وجدت الرجل العجوز في الحجرة منهمكا في الكتابة ٠ وكانت فرحتي عظيمة عندما عرفت أنه صحفي ، وأنه موفد من جريدة الاهرام لمتابعة الاحوال في المدينة ٠ وكان هذا أول لقاء لي مع حامد عبد العزيز وتوطدت الصداقة بيني وبينه بعد ذلك ٠ وقضينا معا وفي غرفة واحدة أربعةأشهر كاملة كانت أخصب وأعظم فترة في حياتي ٠ واكتشفت أن حامد عبدالعزيز فنان هجر الفن الى الصحافة ، وأنه بدأ حياته عاشقا للمسرح ، وكتب عدة روايات مثلت على مسارح القاهرة ، وانه دارس للاساطير الشعبية وأنه قارىء ممتاز وذواقة للادب والفن ،ولكن الحياة جرفته ، ومهنة الصحافة أكلت مواهبه كما تأكل الدودة لوز القطن ٠ وأنه رغم كل شيء سعيد وغير نادم ، وان هدفه الوحيد في الحياة هو رعاية ابنائه فقد كان يحبهم الى حد الجنون!

كان قد مضى على وجودي خمسة أيام عندما طرق الفراش

حجرة اللوكاندة فى الساعة الثالثة بعد الظهر ليبلغنى أن شخصا ما يبحث عني ويريد مقابلتي ولم يكد الفراش ينتهي من كلامه حتى اقتحم الحجرة رجل في الخامسة والثلاثين من عمره يرتدي جلبابا فاخرا ويلف لاسة حريرية حول عنقه ويضع عمامة على رأسه ، ويدس يديه فى جيوب الجلباب ٠

وألقى علينا التحية وصافحنا فى ثقة زائدة وضغط على يدى حتى كدت أصرخ ألما ، وقال وهو يقدم نفسه ٠٠ محسوبكم عبوده ٠

كان عبوده متين البنيان ، عيناه واسعتان حادتان كعينى صقر ، ولونهما فى لون العسل المخلوط بالطحينة ، وله شارب نافش ومرفوع من الناحيتين وفى وجهه آثار كدمات قديمة وجرح حديث العهد ، وبعد ان مسح بيده على شاربه ، قال فى هدوء : انت السعداوى لامؤاخذه٠٠صححت له الاسم واندهشت لكلمة لامؤاخذه التى أرفقها بسؤاله ، وهل اسمى فيه عيب يستوجب الا يؤاخذ الانسان من ينطقه ؟!

وقال عبوده وهو يتفحصنى وقد بدا عليه الازدراءلضآلة حجمى ، هوه انت بتاع الصحافة ؟

ولما أجبت بالايجاب ، قال على الفور كأنه أمر يصدره ولا يقبل المناقشة ٠ طيب قوم معايا ٠

مر عبودة وأنا خلفه بجوار حلقة السمك ثم تعداها وعبر خرابة مهجورة تنضح بالقذارة ثم اقتحم بوابة من الصفيح الصدىء واجتاز باحة تنشع من باطنها المياه القذرة ، ثم طرق على باب عشة وصرخ بأعلى صوته عدة مرات ٠٠ ثم سحب مقعدا وجلس أمام العشة ودعانى للجلوس ، وعلى الفور خرج عدة رجال من العشة الصفيح وضربوا تعظيم سلام لعبودة وصافحونى جميعا ، ثم التفت عبودة نحوهم فى لهجة آمرة ٠٠ البسوا وامسكوا سلاحكم عشان اللفندى هيكتب عنكم !

ودخل الرجال الىالعشة ثمعادوا وقد ارتدوا ملابس حربية واصطفوا فى هيئة طابور عسكرى ومعهم مدافع سريعة الطلقات ٠٠ ادوا التحية العسكرية للقائد الذى هو عبودة ، ثم هتفوا هتافا عاليا لم اتبين معناه ٠٠ وبعد أن انتهوا من جميع المواسيم نظرة عبودة نحوى فى خيلاء واشار نحو رجاله وقال ٠٠ دول وحوش الجبال ٠٠ اكتب بقى على كيفك من غير مؤاخذة !

وابتسمت لعبودة ولم اتكلم ، وعلى الفور ضرب عبودة يده

فى جيبه واخرج ورقة بنص جنيه وناولها لواحد من وحوش الجبال وقال فى حزم شديد : هات لنا سمك حفار علشان نتغدى وقبل ان يهم الرجل بالانطلاق قال : بس خد معاك مدفع .

وراح عبودة يوزع المسئوليات على رجاله ، روح انت هات عيش وفجل .. وانت هات لمون ، وانت هات جبنه اسطمبولى وكان يأمر كل واحد منهم .. بس خد معاك مدفع . وعندما انصرف الرجال سألت عبودة .. همه الرجاله رايحين جنب المعسكرات ؟ ولما اجاب بالنفى سألته .. طيب وليه يأخذوا معاهم مدفع ؟ وقال وهو يغمز لى بعينه .. عشان يتوصوا ، اصل دى عالم نخاف متختشيش وفجأة صفق عبودة بيديه وحضر رجل عجوز محنى الظهر ، وسرعان ما غاب داخل العشة عندما طلب منه عبودة أن يجهز المسائل ، ثم عاد ومعه جوزة ومنقد وورقة معسل من أفخر الاصناف ، وضرب عبودة أصابعه الخمسة فى العمامة وأخرج لفافة من الورق السوليفان وفضها بسرعة ثم أخرج من الورق قطعة حشيش قشدها باسنانه وشمها بمزاج وقال وهو يمصمص بشفتيه .. أحسن صنف والى خلق الخلق .. دلوقت هنشرب حاجة نضيفة !

وراح عبودة يحكى وهو يسوى قطع الفحم المشتعلة عن كفاحه ضد الانجليز فى القناة ، ويروى تاريخ حياته كله وأعماله البطولية التى سيذكرها التاريخ بدون جدال .. وعندما انتهى من سرد قصته الطويلة سألته : وعملتوا عمليات ضد الانجليز ؟ ورد فى هدوء : لســـه !

وقلت له وأنا أتفرس المكان كله .. امال امتى هتطلعوا ؟ وأجاب فى هدوء أشد : لما القمر يغيب .

ونظر الى نظرة فاحصة وقال وعيناه مصوبتان فى عينى . أنا تشـوفنى طول ما القمـر طالع .. لما القمـر يـروح ، ما تشوفنيش ، هابقى فى الجبل من غير مؤاخذة .. وهاشيب الانجليز والى خلق الخلق ، على الحرام من بيتى ما هاسيب انجليزى واحد فى بلدى .. ياخبر اسود ياجدعان ، ثم سحب عبودة مسدسا ضخما كان يخفيه فى طيات ملابسه وأطلق عدة طلقات فى الفضاء !

جاء الرجال من الخارج وأكلنا حتى شبعنا ، وكانت الكميات المطروحة أمامنا تؤكد بعد نظر عبودة .

فقد بذل الباعة بسخاء من أجل خاطر المدفع الذى حمله كل

رجل وهو فى رحلة البيع والشراء ! ٠

ولقد مضت أيام طويله بعد ذلك ، وغاب القمر وطلع القمر أكثر من مرة ، ومع ذلك لم يختف عبودة ، ولم يلجأ للجبال ! ظل مكانه فى الخرابة الى جانب عشة الصفيح يدخن الحشيش ويأكل السمك الحفار ويستعرض جيشه داخل الخرابه ، ولم يكن فى السويس أى نوع من أنواع الحركة ضد جيش الاحتلال ، وكانت الحياة تدور داخل المدينة بشكل عادى دون أى تغيير ! الرجال يشربون الشيشة على المقاهى ٠ والانجليز يطلقون النار على الناس حول السويس ٠

وذات جلسة مع حامد عبد العزيز فى اللوكاندة اتفقنا على أنه مادامت المعركه لم تنشب بعد فى المدينة فلا أقل من أن تنشب على صفحات الجرايد ، وفعلا بدأت المعركة الصحفية عن أعمال وهمية للفدائيين داخل السويس ، وهجوم مسلح فى الخيال على معسكرات الانجليز فى الصحراء ، وارتفع التوزيع فاغرى عددا كبيرا من الصحف الى سلوك نفس الطريق ،وبدأت المعركة تأخذ طريقها على صفحات الصحف حتى بلغ عدد القتلى الانجليز عدة ألوف يزيدون قليلا عن عدد الجنود الموجودين فعلا فى منطقة القناة !

ونشطت الصحف فى هذا الاتجاه وتطورت الى شىء مضحك ، عربة كرنب تنسف معسكرا ! قطط مشتعلة بالنيران تقتحم معسكر الطيران فى الشلوفة وتحرق جميع الطائرات ! ٠

وفجأة دخل علينا فى الليل رجل يبدو عليه الادب الشديد يرتدى بنطلون أصفر وقميصا من نفس اللون ويرتدى نظارات شنبر ٠٠ ودعانا الرجل فى أدب جم لمقابلة الصاغ عبد الجبار قائد كتيبة أحمد عبد العزيز وكدت أرقص من شدة الفرح هاهى الكتائب بدأت تفد على السويس ، كتائب محترمة وقادمة من القاهرة من أجل الكفاح ! سنسمع طلقات الرصاص أذن ، وسيسقط العشرات قتلى من جنود الاحتلال !

كان الصاغ عبد الجبار يجلس فى بهو فندق بلير ، ولم يكن يرتدى زيا عسكريا ، ولكنه كان يبدو فى بنطلونه وقميصه والبلوفر الازرق كأنه طالب جامعى على وشك التخرج ! وخلال الحديث الذى امتد ساعات اكتشفنا ان حضرة الصاغ لم يدخل الجيش فى حياته ولكنه كان متطوعا فى حرب فلسطين وانه انعم على نفسه بهذه الرتبة وهو فى طريقه الى السويس ، وان معه

مجموعة من الرجال أغلبهم كان متطوعا فى حرب فلسطين وانهم جميعا على دراية بحرب العصابات ،وقبل ان ننهض عند منتصف الليل قال عبد الجبار ·· بس انا عاوز الصحافة تساعدنى عشان نجمع شــوية فلوس ! ولم نفهم العــلاقة بين الكتيبة والفلوس ·· ولكن عبد الجبار تولى توضيح المسألة بنفسه ·· عاوزين نشترى سلاح ومهمات !

اثار حضور كتيبة أحمد عبد العزيز غيظا شديدا لدى عبودة ورجاله ·· وحضر عبودة فى اليوم التالى وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد كتيبة أحمد عبد العزيز ·· وقال وهو يلوح لنا بقبضة يده ·· ايه الحكاية ؟ هيه السويس مافيهاش رجاله . والا ايه ··· على الحرام ماحد يكافح الا احنا ، وبدا لى عبودة يائسا ومنهارا ومتغاظا ولاشىء بعد ذلك ، هذا الفحل الرهيب الذي بدأ حياته حارس مرمى فى احد نوادى الســويس ثم عسكرى مطافى ثم مقاول لم يلبث أن فشل عند اول عملية قام بها لبنــاء عمارة ، ثم قائدا لكتيبة وحوش الجبال ··· وقف حائرا وســط الغرفة وبصره يتســكع على وجوهنا يريد ان يستشف حقيقة موقفنا من الكتيبة الجديدة ، وفجأة صرخ فى وجهى ·· لازم تكتبوا حاجه عن الكتيبة بتاعتنا من غير مؤاخذة أحنا هننسف خط سكة حديد الليلادى !

احتــدمت المنافســة بين الكتيبتين فى الســويس على جمــع المال والتقرب من نائب سابق كان أقوى وأهم رجل فى السويس تلك الأيام وكان نائب الســويس الوفدى تاجرا طيبا ومنهارا أغلق باب بيته على نفسه وترك الامور تسير كما تشاء وانفرد النائب السابق بالأمر ، وراح يجتمع كل مســاء بالفدائيين فى فندق بلير ثم يسهر مع اصــدقائه يلعب القمــار داخل الفندق حتى الصباح · وكان النائب اياه لونا فريدا من الرجال · كان يسهر كل ليلة حتى الصباح قبل ان تتطور الامور الى ما انتهت اليه مع ضباط الجيش الانجليزى وكبار المسئولين فى المحافظة وكان يربح الألوف وينفق الالوف ، وكان شــعاره اشترى الرجال بالمال · ولم يحدث ان فشل قط فى تطبيق هذا الشعار وكانت اعماله مرتبطة ببقاء الانجليز فى المنطقة وعنــدما تطورت الامور الى الثورة المسلحة القى بنفسة فى احضان الفدائيين ، يمدهم بالمال والسلاح ولكن بشرط ان ينفــذوا تعليماته وان يأتمروا بأوامره ! واصــبح زكى وليس هذا اسمه هو محور

الكفاح والنضال فى السويس ولقد كان لقائى به أول مرة ،ذات مساء فى فندق بلير •عندما هجم علينا الجرسون يحمل ثلاثة أقداح ويسكى على حساب زكى بك الذى أقسم أن نشرب على حسابه حتى الصباح • ولم يلبث ان انتقل بنفسه الينا ، وجلس معنا يتحدث طول الليل عن موقفه من المعركة ثم رأيه فيما ينبغى أن تكون عليه الاحوال وكان رأيه أن الانجليز أساتذة فى السياسة ، وعلى من يريد أن يحاربهم أن يستخدم هذا السلاح وان الثورة المسلحة ضد الانجليز لن تؤدى الى شىء الا الفوضى والخراب ، وغمز حكومة الوفد القائمه وقتذاك ولمح بالفساد والرشوة المتفشية فى أنحاء البلاد ، وحول المسألة من حرب تحرير الى كفاح ضد الفساد • وقبل أن ننهض لننام قال كأنه يتوسل •• خدوا بالكوم الواد عبودة ، دا عبوده زعلان قوى ، لازم تكتبوا عنه كلمتين ! وكانت هذه أول اشارة الى أن هناك علاقة ما بين عبودة وزكى بك ولكن ماهى حقيقة العلاقة علم ذلك عند علام الغيوب •

ولقد أصبحت منطقة القناة مسرحا لنشاط الغالبية العظمى من الصحفيين بعضهم اجتذبته المعركة ليفوز بزجاجات الويسكى الرخيصة ، وخراطيش السجاير الارخص • وبعضهم جاء ليحقق على الورق بطولات وهمية ، وكانت حصيلة المعركة فى النهاية ٨٠٠ قتيل وعدة ألوف من الجرحى ولم يخدش صحفى واحد مع انهم جميعا كانوا على مقربة من المعارك وكانوا مع الفدائيين وسط الحديد والنار ••

ولكن قبل أن تحترق القاهرة وقعت فتنة فى السويس كادت تؤدى الى كوارث رهيبة • واتفق الصحفيون جميعا على عدم نشر أى شىء حول الموضوع • ولكن المصور نقضت الاتفاق ونشرت الموضوع كاملا بالصور • هل كان الامر مصادفة • أنا أقول لا ، بل كان الامر متفقا عليه • ولعبت مجلة المصور هذا الدور الغريب ، ولكن الامور ـلحسن الحظ ـمضت فى هدوء • وصحيفة أخبار اليوم ايضا نشرت قبل ان تنتهى المعركة بأيام قصة جلالة الملك المفدى الذى كان يتمنى أن يهب المعركة بعض أبنائه، ولما كان لايملك أبناء يقدمهم للمعركة ، فقد اكتفى بتقديم عدة الاف من الجنيهات • ووزعت أخبار اليوم المبلغ على عبودة وكتيبة أحمد عبد العزيز وبعض اللصوص وتجار الحشيش فى القناة • ثم احترقت القاهرة • وتوقفت المعركة فى السويس

واضطررت الى الابحار من السويس على ظهر المركب تالودى ولم اغادرها الا فى الاسكندرية · والسبب ان زكى بك وعصابته أتفقوا مع ضابط كبير بسلاح الحدود على قتلى فى الطـــريق الصحراوى ،وفى ليلة ١٨ فبراير عام ١٩٥٢ صعدت على ظهر المركب تالودى القادمة من عدن · وكان معى كامل سالم مأمور السويس والصاغ زكى جبران واليوزباشى محمد عسل قائد بلوكات النظام · ولم يغادروا المركب الا بعد ان تحركت ودخلت قناة السويس واطمأنوا الى اننى قد أصبحت بعيدا عن قبضة زكى بك وعصابته ·

عندما عدت الى القــاهرة قادما من الســـويس كانت أغلب الصحف الوطنية قد توقفت عن الصدور · وكان أغلب كتاب هذه الصـــحف فى الســـجون والبعض الآخر يطارده البوليس السياسى ، ومصر كلها تنام من المغـــرب بالامـــر ، والرصـــاص الشارد يدور فى سماء المدينة حتى الفجر ، وحصل الصحفيون وأنا منهم على تصاريح بالتجول فى الليل · وكانت فرصة ليجتمع أصحاب التصاريح فى دار النقابة ليلعبوا القمار للفجر · · وبالرغم من ذلك فلابد أن نذكر للحقيقة والتاريخ · أن الصحف رغم ضعفها ، قد استطاعت خلال عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ أن تدق آخر مسمار فى نعش العهد الملكى ، فقد تقدم عدة أفراد يحملون المعاول وهات ياهدم فى النظام القائم · فتحى رضوان واحمد حسين واحسان عبد القدوس واحمد أبو الفتح وأبو الخير نجيب وابراهيم شكرى وحلمى سلام · وخلال تلك الفترة أيضا نشر مأمون الشناوى زجله الشهير :

ياترسملونا ياتبلشفونا
ياتموتونا وتخلصونا
ملعون أبوكو على أبونا
احنا اللى نشقى
ونبص نلقى
خراب وسرقة
من عند برقة
لحد سينا

وفى تلك الفترة ايضا نشرت كلمة قصيرة فى مجلة الملايين عن حيدر باشا قائد عام الجيش المصرى وقلت فيها بالحرف الواحد « ويضعه الخبراء العسكريون على رأس جنرالات الحرب فى العالم

وعلى رأسهم جنرال موتور وجنرال اليكتريك »

ولكن ذلك العهد الذهبي للصحافة كان قد انتهى الى الابد ، وأصبحت الصحف تحت الاحكام العرفية حافلة بالكلام الفارغ، وانتعشت دار الهلال لانها لاتنتعش الا فى ظل الرقابة والحكم العرفى ، وانتعشت الاهرام أيضا لانها كانت دائما على الحياد بين الشعب والحكومة · وبدا واضحا أن أخبار اليوم على صلة وثيقة بالحكم الجديد وهى التى رفعت شعار التطهير ، وهوالشعار الذى جاء بالهلالى باشا الى لاظوغلى ·· مقر رئيس الوزراء ·

هكذا كانت الحياة تغلى فى البلاد بينما مجلة النداء تنام فى واد آخر بعيد · المرتبات أصبحت تتعثر كأنها سيارة تمضى على طريق صعب ملىء بالحفر والمطبات، ثم راحت تتضاءل كأنهاغيط قطن نزلت عليه الدودة · وتولى منصب مدير التحرير فيهـا صحفى داعر اقترح ضمانا للسلامة وحتى تنكشف الامور اصدار أعداد خاصة عن المدن الهامة فى مصر ، لتكون وسيلة للحصول على أكبر عدد ممكن من الاعلانات ووقع الاختيار على العبد لله للسفر الى بورسعيد مع مندوب اعلانات اسمه عبد البصير · وكانت مهمتى هى تحرير موضوعات عن الميناء وقناة السويس ومراكب الصيد وشاطىء بورسعيد بينماراح عبد البصيريسرح فى المدينة لجلب اكبر عدد ممكن من الاعلانات والفلوس ·· وبدلا من ان نقضى عشرة أيام كما اتفقنا قضينا شـــهرا كامــلا على الشاطىء نأكل الكابوريا والسمك المشوى ، ونستحم فى البحر وننفق عن سـعة كأننا من أفراد عائلـــة المرحوم أغا خان · كان عبد البصير هو المسئول المالى عن الرحـــلة ، الحق أنه كان كريما الى حد الســـفه ، وكان ينفق بجنـون كأنهـــا آخر رحلة لنـــا فى العمر ·· ولم أسأله أنا عن مصــدر الفلوس ولم أهتم بهذا الموضوع على أى نحو ! وكان عبد البصير نموذجا غريبا فى دنيا الصحافة · كان مدرسا الزاميا فى احدى قرى المنوفية قبل أن يهجر قريته ويلتحق بوظيفة مندوب اعلانات بمجلة النداء ، وكانت واسطته نائب وفدى طيب اسمه أبوالعنين جعفر ، يرحمه الله ، وكان عبد البصير يدق عصفورة على صدغه الايمن ، واشجارا ونخيلا على كف يده وكان شديد الذكاء يعرف كيف ينفذ الى قلب العميل ببساطة · وكان يدعى أمام زبائنه من التجار والبقالين أنه عليم ببواطن الامور ، وأنه وثيق الصلة بفؤاد باشا وأن زكى العرابى باشا لايأوى لفراشه قبل أن

يتحدث معه بالتليفون ٠

ولقد تعـرفت من خلال عبد البصـــير الى رجل ثرى فى بور سعيد اسمه الأيوبى ، كان سمينا وطيبا وجاهلا بدرجة ليس لها مثيل ٠

وعندما جلسنا مع الايوبى على رصيف عمارته الجديدة ، زف الينا بشرى ترشيح نفسه فى الانتخابات القادمة ، ولما زف اليه عبد البصير التهانى بالنجاح والفلاح والنصر المبين ان شاء الله قال الأيوبى حزينا ، بس النحاس باشا مش راضى ، غضبان على ٠٠ أنا قلت أنا مستعد أدفع خمسة الاف جنيه بس يسيبونى أترشح ! وحدق عبد البصير فى الأيوبى ولم يتكلم ، رفع يديه الى أعلى وقرأ الفاتحة وكذلك فعل الأيوبى بدون مناقشة ٠٠ وعندما انتهت الفاتحة قال عبد البصير للرجل ، الحكاية دى خليها على ، النحاس باشـا مش هيمـــانع ، بس ماتجيبش سيرة لحد !

وعقب الأيوبى الطيب : ايه ٠٠ هو أنا عبيط أجيب سيرة لحد٠

ونهض عـلى الفـور ونادى على أحـد الخـــدم وامـره بأن يحضر الخروف والجزار فى الحال ، وأقسم أيضا يمينا أنه لابد أن يذبح الخروف من أجل خاطر عبد البصير ٠٠ وجلسنا فى المساء حول وليمة فاخرة وزجاجات الويسكى بلاحساب رغم أن الايوبى لم يكن يشرب ، ولكن ولد خلبوص كان يعمل مستشارا عنده أسمه جودة هو الذى همس فى أذنه بأن البهوات ــ عبد البصير وأنا ــ لابد نشرب الويسكى مع الطعام ٠

وفى نهاية السهرة كان عبد البصير قد حصل على أعلان بألف جنيه ٠٠ ومائة جنيه فكة لعبدالبصير شخصيا عربون المساعى الحميدة التى سيقوم بها لدى رفعة الباشا لتذليل كل الصعاب التى تعترض ترشيحه ٠

ولكن خلال هذه الفترة التى قضيتها فى بور سعيد وقع بصرى على شىء غريب ورهيب ، مراكب ضخمة تعبر قناة السويس من ناحية الشرق ، وعليها عساكر فرنسيين جرحى وفى حالة يرثى لها قادمين من الهند الصينية ٠٠ ومع هؤلاء العساكر ٠٠ عساكر عرب من المغرب والجزائر وتونس ، أحيانا يهربون من المراكب ويلجئون للسلطات ٠ ولكن السلطات تسـلمهم مرة أخرى للمراكب ٠٠ باعتبارهم جنودا فرنســيين هاربين من الخدمة ، مع أنهم عرب أولاد عرب ، أحفـاد عرب ، ومن دين

محمد عليه الصلاة والسلام ، ولقــد هرب احــدهم وأنا هنــاك واسمه عبد الرحمن ، كان قبل تجنيده أستاذا فى جامعـــة باريس ، وعندما نشرت قصته رفضت حكومة مصر تسليمــه واشتغل أستاذا فى جامعة القــاهرة ٠٠ وأرجو أن يكون فى مكانه حتى الآن ٠

وعدت الى القاهرة بعد شهر حافل بالمتعة والراحة ، وعكفت بعيدا مشغولا ومطهوما بكتابة الموضوعات عن بور سعيد ٠٠

وفجأة ، علمت ان الرجل الطيب عاد من الهند ، وأنه عاد مريضا وحزينا ومفلسا وقلقا على مستقبله كصحفى ابتعد عن الجو عدة أعوام ٠٠

وعندما زرته فى بيت بعض أقاربه وكان قد لجأ اليه حتى يتقرر مصيره ، راح يحدثنى كالمسحور عن عالم الهند الغامض الساحر الفقير العجيب ، مصر بمشاكلها وفقرها لا تساوى قطرة فى محيط المشاكل التى تزخر بها الهند ، وعلى من يريد ان يكتشف روح الانسانية وان يقف بنفسه على مأساة العصر ان يذهب الى الهند ويتفرج بنفسه على مايدور هناك ، وسحرنى حديثه عن الهند وتمنيت أن أذهب مثله الى هناك ٠ ثم حدثنى عن الفن وعن الادب وعن السياسة ، معركة القناة هى أشرف نقطة فى تاريخ مصر الحديث ! العالم كله كان يتابع أنباء المعركة لحظـــة بلحظة ٠

كم كان الرجل فخورا كمصرى ورصاص الفدائيين يخترق سماء الشرقية والسويس ٠

هكذا كانت الصورة فى الخارج أذن ٠٠ يبدو ان الصورة فى ذهنى كانت باهتة لاننى كنت داخل البرواز ، لاننى رأيت عبودة والاسرى الثلاثة وافراد كتيبة وحوش الجبال ٠

هكذا الاشياء لا تبدو قيمتها الا من بعيد ، أو يبدو اننى لا أدرك قيمة الشىء اذا بدا أى نقص فيه ، وقلت للرجل الطيب كل شىء ، تفاصيل الاحداث وتفاصيل المعارك والجهود الشريفة لعساكر البوليس وبعض اللصوص وبعض الرجال الطيبين مثل سعد زغلول فؤاد الصحفى ومدحت عاصم الفنان ووجيه أباظة الطيار وبعض الطلبة الجدعان الذين حملوا السلاح ومضوا الى خط النار وهمست للرجل الطيب بأن فى نيتى ان اكتب كل شىء ، ولكنه نصحنى ألا أفعل :

ستسكب حبرا على الورقة البيضاء ، وستضع حفنة تراب في اناء اللبن ·

هكذا قال الرجال الطيب ، سيأتى الوقت الذى يجب فيه عليك أن تكشف الستار عن كل شىء ، ولكن عليك أن تكتشف متى يأتى هذا الوقت المناسب ·· فاذا أخطأت التقدير فسوف تخدم بكتاباتك قضية الرجعية والاستعمار ·

لقد استمعت الى نصيحته فلم أكتب حرفا الا بعد أن جاء الوقت المناسب ، ولقد جاء الوقت المناسب أسرع مما توقعت · كنت فى المجلة فى المساء وعبد البصير يحثنى على الاسراع فى الكتابة لان العدد الخاص على وشك الصدور ··

وظللت أكتب حتى أغمى على وخرجت من المجلة فى منتصف الليل الى البيت فى الجيزة سيرا على القدمين ·

وعندما استيقظت من النوم كانت الساعة الحادية عشرة صباحا وعلمت ان الراديو مقطوع ولا يذيع شيئا منذ الصباح الباكر وان اشاعة منتشرة فى المدينة أن أنقلابا عسكريا قد حدث ·

وارتديت ملابسى على عجل وخرجت مهرولا الى بيت طوغان ، وكان عند طوغان عدة أصدقاء ·· لااذكر منهم الان الا شقيقه صلاح والدكتور عبد المنعم عثمان المدرس بكلية الهندسة جامعة القاهرة الآن ·

واكد طوغان الخبر ولكن بلا تفاصيل ·

وفتحنا الراديو الميت على محطة القاهرة وجلسنا ننتظر ، كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا واليوم ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ · وكان طوغان فى السادسة والعشرين من عمره وكنت فى الخامسة والعشرين الا بضعة شهور ، وكان الدكتور عبد المنعم عثمان فى الرابعة والعشرين وعدة شهور وكان صلاح طوغان فى مثل سنه ·

مجموعة شباب فى عمر الورد ، حيارى وسط أنواء السياسة المصرية ، ضعاف بلا حول فى مجتمع يدوس بقسوة على الضعفاء ·· غير مؤمنين بما هو كائن ·· ولكن ليس لدينا خطة بما ينبغى ان يكون ، خلاصة القول ، أننا مجموعة من الوطنيين نحب الوطن المريض ولكن ليس لدينا وجهة نظر بشأن علاج هذا الوطن الذى أشرف على الهلاك المبين !

وفجأة ··· عادت الحياة الى الراديو الميت · وانطلق صوت أنور السـادات يعلن للناس قيام الثورة ، وصرخت من أعماقى

كالمجنون ، وخلعت فردة حذائى وقبلتها من شدة السرور والحبور لماذا ؟ وكيف ؟ والى أين ؟ أسئلة لم يكن لها جواب فى رأسى ٠٠ ولم يكن الجواب عنها مهما على الاطلاق ، المهم أن الاحوال قد أنقلبت رأسا على عقب ، وهذا كل ما كنت أتمناه ٠

أهم من هذا ان أنور السادات هو الذى يذيع البيان ، هذا الرجل الذى نعرفه ! فقد كان يتردد على كازينو شهريار فى الجيزة يشرب فنجانا من القهوة مع صديق أسمه حسن عزت كان طيارا فى تلك الايام ٠

وذات مساء حضر فى ملابس مدنية وجلس مع طوغان ثم أنضممت اليهم ، وراح يتحدث عن الاوضاع فى البلد ، والجنون الذى يتخبط فيه النظام ، ثم نهض وانصرف ونهضنا معه حتى ودعناه عند الباب ، وسألت طوغان ونحن نجلس حول المائدة ٠

مش دا ضابط فى الجيش ؟ وأجاب طوغان بالايجاب ، فسألته ٠٠ طيب أمال ليه بيقول الكلام ده ؟ وكان غريبا فعلا ان يجاهر ضابط جيش بعدائه للنظام ، وقال طوغان بطريقته وهو يضرب راحة يده الشمال بقبضة يده اليمين ٠٠ يابنى لو حصل حاجة فى البلد دى يبقى الراجل ده فيها ٠٠ وضغط على « الراجل ده » بشدة ! ، ولم أهتم بكلمات طوغان كالعادة ٠٠ ولكنى عدت فتذكرتها تلك الساعة ٠ وقمنا يعانق بعضنا بعضنا ، ثم هرولنا جميعا نحو الشارع ٠

وهكذا أصبحت مندوبا للمجلة فى القيادة العامة ، فقد استقبل أصحاب المجلات الرجعية الحركة الجديدة بقليل من الترحيب وكثير من الحذر ٠ وأرسلوا أقل المحررين شأنا ليتفاهموا مع ٠٠ حركة الضباط ٠٠ ولما كان هذا الوصف ٠٠ أقل المحررين شأنا ٠٠ ينطبق على العبد لله ، فقد أصبحت واحدا من طقم مندوبى القيادة ! ولما كانت مجلة النداء ليست فى حاجة الى اخبار ، ولما كنت أنا الآخر لاأهتم بهذا اللون من العمل الصحفى على الاطلاق ٠٠ فقد اكتفيت بالجلوس على باب القيادة أتفرج على الزوار والمترددين على مقر السلطة الجديدة ولم يكن جهلى بما يجرى فى داخل القيادة أقل من عدم اهتمامى بهذا العمل الجديد ٠٠ فلقد كان محمد نجيب يبدو فى الصورة على أنه زعيم الثورة ، بينما كانت الشفاه تهمس بأسماء أخرى وتؤكد أن أصحاب هذه الاسماء هم القادة الحقيقيون للثورة ٠٠ ولكن أنا شخصيا كنت قد وصلت الى قرار فى هذا الشأن وهو

آن أنور السادات هو زعيم الثورة ، هو الذى اذاع البيان وهو الذى رأيته بعينى رأسى يجلس فى كازينو شمهر يار يلعن سنسفيل جدود العهد البائد !

ويوم خروج الملك فاروق من مصر خلعت قناع الوقار الذى أرتديه أحيانا كصحفى ووقفت أرقص عشرة بلدى فى ميدان عابدين وسط الجموع الحاشدة بينما كانت الدبابات تحيط بالقصر الملكى من كل ناحية . ولاول مرة أشعر أننى لا أخشى الدبابة . لقد كان منظرها دائما يبث الرعب فى نفسى ، حتى يوم قيام الثورة شعرت بنفس الخوف وأنا أتجول فى شارع قصر النيل لان الراديو كان قد حذر من التجمهر فى الشوارع . وعندما نسينا هذا الانذار فى غمرة الفرحة ووقفنا أكثر من عشرين شابا تحت عمارة الايموبيليا نتكلم بصوت عال للغاية ، اقتربت منا عربة مصفحة وأمرنا الضابط بالانصراف .. وانصرفنا فى سكون حتى انصرفت العربة المصفحة ، ثم عدنا الى التجمهر من جديد وفى نفس المكان . ولكن عسكرى الدورية الطيب أقترب منا وقال فى لهجة ناصحة «ياللا يافندى أنت وهو ممنوع الجمهورية » !

كانت الثورة فرصة للعبد لله لكى يشرع قلمه من جديد ليكشف كل شىء دار فى السويس خلال معركة القناة . وعندما تعرضت لرجل هناك يدعى سيد السايس وهو ثرى أمثل بدأ حياته سائسا فى جراج ثم انتهى صاحب جراج ودار سينما ومتعهد للجيش البريطانى .. وفى حرب التحرير عام ١٩٥١ اشترك فى المعركة ووضع جميع سياراته فى خدمة الفدائيين ، وكانت السيارات تدخل المدينة كل يوم تحمل شحنات الاسلحة المهربة ، هكذا كان سيد السايس يزعم ، غير أن الحقيقة كانت عكس ذلك ، فقد كانت سيارات السايس لاتحمل فى الواقع الا شحنات الحشيش ! وفوجئت فى العدد التالى لنشر الموضوع بخبر صغير فى الصفحة الاولى « فصل محمود أفندى السعدنى من وظيفته بالمجلة » هكذا تحولت بخبر من سطرين الى أفندى مفصول من وظيفتى بالمجلة !وعلمت بعد ذلك ان سيد السايس حضر من السويس ودفع ألف جنيه مقابل نشر اعلان وبشرط فصلى من المجلة .

وما كان أسهل الفصل فى تلك الايام . وبينما كان يلمع على سطح الحياة الصحفية عدة افراد من الكتاب كان يعانى المئات

من المخبرين والمحررين الصغار القلق والعذاب والطـرد الى الشارع وبلا مكافاة على الاطلاق . حتى مرتب الشهر الذى اشتغلته لم أقبضه !

وهكذا عدت والثورة لم يمر عليها سوى شـهر واحد الى الشارع عاطلا مفلسا ولكن بأمل جديد .. أن الامور لن تلبث طويلا حتى تعود الى الوضع الطبيعي الذى ينبغى أن تكون عليه! ولم لا ؟ وأنا من جيل الثورة .. هؤلاء الكتاب الكبار تعفنوا تماما وتورطوا فى النظام الملكى حتى أصبحوا جزءا لايتجزأ من النظام . الصحفى الكبير الذى كان كل مجده فى الحياة أنه يرافق جلالة الملك فى رحلاته للخارج ، والذى تلوك الالسنة سيرته على أنه كان يوما ما عشيقا لجلالة الملكة الام ! والصحفى الكبير الآخر الذى كان يجلس على مائدة الملك ليضحكه حتى يستلقى الملك على قفاه .. والصحفى الكبير الثالث الذى أراد الملك أن يمزح معه فدفعه الى حوض السباحة وهو فى كامل ملابسه .. ثم خرج من حمام السباحة يشكر جلالة المليك (!) على هذه اللفتة الكريمة التى خص بها صاحبة الجلالة الصحافة دون سواها من الهيئات . هؤلاء السادة أصبحوا جميعا بهوات وباشوات وبعضهم يحمل نيشان محمد على ! لابد أن الثورة ستنحيهم عن الطريق لتفسح لجيل العبد لله طريقه فى الصحافة . والاقلام التىسبحتفى بحر النفاق لجلالة الهلفوتالذىيتربععلى العرش لابد ستتوارى الآن خزيا عن أعين الشعب !

ولكن .. ما أغرب الحياة . نفس الأقلام هبتتفاتلمنمواقع الثورة وكانها هى التى صنعت كل شيء وراحت هذه الاقلام تكتب بشراهة عن مجون الملكوجنونالملك ، والملكعلى الشاطىء الاخر من البحر الابيض المتوسط .



١١

أخيرا تأكد أصحاب هذه الاقلام أن كل شيء قد انتهى بالفعل فتحولوا الى دوديأكلون من الجثةالتى تحولت الى جيفة وطاف بنفسى المذعورة خاطر كئيب ٠ وهو ان كل شيءسيبقى فى غابة الصحافة على ما هو عليه ٠٠ الوحوش فى الصدارة والموهوبون يتخبطون فى الظلام ٠٠ الى اين أذهب الان وانا مفلس وعاطل وضائع ويبدو انه لم يعد لدى امل فى العودة مرة أخرى الى عالم الصحافة ٠٠ وانا رجل فى اعماقى متشائم وحزين رغم مايبدو على من سعادة ليس لها نظير ٠٠ وعدت من جديد الى مكانى على باب القيادة رغم أننى لم اعد امثل احدا الا نفسى وفوجئت بزميل آخر جاء يمثل المجلة فى دار القيادة ، ولذلك اكتفيت بالجلوس دون ان أسال أحدا او أتكلم مع أحد !

أذن لماذا جلست عند الباب ؟ لا أدرى ٠٠ سوى اننى لم اكن أعرف شيئا آخر أصنعه ٠ على الاقل أنا من هذا المكان اتفرج على عشرات من الاشخاص الذين يصنعون التاريخ فى تلك اللحظات من عمر الوطن ٠ ولكن انا لست من هذا الطراز من الناس الذى يستطيع ان يجلس فى مكان ولا يلفت اليه الانظار

ولكنى من طراز آخر يلفت الانظار رغم انفه ، وأيضا يجر على نفسه المصائب فلقد رحت أقلد محمد نجيب وهو يخطب فى حركات كاريكاتيرية ٠ وكان الصحفيون يلتفون حولى وانا أخطب للجماهير الوهمية المحتشدة امامى ، وجذبت الضجة الوانا أخرى من الناس خارج دائرة الصحافة ٠٠ عساكر وضباط وبعض الزوار ولكنى لم اتوقف ٠ وعيبى الكبير اننى لاأجيد تقدير الاشياء تقديرا حقيقيا ٠ احيانا ابالغ فى تضخيم الشىء واحيانا أبالغ فى تحقيره والناس فى نظرى نوعان ، عدو حتى الموت او صديق حتى النهاية ٠

ولقد كان لى رأى فى بعض مندوبى الصحف فى القيادة ، ورحت اجهر بهذا الرأى فى كل مكان ٠ أحدهم وكان مندوب جريدة كبرى كان مرتشيا ومغامرا وافاقا ٠ وكان له موقف مريب خلال معركة القناة ٠٠ وكان وثيق الصلة بضباط القسم المخصوص وبوليس السراى ٠ وكان يقوم بخدمات فى الظلام لجميع الاجهزة التى كانت تحكم مصر فى العهد البائد وعندما قامت الثورة هرع الى القيادة العامة ، وكان انشط الجميع واعلاهم صوتا ٠ وكان يقف على باب القيادة يرحب بالقادمين كأنه صاحب الفرح ، ويتحدث عن قادة الثورة ، باعتبارهم رفاق الصبا واصدقاء الطفولة ولقد حوكم هذا الصحفى بعد ذلك أمام محكمة الثورة وادين وذهب الى اللومان ليقضى مدة العقوبة ٠

وصحفى آخر بدأ حياته فى حانات شارع عماد الدين ولما انتقل نبض الحياة الثرية الطرية فى مصر من صالات شارع عماد الدين الى صالات الاحزاب السياسية ، انضم الى الحزب السعدى واصبح فتوة للمرحوم حامد جودة رئيس مجلس النواب فلما غربت شمس الحزب السعدى وتولى الوفد مقاليد السلطة انتقل هو الأخر الى حزب الوفد واصبح فتوة لأحد الوزراء ٠ فلما قامت الثورة انتقل على الفور ليعمل فتوة لصاحب مجلة كانت وقتئذ مشهورة بعدائها لكل الاحزاب ولم يجد صاحب المجلة من يرسله مندوبا عنه الى القيادة سوى الفتوة الخاص وكان الزميل أياه يتصرف هناك على أنه عليم ببواطن الامور ٠ وكان حديثه كله يجرى ويدور حول حضرة الصاغ الذى لا احد منا يعرفه على الاطلاق والذى كان زميلنا اياه حريصا على اخفاء اسمه ٠٠ أصل حضرة الصاغ قال كيت ٠ حضرة الصاغ كلمنى النهارده فى التليفون وقال كذا ٠ وكنا اذا سألناه عن الوقت

أجاب .. الساعة كذا لكن ساعة حضرة الصاغ معدمة شوية .
اما الزميل الذى حل محلى فقد كان شأنه اعجب من العجب كان صاحب صالون حلاقة فى سالف الزمان وكانت كل بضاعته فى الحياة وسامة واناقة كأنه مطرب مشهور . ولم يكن فى رأسه أى شيء ولم يكن قد قرأ اى شيء حتى كتب المطالعه . وكان ضعيفا فى الاملاء ، يرسم الحروف والكلمات ولايكتبها . وكان يقسم خلال حديثه بالنهار العظيم ، وحياة دا النهار العظيم والا ينكسر وسطى .. وكان يطلق على دور الصحف وصف محلات . وكان يسأل كل زميل يقابله .. أنت بتشتغل فى أى محل ؟ يقصد جرنال .

وكان دائما يردد عبارة مشهورة .. انا كل ماروح محل الاقيه عاكس زى ما يكون حد عامل لى عمل .. وكان من عادته كل اسبوع كتابة تحليل للموقف السياسى الراهن . ويوم تحرير المقال يذهب الى كازينو أوبرا ويجلس فى التراس ومعه زميل غلبان يطلب له كباب وسلطة طحينة وواحدشاى ويشترى له علبة سجاير ، ثم يجلس هو فى هدوء يدخن الشيشة حتى ينتهى الزميل من عشائه . وعندئذ يطلب اليه ان يكتب لهمقالا لانه مرهق وهو السبب الذى كان يسوقه كل اسبوع . أو مرهك على حد تعبيره هو نفسه . ولقد اخذنى ذات ليلة حارة الى كازينو أوبرا وبعد ان تعشيت وشربت الشاى واشعلت سيجارة وحمدت الله، جذب نفسا من الشيشه ، وناولنى قلم حبر باركر لم اكن قد استعملت مثله فى حياتى ، وقال هيه .. اسمع بقى انا اصلى مرهك ومش عارف اكتب .. أنا هقولك على الافكار وانت بس تعمل شوية انشا بس وحياة والدك تكتبهم كويس . ثم راح على الفور يشرح لى الخطوط العريضة فى السياسة المصرية لكى أصوغها أنا فى مقالى : اسمع .شوف بقى ، هيهالمسألة ايه السفارة الانجليزية زعلانة ، أى كدهوحياة دا النهار العظيم . وهيحصل كده شوية نكد . لكن ربنا يسلم انشاء الله ، واخد بالك ، اكتب بقى . وحدقت فى هذا الرجل الغلبان الذى لو استمر فى صالون الحلاقة فلربما صادف نجاحا لامزيد عليه . ما الذى جعله يهجر مهنته الأولى ويقتحم غابة الصحافة ؟ ما الذى دفعه الى احتلال هذا المكان الذى يوجد فيه الان وما هى مقاييس النجاح اذن وما قيمة الجهد الذى بذله هؤلاء المؤلفون السذج فى تأليف الكتب الضخمة عندليل الرجل

الناجح فى المجتمع وابتسم تبتسم لك الحيـاة الى آخر هـذا الكلام الفارغ وما قيمة هذه العبارات المنمقة الجميلة التى تحتل أغلفة كراريس وزارة المعارف والتى تنصح ، أسهر الليالى فى طلب المعالى والتى تؤكد ان من يطلب العلا يعلى • هذا الصحفى الجالس أمامى يكذب كل النصائح وكل الكتب وكل القيم وكل المقاييس التى تعارف عليها الناس • لم يسهر الليالى ولم يطلب العلا ولم يسع للمكان الذى يشغله الان ، ومع ذلك فقد وجد نفسه فيه • وهو كاتب سياسى يحرر الموقف السياسى فى مجلة ذائعة الصيت ، او الموكف كما كان يسميه •

هل المسألة حظوظ ؟

أم أنه ليس بالكفاءة وحدها ينجح الانسان وانما بالصدفة أحيانا وبالفلوس و •• بأشياء أخرى أغلب الأحيان ••

لقد قرأت مرة لجوركى عبارة على لسان احد ابطاله يقول فيها اذهب الى المينـــاء واشـــتر لنفســك بنطلونا جـديدا انك ببنطلون جديد ترتفع فى أعين الناس ، فاذا سقط عنك البنطلون ، سقطت انت الآخر • اذن بالبنطلون الجديد تستطيع أن ترتفع فى أعين الناس ، وبالشقق و ••• تستطيع ان ترتفع فى الوظائف • ولكن حتى فى مهنة الكتابة ؟

يجوز ان يرتفع كاتب ردىء بهذه الوسائل الى مكانة الكتاب العظام • ولكن ان يرتفع رجل جهول يحتاج الى وقت طويل فى فصول محو الامية • فهذا هو الشىء الذى لا يزال فى حاجة الى تفسير •

ولقد كان الرجل طيبا الى حد انه نصحنى مرة بألا أشغل نفسى كثيرا بالكتابة •• أرحم نفسك شويه ، مانتش شايف طه حسين جراله ايه ، اهو فضل يكتب لحد ماعمى •

وذات صباح من شـهر اغسطس سـلخت الاسـتاذ اياه فى القيادة العامة وسخرت منه بشدة ويبدو أنه وشى بى عند احد الحراس ، لان احدهم جاءنى بعد فترة يسألنى لماذا اتواجد فى هذا المكان ، وفى أى الجرائد اعمل ؟

ولم استطع ان افسر وجودى بالفعل ، ولم استطع اثبات اننى أعمل فى أى مكان • ولكن رجل الحراسة كان طيبا رغم كل شىء فنهرنى بشدة وامرنى بالذهاب على الفور وعدم العودة الى هذا

المكان • وحمدت الله على ان المسألة انتهت عند حد الزجر والطرد ولا شيء آخر •

وخرجت أجرى من القيادة وقلبي يدق بسرعة وبدني كله يرتعش أنا ابن الجيل الذى كان يحلم بهذا اليوم •• يوم ٢٣ يوليو والذى ساهم بجهد متواضع فيه . والذى كان ينتظر ان ينفتح أمامه الطريق لكى يمضى على طريق الثـورة الى حيث تلتقى ارادتها وارادته ، أنا الذى تحولت الى عاطل ومفلس ومطرود أيضا من داخل القيادة ، لاننى فعلا بلا عمل ، ووجودى هنا مريب •

وعند الباب فوجئت بعربة سوداء كبيرة تقف ، وينزل منها الاستاذ الكبير محمد التابعى ، فقد كان على موعد مع محمد نجيب وانا كنت أعرف محمد التابعى معرفة جيدة ، رغـم اننـا لـم نلتق الامرة واحدة ولعدة دقائق لا تزيد •

فلقد كنت مدمنا على قراءة مقالاته • واعترف اننى تعلمت منه الكثير • وانه الوحيد من بين كتاب الصحف الذى بهرنى بشدة وخلب لبى وجعلنى انتبعه كالمجنون ! ياله من اسلوب رشيق وانيق ولاذع كان يكتب به التابعى تلك الايام • وعندما رأيته أول مرة فى عام ١٩٤٨ حين جاء يزور معرض طوغان ، صافحته بحب وهممت ان أقبل يده • هذه اليد التى تكتب مثل هذا الكلام بمثل هذا الاسلوب لابد ان تكون يدا من نوع آخر مختلف • وعندما طلبت منه ان اراه دعانى لزيارته فى أى وقت أشاء !

وصدقت أنا وقبلت الدعوة وذهبت بعد ذلك بأيام الى بيته فى الزمالك ، وصعدت السلام وثبا فقد رفض البواب ان أصعد فى الاسانسير بحجة أنه معطل !

وعندما وصلت الى باب الشقة كنت قد نزفت آخر انفاسى وطرقت الباب بخوف وبأدب شديد • وخرج لى عملاق اسمر من الداخل وسألته عن الاستاذ فقال : موجود •• مين انت ؟

وقلت على الفور وبزهو شديد للغاية : محمود السعدنى •• ونطقتها كأننى أقول نابليون بونابرت أو الجنرال ديجـول او المسـتر تشرشل !

وغاب الرجل دقيقة وعاد ليقول الاستاذ : مش موجود ٠٠ واغلق الباب ونزلت مجروحا اكاد أبكي وأنا أزحف على السلم ثم توقفت فجأة وأخرجت قلما وانتزعت ورقة من جيبى، وكتبت عليها بالحرف الواحد : « تابعى » ان لى قلما كقلمك ولكنه أروع وأرفع ، وعندما يحين الوقت المناسب سأنشر على الناس قصه الذين يسكنون الزمالك ويكتبون عن الناس فى زينهم وحوش بردق٠٠وصعدت السلالم من جديد وهممت بطرق الباب لاعطى الورقه للخادم ٠٠ ولكن لم افعل ٠٠ خشيت أن يضربنى الرجل العملاق ويسلمنى للبوليس فتنزمن جديد أزحف على السلم والورقة فى جيبى ٠ ولعنت نفسى لاننى صدقت الاستاذ وزرته وهاهو التابعى امامى بلحمه ودمه على باب القيادة وانا أيضا على بابها ٠ ولكن ماأبعد الفارق ٠ رجل الحراسة الذى طردنى جاء مسرعا وضرب تعظيم سلام للتابعى ٠ بينمارحت انا ازحف فى شارع الجيش الى حيث لا أدرى ٠

عشرة اسابيع وانا قعيد البيت كالولية الخايبة أكاد أتمزق غيظا بينما مصر تموج بالحياة والحركة ٠ وكانت أمى لاتكف عن النقار والشجار وقد غرقت فى بحر من الغم لان ابنها الكبير قد أصبح عاطلا ٠ وعاد معظم أقربائى يلحون على فى ان استوظف فى الحكومة لاضمن دخلا ثابتا ثم أهوى الصحافة بعد ذلك كما أشاء وفعلا رحت اكتب طلبات لمديرى المصالح استرحم سعادتهم ان يلحقونى بعمل مناسب حيث أنى أعول عائلة كبيرة٠٠وبالطبع لم تجد هذه الطلبات شيئا فقررت السفر الى زفتى حيث كان يعمل احد أصدقائى هناك ملاحظ مبانى ٠ ولا أدرى كيف اقتنعت بان ملاحظ المبانى سوف يستطيع الحاقى بوظيفة مناسبة ٠ وفعلا سافرت فى قطار الصباح الى زفتى وعندما رآنى صديقى الملاحظ لم يبد ترحيبا كبيرا بى وعندما انتهى من عمله سحبنى الى حيث يقيم ٠ واكتشفت أنه يقيم مع ثلاثة من زملائه فى حجرة رطبة عارية من الاثاث ٠ وجلسنا جميعا نحن الخمسة فى صمت كئيب ٠ ثم سحب احدهم حلة ووابور جاز ثم حدثت حركة مريبة فقد خرج احدهم من الحجرة ثم نادى على صديقى الملاحظ ثم خرج الجميع بعد ذلك وتركونى وحيدا فى الحجرة واستمعت وانا جالس فى الظلام والصمت نقاشا عاليا فهمت من خلال الكلمات المتناثرة ان الخناقة كلها حولى ، ومن الذى سوف يدفع ثمن عشائى هذه الليلة ولقد

احتدم النقاش بينهم بينما أصر صديقى الملاحظ على ان يتحمل الجميع ثمن عشائى لانه سبق له ان دفع نصيبه فى عشاء صديق أحدهم مرة من قبل واحسست اننى اذوب من شدة الخجل ، وتمنيت لو انشقت الارض وابتلعتنى كى اتخلص من هذاالموقف الرهيب الذى وقعت فيه ٠ ولا أدرى ما الذى اتفقوا عليه ؟ ولكنهم عندما عادوا استأذنت منهم لحظة بحجة شراء علبة سجاير ٠ وخرجت من الحجرة هائما على وجهى فى حوارى زفتى وفى المحطة اكتشفت ان ما معى من النقود لايكفى لعودتى الى القاهرة بالقطار وفى الدرجة الثالثه !

وعدت الى القاهرة فى الفجر فى عربة نقل محملة بالفواكه ولم تكد تمضى أيام على عودتى حتى مر على فى البيت الصديق الطبيب يوسف فكرى ودعانى للعمل معهم فى جريدة الجمهور المصرى ٠٠ وكان هناك محمد حمدى أول صحفى محترم صادفته فى أول حياتى الصحفية ، وكان هناك أيضا فتحى الرملى وكمال النجمى وطوغان وسعد زغلول فؤاد وابراهيم البعثى والامير المليجى وكان هؤلاء الصحفيون الوطنيون يعماون مع مجموعة من الصحفيين القدامى احدهم كان ينتحل لقب دكتور ٠ وكان يزعم انه وثيق الصلة بالحركات السياسية فى مصر ، فى الوقت الذى كان يعمل فيه سكرتيرا شخصيا للنبيل عباس حليم ٠ وكان على صلة فى الوقت نفسه بعدد من رجال السفارات الاجنبية وكا يحمل مسدسا فى جيبه وكان ياوح به دائما اذا احتدم النقاش بينه وبين صاحب المجلة !

ومحرر آخر عجوز كان يعمل بالصحافة منذ عام ١٩٢٥ وكان على صلة بالبوليس السياسى وسبق له تزوير وثائق سياسية هزت مصر هزا خلال حكم الملك فؤاد ، وكان صابر ــ وهذا اسمه خنزيرا بكل مافى الكلمة من معنى ورغم اشتغاله بالصحافة كل هذا الوقت الطويل الا انه لم يكن قد قرأ فى حياته حرفا فى جريدة او كتاب ٠

وكان الى جانب عمله الصحفى يحترف عدةمهن أخرى ، مستشارا صحفيا لاحد ابناء الدول الشقيقة ٠٠ مديرا لاعلانات أحدى المؤسسات الوهمية ، وكان صامتا دائما ، يبدو فىاحسن صحة على الدوام ٠٠ لا يناقش اى أمر صادر اليه ٠٠ ويتقبل أى اهانة توجه له ويقبل العمل بأى مرتب يعرض عليه ٠

ولقد زاملته مرة واحدة فى حياتى فى تحقيق صحفى عن رجل يدعى ابو المعاطى الفقى كان اكبر تاجر للحشيش فى مصر ويوم الافراج عنه ذهبت مع صابر الى باب ليمان طره وانتظرناه حتى خرج ·· وجلس الرجل معنا على قهوة أمام باب السجن يحكى كلاما يصلح مادة لتحقيق صحفى خطير عن تجارة المخدرات ·

ثم نهض معنا الى قهوة ايزافتش فى ميدان التحرير وطلب لنا افطارا ، ومن عادتى الا اتناول طعام الافطار قط ولذلك اعتذرت ولكن صابر غمزنى فى وركى ثم طلب سجاير رغم انه لا يدخن وارسل الرجل المهرب احد اعوانه فاشترى له خرطوشة سجاير كرافن ثم انتحى به جانبا وهمس فى أذنه بكلام ثم اخرج الرجل شيئا من جيبه ودسه فى يد صابر ·· ثم انصرفنا لكى نكتب التحقيق الصحفى الخطير وفعلا كتبت تحقيقا من واقع كلام الرجل المهرب وسلمته لرئيس التحرير ولكن هذا التحقيق لم ير النور قط ونشر بدلا منه تحقيق آخر بقلم صابر كله تمجيد فى الرجل المهرب واشادة به ونصائح منه موجهة للشعب المصرى الكريم وكأنه الجنرال نابليون وقد فر هاربا من جزيرة كورسيكا ·

ثم علمت بعد ذلك ان هذا التحقيق نشر كاعلان ، وان صابر تعهد بالحصول على مائة جنيه أجرا للنشر ولكن عندما طالبته المجلة بالدفع اعتذر المهرب لانه دفع عشرة جنيهات للاستاذ صابر وهو كل ما يستطيع دفعه مقابل نشر هذا الكلام ·

واضطر رئيس التحرير الى نشر مقال آخر بدون توقيع كله هجوم على المهرب وتحريض للبوليس ضده ·· وخصم مرتب شهر كامل من صابر ومع ذلك لم يعترض ولم يحتج فقد كان يحصل على أضعاف مرتبه عن طريق التهديد والنصب ·

محرر ثالث كان شابا وخريج جامعة ولكنه كان طموحا بلا موهبة متطلعا بلا مبادىء وكان يبدو دائما نافشا كالديك ، يتكلم من طراطيف انفه بينما السيجارة ملك مصر ترتعش دائما بين شفتيه ويفتى فى اخطر المسائل باعتباره عليما ببواطن الامور ·

وكان دائم التهديد لزملائه باعتباره وثيق الصلة بكبار المسئولين فى المخابرات وكان صاحب المجلة يكرهه ويطمع فى رضاه ·

ولقد انتهى هذا الشاب المغرور نهاية مفجعه وقاده عدم ايمانه بأى شىء الى كثير من المواقف المشينة ثم ضبط فى النهاية متلبسا بجريمة خلقية تشين الرجل . وقد ترك الصحافة بعد ذلك الى الابد .

الى جانب هذه المجموعه المتنافرة المتباينة كان يعمل الصحفى اياه صاحب صالون الحلاقة . والاخر الذى كان فتوة فى صالات شارع عماد الدين .

وعندما ظهر أول أعداد المجلة طرد محمد حمدى بن حسب الله بلا شفقة ، وتم تخفيض جميع المرتبات .. وتناقص مرتب العبد لله من ثلاثة عشر جنيها الى عشرة جنيهات .. وجاء سكرتير تحرير جديد أفتى بأن عصر المقالات قد انتهى ، وان الصحفى الجيد هو المخبر الجيد .. وان الشهر القادم سيكون امتحانا لكل العاملين بالمجلة .. فالذى يحصل على أخبار جيدة سيبقى ، والذى يفشل سيتوكل على باب الله ! ولقد وفقت بطريق الصدفة فى الحصول على أخبار غاية فى الخطورة والاهمية ، وأصل الحكاية أننى كنت فى زيارة لمجلة الدعوة التى كان يصدرها صالح عشماوى أحد أقطاب الاخوان المسلمين الذى كان فى خلاف مع الجماعة !

وبينما كنت أجلس فى الحجرة فى انتظار طوغان الذى كان ينشر رسوما هناك ، دخل الحجرة افندى منظره يوحى بأنه خواجا وانه غلبان وانه لم يخلع هذه البدلة منذ عشرة أعوام على الاقل !

وجلس الرجل مترددا كأنه يدخل المكان أول مرة ، وعندما سألته عما اذا كان يريد احدا ، ابتسم فى هدوء وقال أنا محرر هنا !

وبدا من لهجته أنه خواجا فعلا .. وازدادت دهشتى أكثر عندما علمت أنه يهودى أيضا وانه فعلا يعمل محررا فى مجلة تنطق من بعيد بأسم الاخوان المسلمين !

وقال الرجل الخواجا وهو يبرر لى هذا الموقف ، أنه كان على صلة بالمخابرات البريطانية وأنه يعرف اسرارها جيدا ، وانه يعلم كل حركات وتحركات الجيش البريطانى فى القناة ، وتأكيدا لكلامه أطلعنى على الاخبار التى حصل عليها لتنشر فى أول عدد من الدعوة .

وكانت الاخبار ــ لو صحت ــ هامه فعلا وخطيرة ، تنقلات بين كبار رجــال المخــابرات البريطانيــة فى مصر ، تأجير عشرين شقة فى القاهرة لعملاء المخابرات البريطانيه ٠٠ وصول طائرة شحن ضخمة الى قاعدة أبو صوير البريطانية وعليها شحنة من الاسلحة الذرية ، هل هذه حقائق أو أوهام أم أخبار مدسوسة ؟

أنا شخصيا لم أفكر طويلا فى هذا الامر ، حفظت الاخبار عن ظهر قلب ، وعندما خرجت من مجلة الدعوة أعدت صياغتها من جديد ، وقدمتها لسكرتير التحرير النشـــيط ففرح بها كثيرا وخرجت مجلة الجمهور المصرى وكل عناوينها الضخمه من انتاج العبد لله ، ومع ذلك لم تشفع لى هذه الهمة فى سرقة الاخبار ، فقد فصلت فى نهاية الشهر بحجة اننى غير منتج ٠٠ والسبب الحقيقى اننى لم أكن مؤمنا بعبقرية الاستاذ سكرتير التحرير ٠ ! ولكنى عدت بعد ذلك بشهر واحد الى المجلة وبثلاثة عشر جنيها كل شهر ، وكان فى المجلة مخبر بوليس من قسم الموسكى عين لحراسة رئيس التحرير بعد ان تلقى عدة خطابات تهديد من القراء ٠٠ ولان التهديد لم يكن جديا ، فقد تحول المخبر بعد فترة الى فراش ، ثم تحول الى تاجر مخدرات يبيع لمن يرغب وعلى الحساب ، ولما كانت الرقابة مفروضة وقتئذ على الصحف ، فقد عهد الى المخبر بحراسة الرقيب أيضا ، فاصبح حارســـا للرقيب ولرئيس التحرير فى الوقت نفسه !

وكان رقيب المجلة شيخا معمما ممعودا ثائر الاعصاب على الدوام ، ينتفض اذا تكلم ، ويرتعش اذا صمت ، وكان مدرسا فى الجامعة الازهرية وصحفيا فى الوقت نفسه ٠٠ فلما فشل فى الصحافة أصبح رقيبا على الصحفيين ، وكانت الرقابة فرصة ليفرز عقده النفسية وليضطهد زملاءه السابقين ليس خدمـــة للحكومة ولكن خدمة لاغراضه الشـــخصية ، وكنت أنا أكثر المناوئين له واقدرهم على اثارته ، وذات مرة سافرت الى القناة وعدت بتحقيق صحفى عن القوات البريطانية هناك ٠

وراح الشيخ الرقيب يقرأ ويشطب حتى شطب المقال كله الا عدة سطور ، ولم تكن هناك تعليمات بالشطب ، ولكن الشيخ عثر على فرصة ليغيظنى ، وعندما وصل الى امضائى اسفل المقال قام بشطبه أيضا ، وعندما سألته هل لديه تعليمـــات بشطب الاسم أيضا باعتباره من الممنوعات ، صاح بأعلى صوته

ونادى على المخبر ، وامره بان يطردنى فورا ليس من الحجرة فقط ، ولكن من دار المجلة ٠

ووقف المخبر حائرا لايدرى ماذا يفعل ، فهو صحيح معين لحراسة الرقيب ولكنه فى الوقت نفسه صديق ، ثم بعد فترة ، انسحب المخبر من الحجرة فى هدوء ، وكانت فرصة لابدى رأيى للرقيب عمليا ٠٠ وأضطر فى النهاية الى الخروج جريا الى الشارع والدم ينزف من أنفه واسنانه ٠٠ واقسم ألف يمين اننى لابد ذاهب الى السجن وأننى لن أعمل بعد اليوم فى الصحافة ، ولقد جرى تحقيق معى أمام محمد أمين حماد مدير الرقابة وقتئذ ، ولكن التحقيق انتهى بنقل الشيخ الرقيب نفسه ٠

أولا لانه شطب أسمى ، وثانيا لانه شطب مقالا ضد قوات الاحتلال والتعليمات التى لديه عكس ذلك تماما ، وثالثا لانه شطب فى نفس اليوم خبرا عن ملكة القطن ٠٠ لانه كان يحمل

تعليمات بعدم نشر أى شىء عن سوق القطن فى الاسكندرية !
ولم أعمر بعد ذلك طويلا فى المجلة ، فقد تركتها بعد هذه الواقعة بخمسة شهور ٠٠ وبالتحديد فى مارس عام ١٩٥٣ ، فقد أتصل بى استاذى المرحوم أحمد قاسم جودة وطلب منى ان أقابله فى بار الانجلو ٠

وبعد دقيقة واحدة من اللقاء كان قد عرض على عملا فى جريدة يومية كبرى أسمها القاهرة وبمرتب خمسين جنيها فى الشهر ؟وخرجت من بار الانجلو لاتكاد ساقاى تقويان على حملى ٠

هاأنذا أصبحت محررا مطلوبا وفى جريدة كبرى وبخمسين جنيها كل شهر ! لابد انه حلم من الاحلام ٠٠ أو لابد ان قاسم جودة كان يهذى ! ولكن قاسم جودة عودنى دائما الصدق وكان دائما مثالا للرجل الجاد ، أذن المسألة حقيقية ؟ واذن سيصبح فى مقدورى الان ان أحقق الحلم الذى راودنى طويلا ، وهو أن أصبح مالكا لشقة خاصة ومكتبة وربما سيارة أيضا ، ولم لا ؟ وأنا الان سأتقاضى خمسين جنيها كل شهر ، ولم استطع النوم عدة ليالى متتالية ، واصبح حديثى المفضل هو العرض الذى قدمه لى قاسم جودة والمرتب الذى حدده !

وكنت أحيانا أسرح أكثر من اللازم فأسأل محدثى ٠٠ أيه رأيك ؟ أقبل العرض ؟ هه ، نكته طريفة ، كأننى كنت فعلا مترددا فى قبول العرض ! ولقد تمنيت على الله ان يحفظ قاسم

جودة من كل مكروه ، فقد خشيت أن يناله سوء قبل أن تتم الصفقة ، فى نفس الوقت كانت جريدة الجمهورية قد بدأت فى الاستعداد للظهور ، وانتقل للعمل فيها عدد من الكتاب والمحررين من دور الصحف الاخرى .

وكنت على صلة وثيقة بأحد المسئولين عن التحرير فيها ، ومع ذلك لم يعرض على العمل معه وبأى أجر ، وقد حز الموقف فى نفسى كثيرا لأننى كنت أنا الوحيد الذى وقف الى جانبه من بين كل اصدقائه وعندما طردوه من جريدة الجمهورية قبل أن تصدر بأيام،وفقت فى الحاقة بعمل فى جريدة القاهرة، ثم اشتد على مرض مزمن دخلت من أجله المستشفى .. وانتهز الرجل فرصة وجودى فى المستشفى فاقترح فصلى من الجريدة .. ولكن اقتراحه لم ينفذ ، لانه فصل بعد ذلك بأيام . !

المهم أن قاسم جودة استدعانى ذات مساء لمقابلة مدير جريدة القاهرة ، واكتشفت ان الرجل صحفى فلسطينى قديم ، وانه عديم الخبرة بالصحافة ، وانه استشار عددا من كبار الصحفيين في القاهرة .. فرشح له كل منهم عددا من الصحفيين ، ولم يرشح قاسم جودة الا اثنين فقط ، انا وعلى جمال الدين رئيس تحرير وكالة اورنيت فوتو فى بيروت الان .

وأكتشفت أيضا أن جميع أعضاء نقابة الصحفيين قد رشحوا للعمل فى الجريدة وبمرتبات خيالية .. أحدهم وكان فى سن الثمانين رشح للعمل بمائة وخمسين جنيهافى الشهر ، وذلك لخبرته فى دنيا الصحافة ! مع أن الرجل العجوز كان قد اعتزل الصحافة منذ ربع قرن !

وبعد ربع ساعة خرجت منمكتبمدير الجريدة بعد أنوقعت عقدا للعمل ولمدة عام ، وبمرتب سبعة وثلاثين جنيها ونصفا ! ولا ادرى ما الذى أنقص المبلغ من خمسين جنيها الى هذا الرقم، يبدو أن منظرى وقلة حجمى لم تقنع المدير بأننى سأكون على مستوى المسئولية !

ويبدو أنهفعل نفس الشيء مع الجميع ، المهم اننى خرجت من مكتبه وأنا أسعد أهل الأرض .. وكانتجريدة القاهرة فرصة العمر بالنسبة لى ، وعلىصفحاتها نشرتأول قصة فىحياتى ، ثم نشرت مجموعة قصص كاملة أصدرتها بعد ذلك فى كتاب ،

ونشرت أيضا دراسة عن الظرفاء ، ونشرت دراسة أخرى عن مقرئى القرآن فى مصر وأتاحت لى الفرصة السفر الى مختلف أقاليم مصر ، وعن طريقها تعرفت الى عدد كبير من الوزراء وكبار الموظفين .

فقد كان من مهام عملى فى الجريدة الى جـانب نشر القصص والمقالات ، الحصول على اخبار وزارة الشئون الاجتماعية . وكان أول الوزراء الذين تعرفت اليهم هو المرحوم فؤاد جلال ، وكنت قبل ذلك أعتقد أن الوزراء من طينة اخرى غير طينة البشر .. وكنت اتصورهم مطهومين دائما عصبيين دائما أصحاب سلطة بلا حدود ، وأنهم لا يأكلون الا الصنف المليس ولا يرتدون الا الحرير ولا ينامون الا على ريش النعام .

صورة ساذجة بددتها زيارة واحدة لمنزل المرحوم فؤاد جلال فى الروضة ، وكدت أجن عندما اكتشفت أنه يعيش مثل أى فرد وان فى صالة المنزل ينام بعض أقاربه الذين جاءوا لزيارته من الريف .





١٣

آه من الصحفي الشقى لم يعد شقيا ، العمل الآن مضمون • والفلوس تجرى من بين أصابعة كما الغلة • والحـــارة التى يسكن فيها لم يعد يطيق منظرها : أى هوة عميقة تفصل بين الجو الخارجي والجو الداخلي لحياته • حارتنا مظلمة كقلب الكافر ، قذرة كأنها مقلب زبالة ! مصيبتى الكبرى أننى اصبحت مثل المجتمع المصرى ، مجتمع مثل العملة له وجهان ، ومثل البيوت له واجهة وله خلفية •

الان أنا أسهر فى الفنادق الكبرى وأقضى بقيـــة الليل فى حديقة كوبرى الجلاء ، وأتنزه فى الفجر فى قارب يتأرجـــح على صفحة النيل • وأنا من بين معـــارفى وأصـــدقائى وزراء ومديرين بشوارب وموظفين بمكاتب وأدباء وشعراء ولكن عندما أنفض كل هذه المظاهر وأعود الى البيت فى الصـــباح أشعر كأننى أختنق ، ميدان الجيزة الراكد ، ثم شارع عباس الملىء بالحفر ثم حارتنا التى تفوح رائحتها كأنها جثة ملقاة على الطريق منذ ألف عام ! وتمنيت أن أخرج من الحارة الى شـــارع أوسع والى بيت أحدث • وحاولت اقناع أمى ولكن المحاولة فشلت •

قالت لى أمي وهى تحاورنى . « أسيب بيتى واروح فين يابنى ؟ دا اللى مالوش بيت مالوش أصل !! وهوه بيتنا ماله ؟ دامافيش أحسن منه .. » ولم أعد الى محاولة اقناعها مرة أخرى .

ورحت أعيش حياتى بالمقلوب ، أنام النهار فى البيت . وأسهر الليل فى الشارع . وهجرت قهوة محمد عبد الله فى ميدان الجيزة ولم أعد أتردد عليها الا مرة كل اسبوع . فقد كان يجلس عليها صديقان أثرا فى نفسى تأثيرا عظيما . أولهما هو أنور المعداوى والاخر هو الدكتور عبد القادر القط . ولقد كان أنور المعداوى رجلا من طراز فريد . كان معتدا بنفسه .. وقورا الى درجة التزمت وكان ابن عائلة ريفية مبسوطة من أقاصى الدلتا ، واشتهر فى الوسط الأدبى وهو لم يزل طالبافى كلية الاداب . وهو أول من سلط الضوء على عبقرية نجيب محفوظ فى الوقتالذى انكره فيه كلالنقاد وتجاهله كلمحررى الصحف الادبية . وعندما قامت الثورة كان أنور المعداوى أسعد الناس بها وكان يود من أعماقه أن يشترك فى عمل أدبى كبير ، مجلة ، موسوعة ، قاموس .. أى شىء فى ظل الثورة وفى اتجاهها .

ولكن الشلل منعت أنور من تحقيق أحلامه . ولأنه أيضا كان قليل السعى شديد الأنفة والكبرياء والصلف ، ولكنه كان من عادته أن يحضر الى المقهى فى الرابعة تماما بعد الظهر فيجلس قليلا قبل أن يطلب الشاى، ثم ينادىعلىحميدو ليمسحله الحذاء ، ثم يبدأ الاصدقاء فى الحضور ويبدأ النقاش والحديث .

وفى الثامنة تماما كان ينهض متجها الى فرن افرنجى فيشترى رغيف عيش فينو طويل للغاية وجبنه رومى ، ثم يجلس يأكل ويطلب الشاى ، ثم يعود الى حلقة المناقشة حتى الحادية عشرة مساء ثم ينهض لينصرف ولا يعود الا فى الرابعة من بعد ظهر اليوم التالى . ولقد كان من الممكن أن تسير حياته على هذا النحو حتى يموت ، لولا أن الجهلاء الذين تولوا أمر ادارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم أمروا بنقله مدرسا بمدرسة السلحدار . وجنجنون أنور المعداوى فلم يكن يتوقع أنيحدث له شىء كهذا واختفى لأول مرة من المقهى ثم عاد وقد تهللت أساريره لانه طلب تفرغا من وزارة الثقافة وقد أجيب الى طلبه بشرط أن

يستقيل من وزارة التربية والتعليم • وفعلا استقال أنور من وظيفته ، ولكن طلب التفرغ لم يقبل على الاطلاق • ولقد اراد ان يكون موظفا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب ولكنه لم يستطع • بينما كان المجلس يعج بالعشرات من الجهلاء والكونستابلات ونصابين الأدب ! وأسقط فى يد أنور وضاقت الدنيا به •

• وترك قهوة عبد الله والجيزة كلها الى الدقى ، ووقف بعض الاصدقاء الى جانبه فى محنته حتى عاد الى وظيفته الاولى فى وزارة التربية ، ولكن المحنة الشديدة التى مر بها كانت قد تركت آثارها السيئة فى نفسه فسقط مريضا ولم تقم له قائمة بعدها ومات •

ولو أن أنور المعداوى استطاع أن يأخذ مكانه الطبيعى فى مجلة « الرسالة الجديدة » مثلا ، فلربما صارت المجلة الى مصير غير الذى انتهت اليه •

ولكن أنور المعداوى فشل فى الحصول على عمل فيها بينما وثب على المجلة رجل اسمه عبد العليم كانت كل مهمته فى الحياة قص الصور وتلزيق الورق ونفاق رئيس التحرير ، وعلى هذا الجسر عبر عبد العليم طريقه الى منصب مدير التحرير فى المجلة • ولعل ذلك هو السبب فى اغلاق ابوابها بالضبة والمفتاح •

وأغرب شىء أن عبد العليم كوفىء على هذا الفشل بان أسند اليه رئاسة تحرير احدى المجلات • ولم تلبث هى الاخرى أن أغلقت أبوابها • ولعله اقتنع بعد هذا أنه لا يصلح للصحافة فهجر العمل الصحفى وعاد الى وظيفته الاولى موظفا فى احدى الشركات !

ولقد كانت قهوة محمد عبد الله من القهاوى الشهيرة التى لعبت دورا هاما فى الحياة الادبية فى مصر • وكان صاحبها رجلا عصاميا جاء الى الجيزة من الصعيد ليقف الى جوار محطة السكة الحديد بعربة يد عليها بعض الجوز ووابور جاز وعدة اكواب وبراد شاى وكنكة قهوة • واستطاع بالاصرار والمثابرة ان يجمع بعض المال ، وبهذا القليل استطاع ان يفتح هذه القهوة ، وصارت فى الصباح مقرا لتجار القطن واثرياء الريف الذين

يأتون الى الجيزة لمسائل قضائية أو طبية ، وفى المساء تتحول الى مكان يجتمع فيه كبـار الموظفين والادباء والصحفيين ٠

ولقد ظلت عشرات السنين كما هى لم تتغير ٠ حتى المقاعد التى اهترأت من كثرة الاستعمال لم يكلف عم محمد عبد الله خاطره ليعيد اصلاحها ٠ والحيطان التى تآكل دهانها وتركت التشققات آثارا عميقة على شكل رسوم راحت تتسع يوما بعد يوم حتى صارت كأنها مقصودة وكأنها للزينة ٠٠ ولكن القهوة ظلت تضيق بزبائنها يوما بعد يوم ٠ ومكاسبها تزيد ساعة بعد اخرى ٠ كل ذلك وعم محمد عبد الله رابض كالاسد العجوز خلف الكيس يتسلم الماركات ويقيد الحساب ويراجع المنصرف من كميات الشاى والسكر والجاز ٠

وكان للرجل خمسة ابناء رجال لاعمل لهم الا القهوة ٠ أحمد وكان اكبرهم ٠ قصير وبدين ومهمته الوحيدة هى الطواف على الزبائن وتحية الجميع والسؤال عن المريض ومعرفـة مصير الغائب ٠

وحسن وكان طويلا وعريضا وفى قوة سباع الغاب ٠ كان يحضر كل يوم فى القهوة ساعة العصـارى ، فيفرش بجوار النصبة وينام حتى التاسعة مساء ويقوم من النوم فيشرب الشاى ويدخن الشيشة وهو جالس على الرصيف فى التراوة الحلوة دون ان يفتح فمه بكلمة حتى تغلق أبواب المقهى فينصرف !

ومحمد كان أصغرهم ، ولم يكن يصنع شيئا الا الهنكرة ومشاغبة باعة الموز الذين يحتلون الرصيف المقابل ، والخناق مع ماسحى الاحذية والمتسولين الذين يقتحمون المقهى كل ساعة بالعشرات ٠

اما الشقيقان الآخران فكانا لايترددان الا نادرا ولكى يحصلا على شىء من النقود ٠ ولم يكن أحد منهم يعرف القراءة والكتابة ٠ ولم يكن لأحد منهم مورد رزق ولا عمل يجيده ٠ وكانوا اذا رأوا أباهم قادما وقفوا جميعا وضربوا تعظيم سلام كانهم عساكر بوليس رأوا المأمور فى طريقهم ٠ وكان الرجل يشتمهم امام الزبائن ويلعن جدودهم ويتهمهم بالخيبه والبلاهة ٠ وكان يؤكد لكل رواد القهوة انه لو مات فان كل شىء سينهار وستباع المقهى فى المزاد ٠

ولقد صحت نظرته البعيدة فما ان مرض حتى بدأت القهوة تميل للكساد • وقبل ان يموت بأيام كانت القهوة قد بيعت فى المزاد • وعاد أولاد الرجل العصامى الطيب الى أول الطريق الذى بدأه الوالد العصامى العظيم • راحوا يسرحون بعربة شاى فى الجيزة ، ثم استقروا اخيرا بالعربة عند محطة السكة الحديد !

ولقد تعرفت فى هذه القهوة على عدد من الادباء والصحفيين فى بداية حياتى •

الدكتور عبد القادر القط الطيب المسالم الذى يشق لنفسه طريقا وسطا فى الحياة لكى يجنب نفسه المتاعب • ولكن المتاعب تسعى اليه لانه رغم طيبته صاحب نظرة موضوعية وفكر حر وعلاقات انسانية اساسها الاحترام المتبادل وليس على أساس النظرية المعروفة يابخت من نفع واستنفع !

وشاعر عظيم الشهرة عظيم القدر كان يجلس فى القهوة أغلب الوقت يستحلب قطع الافيون فى هدوء ، وصارت بينه وبين صاحب القهوة صداقة متينة بسبب الهواية المشتركة بينهما • وكان اذا جاء المساء جلس الشاعر الكبير المشهور على كرسى فوق الرصيف ينظر الى الميدان فى ذهول ويظل ساهما حتى منتصف الليل ثم ينهض لينصرف ، وكان المارة الذين يعرفون الشاعر يؤكدون أنه جالس فى حالة تفكير دائم لكى يؤلف شعرا عن الحياة والناس • لم يكن أحد منهم يعرف ان الافيون هو الذى القى عليه هذا الرداء من الهدوء والذهول ، وان تحليق الشاعر لم يكن فى سماء الشعر ولكن فى سماء المخدر !

وأديب آخر كانت كل مؤهلاته ان صحته جيدة • وبهذه الصحة الجيدة استطاع ان يطور نفسه من موظف صغير الى موظف محترم • فقد جلس فى القهوة يلتهم دروس ثانوى ، ثم راح يلتهم دروس كلية الحقوق حتى انتهى منها • وربما ظن الاديب الجيد الصحة ان كل شىء فى الحياة يتحقق بالصحة والعافية والعضل القوى ، فقد جلس فى القهوة بعد ذلك يكتب مسرحيات وقصص وسيناريوهات ثم تزوج بعد ذلك من اديبة فاشلة ومتجبرة ثم انفصل عنها فجأة ووقع فى مشاكل الطلاق

وماجره عليه من حجوزات ومطاردات واستدعاءات لاقسام البوليس ٠

وفى هذا المقهى أيضا تعرفت الى نعمان عاشور ٠ ولقد كنت أعرفه وأنا طفل فقد كنت صديقا لشقيقه الاصغر ٠ وكان نعمان عندما تعرفت عليه فى القهوة يكتب المقالات والقصص القصيرة ٠ ثم كتب رواية ناجحة للمسرح اسمها «المغماطيس»٠ وبدا عليه الانبساط للنجاح الذى حققه ، وقرر عدم العودة الى القصص القصيرة أو المقالات والتفرغ لهذا الميدان الجديد ٠٠ ٠٠ المسرح !

ولقد التقيت بنعمان بعد ذلك فى وزارة الشئون الاجتماعية ٠ وكان يعمل سكرتيرا صحفيا للوزير ، وكنت أنا مندوب الجريدة فى الوزارة ٠ ورغم ان نعمان كان هو الطريق الرسمى الوحيد لمقابلة الوزير الا اننى لم أقابل الوزير قط عن طريقه ٠ فقد كان يجلس فى مكتبه قلقا ومذعورا كان شيئا مجهولا يطارده ٠ وكان لايستقر على مقعده لحظة ، دائم التساؤل عن اشياء غريبة وعجيبة وليس لها أى معنى ٠

وكنت اذا طلبت منه مقابلة الوزير نهض ونظر من الكوة الباب ثم عاد واعتذر بحجة ان الوزير مشغول ٠ ثم لا يلبث طويلا حتى ينهض مرة أخرى لينظر من الكوة ثم يعود الى الجلوس ثم ينظر مرة أخرى من خلال باب الوزير ، ثم يقف فى النافذة ينظر الى الشارع ، ثم يغادر المكتب كله الى الخارج ٠

وكان من عادته اذا رآنا نحن الصحفيين ندخل حجرته اسرع بأغلاق مكتبه حتى لا نسطو على الاخبار الهامة التى فى الدرج ٠ ولكن رغم كل هذه الاحتياطات الشديدة أستطعت أن أسرق من مكتبه مشروع تعديل قانون العمل الفردى ٠

ولقد أحدث نشره فى الجريدة هزة كبرى فى جميع الاوساط، واضطر نعمان الى الاعتكاف فى بيته عدة أسابيع حتى هدأت الضجة ٠

وذات صباح جاء الى الوزارة وزير جديد ومعه صول مهمته الاشراف على سيارة الوزير والسعاة والفراشين ٠ وجاء الصول ليجلس على مكتب صغير فى مواجهة نعمان ٠ ورغم ان نعمان هو رئيس المكتب فقد اصيب بذعر شديد من وجود الصول ٠

وكان لايناديه الا بلقب سيادة الصول · فاذا وقف الصول وقف نعمان ، واذا جلس ظل نعمان واقفا من فرط الادب والاحترام !

وشيئا فشيئا راح الصول يزحف الى الامام ، واخيرا احتل مكتب نعمان بعد ان تنازل عنه بمزيد من القبول والرضى ·

وقنع نعمان بالجلوس على مكتب الصول ، لايبرم امرا الا بعد أن يستشير سيادة الصول ، ولا يوقع على ورقة الا بعد أخذ اذن سيادة الصول ، ولم يلبث طويلا حتى ترك الوزارة الى عمل آخر ·

وأديب آخر اسمه على عصفور · كان انيقا ورشيقا ومعجبا بنفسه على نحو ما ! وكان شديد السخط على الاتجاهات الادبية الحديثة ، شديد الكفر بالادباء القدامى والذين جفـوا على حـد تعبيره !

وكان يزفر بشدة أحيانا حتى كأن الذى يخرج من صدره نار محرقة ، ويقـول فى اسى بالغ « بس لما تيجى الفرصة وأكتب ، كل الناس دى مش هتلاقى تاكل عيش » !

وعندما جاءته الفرصة كتب كلاما هايفا للغاية ·· ثم تحول الى مؤلف أغانى ، ثم فشل أيضا فقنع بتأليف اغنيات غاية فى السوء يبيعها لمطربات الدرجة الرابعة ، ولصالات شارع الهرم وكازينو صفية حلمى !

ولكن أغرب ادباء قهـــوة محمد عبد الله ، لم يكن أديبا ولا صحفيا ولا حتى افنديا ، ولكنه كان بائع يانصـــيب · وكان اسمه عباده وله لحية لم تحلق قط على طريقة قيس ·· وشعر رأسه يتدلى على قفاه كانه شمشون الجبـــار ، ويرتدى جلبابا لا لون له ، ويضع على كتفه اكثر من جلباب ، حتى أنه ليبدو من بعيد كأنه أحد شعراء الرومان المشاهير ، وكان يصفو أحيانا فيتكلم كلاما كله فلسفة وعقل ، ويجن احيانا اخرى فيتحول الى مخبول · وكان يهزأ من كل شىء ، ويسخر بكل شىء ، ويعلن رفضه لكل شىء ، ويقفز وسط ميدان الجيزة حرا طليقا من كل قيد ، ويصرخ ويصفق ثم يهدأ فجأة ، ويقبع فى ركن بعيد يبكى بحرقة وينبح كأنه كلب عجره اتوبيس فى الميدان ·

ولقد كان صديقا لأنور المعداوى يسأل عنه اذا غاب ، ويجلس

معه بالساعات يناقشه فى التاريخ والادب · وكان انور يقول عنه « عباده هو أعقل العقلاء » ·
ولما أغلقت قهوة محمد عبد الله اختفى عباده هو الآخر وكنت أحيانا أراه فى الطريق وقد ازداد قذارة وتهدم وأصبح شيخا فلما مات أنور المعداوى ، لقيته فى الميدان وأبلغته النبأ ·· فقال بلا مبالاة ·· مانا كنت عارف انه هيموت !

ولقد تفرقت الشلة بعد ان انهدمت القهوة وقامت على ارضها عمارة شامخة بلا طعم · وكأن أنور المعداوى كان معها على ميعاد ، تدهور حال أنور المعدواى أيضا · فلما انهدمت القهوة مات أنور المعداوى الى رحمة الله ·
ولقد كانت وفاته خسارة جسيمة للفكر والادب ، فقد كان طرازا من الرجال يبيع ملابسه ولا يبيع كرامته ، ويجوع ولا يسأل اللئيم !

ولقد احببت أنور المعداوى واحترمته ، وما اكثر الذين احببتهم وما أقل هؤلاء الذين يستحقون الاحترام ·

وبعد موته بزمن طويل ذهبت مع أحد الاصدقاء الى قبره البعيد وجلست أبكى وأنا الذى لم تذق عيناى الا نادرا طعم البكاء ·

ولقد ودعت انا الآخر قهوة محمد عبد الله الى حديقة كازينو الجلاء · وكنت قد حققت لنفسى بعض الشهرة بين الصحفيين · واصبح لى اصدقاء يمكن الاعتماد عليهم وقت الازمات · واصبحت أعمل فى مجلة اسبوعية اسمها « صوت الشرق » الى جانب عملى الرئيسى فى جريدة القاهرة · ولكن ظل حلمى القديم يراودنى ، ان اصبح يوما مالكا لشقة خاصة تطل على شارع عريض ومضىء ، وان اصبح عضوا بنقابة الصحفيين ولقد خيل الى ان تحقيق حلم النقابة أسهل بكثير من تحقيق حلم الشقة ·

ولم لا وأنا صحفى وأعمل فى المهنة منذ زمن طويل · ولى كتابات منشورة ، ولى اجر محترم ، ومعى شهادات من الصحف تثبت اننى أعمل بالمهنة منذ أكثر من عشر سنوات ·

منطق الحق والحقيقة !

ولكن ، من قال ان الحق والحقيقة وحدهما هما الطريق الوحيد الى نقابة الصحفيين ٠

كانت جريدة القاهرة تجربة مفيدة تنبت بالدليل القاطع أن الصحافة ليست بالعافية وأنها مهنة صعبة لا يجيد صنعها الا أبناؤها ٠ فلقد خرجت الجريدة الى الوجود وعلى صدر صفحتها الاولى أسماء أربعة رؤساء تحرير ليس من بينهم واحد من أبناء المهنة ٠ أحدهم كان قائدا للجيش المصرى فى حملة فلسطين عام ١٩٤٨ ٠ والآخر كان رئيسا للمجمع اللغوى ٠ والثالث كان من كبار المجاهدين ٠٠٠ وهكذا ! وكتب رئيس المجمع اللغوى افتتاحية العدد الاول تحت عنوان « غبوق الصباح » ولم يفهم أحد من القراء ولا من المحررين حرفا واحدا من مقال رئيس التحرير ٠ ولذلك راحت الجريدة تتدحرج حتى وصلت فى خلال شهر واحد الى الحضيض !

ولقد كانت الجريدة فوق كونها تجربة مفيدة ، تجربة فريدة أيضا ٠ فلقد تجمع فيها اليمين بدرجة مكثفة وبينما كانت الصحف الاخرى التى عملت فيها من قبل تعج باليساريين والوطنيين والمعارضين ، كانت جريدة القاهرة لا تضم بين جدرانها الا اليمين وفلول الاحزاب القديمة ، والمتطلعين الى مناصب أكبر وفلوس أكثر وبعض أصحاب الهيافة الذين ليس لهم فى الطور ولا فى الطحين ! وكانت سكرتارية التحرير تضم ثلاثة من أغرب وأعجب من عرفت ورأيت خلال عملى فى الصحافة ٠ أحدهم كان يتناول العمل الصحفى بأسلوب الموظف ٠ يحضر فى الثامنة صباحا كل يوم ، وينصرف فى الثانية ظهرا ٠

وكان اذا حضر سارع الى خلع الجاكتة وعلقها على شماعة خلف المكتب ، ثم شمر أكمام قميصه فشر ست فلاحة تستعد للعجين ! ثم يطلب شايا ويشعل لنفسه سيجارة قبل أن يبدأ فى فرز أخبار المحررين ٠ وكان هذا الفرز لايستغرق من وقته أكثر من خمس دقائق ٠ بعدها يتفرغ لنفاق رئيس التحرير ! ثم التعرض لزميليه بكلام لايليق من رجل فى مثله مركزه وكان شديد الحرص على استعراض ثقافته أمام الحاضرين وكانت هذه الثقافة لاتتعدى دائرة : هل الوضوء ينقض لو حمل المرء قربة فساء على ظهره ؟

وهل تدخين السجاير مكروه أم ممنوع ثم ماذا دار بالضبط بين سيدنا الهراس وسيدنا بعجر بن شمروخ !

وكان الآخر على عكسه تماما · يحضر فى مواعيد منتظمة · وأكثر خبرة وفهما لعمله الصحفى ، ولم يكن يهتم من الثقافة الا بماله اتصال بالعمل الصحفى ، وكان يرى أن كل الصحفيين فاشــــلون وكلهم يســتحقون الطرد · وكان دائما يردد أن باستطاعته اصدار الجريدة وحده ، بشرط طرد جميع المحررين ·· وكان يخاف رئيس التحرير ويدس له من وراء ظهره وكان له فم واسع وأسنان حادة ومدببة · فاذا ضحك أو تكلم بدا كأنه ذئب جائع مسعور ·

واستطاع بعد فترة من العمل الصـــحفى فى الجريدة أن يسيطر على عقل احدى المحررات وأن يتزوجهـــا · وسرعان ما سقط صريع الذبحة الصدرية ولما أنقذ بأعجوبة كان قدفقد منصبه فى الجريدة فاكتفى بالجلوس فى نقابة الصحفيين وسب جميع الآخرين ·

أما الثالث فكان دلدولا بكل ما فى الكلمة من معنى ، وللاسف استطاع هذا الدلدول أن يشق طريقه الى الامام بسهولة ، وظل محتفظا بمنصبه فى الجريدة الى أن أغلقت أبوابها ·

أغرب شيء أنه تحول بعد ذلك الى كاتب ، وأصــبحت له كتب ومؤلفات ، شخصية غريبة تثبت أنه لايبقى فى النهاية الا الذيول ·

ولكن أعجب وأغرب الشخصيات فى جريدة القاهرة لم تكن من بين المحررين · ولكنها شخصيات كانت تلعب دورا رئيسيا من وراء ستار وتتحكم فى الجريدة وتحريرها وسياستها ·· وتوجهها الى حيث تريد ·· أول هذه الشخصيات كان يدعى سركيس ·· وكان مسئول الحسابات والمالية فى الجريدة ·· وكان يمت بصلة قرابة لصاحب الامتياز · وســلطاته كانت مطلقة ، ورغباته كانت أوامر ، وعقليته كانت أتفه من عقليــة حمار ·

والرجل الآخر كان اسمه محمد وكانت وظيفته الرسمية ، سائق سيارة صاحب الجريدة ، ومن خلال هذه العــلاقة التى تربطه بصاحب رأس المال ، استطاع أن يفرض نفسه عـــلى

جميع المحررين وأن يسهر معهم ، ووعدبعضهم بعلاوات ، وهدد البعض الآخر بالفصل · ونجح فى لعبته فكان يتلقى الهدايا ، وينشر صورته فى باب المجتمع ويحرر فى باب بريد القراء !

أما الرجل الثالث فكان يتمتع بشارب رفيع ووجه ثعباني وكان يتولى كل الامور القانونية فى الجريدة · وكان شديد الحذق كمحامى يجيد استغلال نصوص القانون لحسابه ·· ويعرقل سير العدالة بمزيد من الاجراءات والتعقيدات ، ولقد

استولى على قلب صاحب الجريدة عندما نجح فى فصل خمسين محررا دفعة واحدة دون أن يعطى لأى منهم حقه المشروع ، فلما لجأوا الى القضاء نجح فى كسب القضية ضدهم ، وجعل من هذا الفصل حقا مشروعا لصاحب الجريدة الساذج الغلبان ، ولقد

استشرى نفوذه فى الجريدة حتى أصبح يعين من يشاء ويفصل من يشاء دون رقيب ولا حسيب ! ولقد كان هو السبب المباشر فى فصلى من جريدة القاهرة حين اتصل تليفونيا بالجريدة يريد مخاطبة صاحبها ·· ولسوء حظى وقع فى قرعتى ، فطلب منى فى صلف شديد أن أحول المكالمة على مكتب صاحب الجريدة · ولم أرد عليه واكتفيت باغلاق السكة فى استهتار ملحوظ ·· ويبدو أنه اغتاظ بشدة فعاد وطلبنى ، ولما أجبت على التليفون راح يصيح فى أذنى مهددا بفصلى ·· ولعنت له خاش جدود الذين نسلوا أبوه ، وبصقت فى سماعة التليفون احتقارا لشأنه ، وتوعدته بالاذية فى أول فرصة تقع فيها عيناى عليه فى الطريق !

ولكن الرجل الثعبان استطاع أن يفصلنى من الجريدة بعد ذلك بشهر · يوم الفصل استدعانى صاحب المجلة وكان رجلا عالما وفاضلا ومجاهدا عربيا قديما ، ولكنه كان عجوزا الى درجة مضحكة ·· اذا تكلم قطع الحديث فجأة ونام وارتفع شخيره فى الفضاء ، ثم يستيقظ فجأة ليستأنف الحديث من جديد · ولقد أبلغنى قرار الفصل على أربع دفعات · وخلال هذه الفترة كان ينام ويستيقظ ثم ينام ليستيقظ ويستأنف الحديث من جديد ·

ولقد عرض على خمسمائة جنيه لأتنازل عن القضية · ولكنى ركبت رأسى وقررت أن أمضى فى الشوط الى النهاية ·

ولقد حكمت المحكمة فى القضية بعد ذلك بستة أعوام ٠٠ وحكمت ضدى وألزمتنى بدفع مصاريف وأتعاب المحاماة ٠٠٠ وبدلا من الخمسمائة جنيه التى كنت سأتناولهـــا ، دفعت أنا عشرة جنيهات وخرجت من المولد بلا حمص ٠

رجل آخل عرفته فى جريدة القاهرة ، وكان ناعما ولطيفا وصاحب اتجاه فى الصحافة هو نشر كل ماهو طريف وظريف ٠٠ وكان فيما مضى من الزمان يدعى الثورية ، وانضم فعــلا الى حزب فاشى كان أنصاره يرتدون القمصان الملونةويحطمون البارات وبيوت الدعارة ٠

وعندما احترف الصحافة كان أول من مد يده للبنت لتدخل هذا الميدان ، وهى حسنة تذكر له بالخير ، غير أنه تمادى فى هذا الاتجاه ، فأصبحت كل الجرايد التى يعمل بها مفتوحةعلى البنت ، ولكن ليس للولد فيهـــا مكان ٠٠ وكان رغم مركزه الكبير فى الجريدة ، لا يجلس فى حجرة مستقلــة ، بل كان يفضل الجلوس فى صالة كبرى وحوله عدد كبير من المحررات المعطرات الانيقات ٠ وانطبع هو بهذا الجو المحيط به فأصبح وكأنه واحدة منهن يقــزقز اللب ، ويتعطـــر بأجمل أنواع الكولونيا ، ويقضى معظم الوقت فى الحديث عن أصناف الطعام المفضلة لديه !

ولقد حدث للعبد لله مرة أن تعرفت على احدى بناته المفضلات ٠٠ وكانت بنت سنيورة ، عيونها فى لون البنفسج ، وخدودها كتفاح لبنان ، وكانت عفية وقوية كأنها بقرة سمينة معلوفة بالكسب التمام ٠٠ وصارت علاقة غرام عنيفة ومواعيد حب على شاطىء النيل ، وفى داخل النيل أيضا ، وعندما اكتشف المسألة جن جنونه ، وثار وأحرج البنت أمام جميع الحاضرين وظنت البنت أننى أنا الذى كشفت سرها ، ومعـــذورة هى لأنها لم تكن تعرف أن بينى وبينه ماصنع الحداد ٠

ولقد جن جنونى أنا الآخر وحاولت جاهدا أن أعيد العلاقة مع البنت ولكن دون جدوى ، رفضت باصرار وبشـــدة ٠٠ وعاملتنى بقسوة حرضتنى على التمسك بموقفى المزرى ٠٠ وتصور منظرى وأنا أطلب البنت كل خمس دقائق بالتليفون

وفى البداية كنت أتفاهم ، ثم بعد ذلك أصبحت أتذلل وأرجو وأستعطف وكأننى شحات واقف على باب الحب !

وأعترف الآن أننى فى حياتى لم أشعر بالبؤس مثلماشعرت به تلك الايام ، أنا الذى كنت أسخر من المحبين والمغرمين والعاشقين أصبحت واحدا منهم ، ورحت أطوف حول بيت البنت كأننى قيس وكأنها الست ليلى • وأحيانا كنت أبكى ، وأحيانا كنت أتحدث مع نفسى فى الطريق •

أغرب شىء أيضا •• أنه حدثت لى أزمة نفسية حاده جعلتنى أتصوف •

وذات مساء دخلت مسجد سيدنا الحسين وحذائى تحتابطى ورأسى منكسة ، وقدماى لا تقويان على حملى •• وجلست فى صحن المسجد كالمتسول وعيناى تبرقان بلا معنى وتنظران بلا احساس •• ولكزنى الرجل الذى بجوارى واكتشفت أنه صديقى الدكتور سعيد قدرى ، وتعجب الرجل لوجودى فى هذا المكان •• خصوصا وأننى رغم وجود مسجد فى اعماقى وشيخ له عمامة • الا أننى لست من هواة التردد على المساجد •• وتظاهرت بأننى فى المسجد فى انتظار أحد أقربائى الفلاحين وتركت مكانى بجوار سعيد قدرى وانصرفت الى ركن آخر •
وبعد الصلاة قمت مع المرحوم الشيخ محمد الصيفى الى منزله فى العباسية ، وجلست معه حتى انتصف الليل ،

وحكيت له عن سبب تعاستى ، فربت الرجل الطيب على كتفى وقرأ الفاتحة عدة مرات ، ولم يزد على قوله : « كل شىء قسمة ونصيب » •

وأعترف الآنأننى بعد لقاء الشيخ محمد الصيفى . شفيت من الغم الذى حط على نفسى ، ولكنى لم أشف تماما • ظلت صورة البنت فى نفسى الى فترة طويلة من الزمان • ولم أشفى منها تماما الا بعد أن صدر أول كتاب لى « السماء السوداء » وأحدث ظهوره ضجة كبرى فى الوسط الادبى •

عندئذ أفقت من ذهول الحب ، وشغلنى النجاح الادبى فعدت من جديد رجلا سويا •

ولقد التقيت بها مرة بعد ذلك فى الطريق •• مصادفة !

وصافحتها بفتور وإنصرفت ، واكتشفت أننى لم أكن أحبها أبدا ولكن المسألة كان لها وجه آخر !فلقد كان من عادتى أن أتعرف على البنات وأهجرهم ! ولكن هذه البنت خالفت القاعدة فهجرتنى • ولم تدرك البنت ولم أدرك أنا أيضا أنها بهــــذا الهجر قــد نكــأت كل الجـــراح التى فى نفسى • وما أكثر الجـــراح التى فى نفسى • فـــانا أمضى فى الحيـــاة وأجــر ورائى قطار سكة حديد من الجراح والذكريات المريرة •

طفولتى ، وظروف حياتى الاولى ، وفقرى الذى كان نسيج وحده • فلا أنا فقير دقة فأتسول ، ولا أنا قادر على مواجهـــة الحياة ، ولا أنا أستطيع الكذب على نفـــسى ، ولا أنا قادر فى صباى المبكر على عدم الكذب على الناس ! لم يكن من أجل البنت نفسها .ولكن من أجل ظروفى وحياتى كلها • خصوصا وأنهـــا كانت أول بنت أتعرف عليها من بنات هذه الطبقة ! بيتها فى جاردن سيتى ، وأبوها له شوارب وله طين وله ســيارة وفى السيارة سائق له بدلة خضراء وشرايط على ذراعه !

وكان قهرى للبنت يعنى شيئا آخر •• هو قهرى لهـــــذه الطبقة • حوارى الجيزة تسيطر على شوارع جاردن سيتى •• هذه هى القضية ••فلما رمتنى البنت بقسوة ،نضحت على نفسى كل أحزان الجيزة وكل آلام أهلها !

فلما حققت نجاحا فى مكان آخر نسيت البنت ونســـيت أمرها • ولكنها كانت على أية حال تجربة مفيدة ومريرة معا !

ولقد صدر كتابى الاول الذى كان السبب فى شــــفائى بطريقة لها العجب • تعرفت على موظف كبير فى وزارةالشئون الاجتماعية اسمه صلاح نور ، وهو منأسرة نور الثريةالعفية ، ولكنه هو نفسه كان من نسيج مختلف • وكأن فى جوهره فنان وصعلوك وابن بلد قذفت به الصدفة من أصلاب هــذه الاسرة ، وبينما كان مرتبه لايزيد عن ستين جنيها كان يوزع نصفه على سعاة الوزارة ويقوم بتسليف النصف الآخر لصغار الموظفين •• وكان قلقا للغاية لايدرك بالضــــبط ماذا يريد !

وكان يهوى الترف والاسفار والادب ، ويقرأ كثيرا وبنهــم ولكن قراءاته كانت متعددة وأفكاره لذلك كانت مشوشة ، وأصدقاؤه كانوا من جميع الطبقات والاوساط وبينمـــا كان الى الحزب فى قعدة أشبه بقعدات المصاطب والقهاوى فى قرى يسكن فى شقة فاخرة على النيل وله سيارة كأنها قطار السكة

الحديد · الا أن أسعد لحظات حياته ، كانت تلك التى يقضيها فى الريف بالشبشب والجلباب · وكان يتحدث بطريقة واد ابن بلد مولود فى حوارى السيدة زينب ، واذا ثار بدا كأنه من سكان الدرب الاحمر ، واذا وقع فى عاركة تصرف وكأنه ولد من أولاد بولاق ·

وتوطدت الصداقة بينى وبين صلاح نور ، وسرحت معه فى الحسين وفى الريف وفى مكاتب الوزارة ·

وذات مرة قرأ لى قصة قصيرة منشورة فى جريدة القاهرة ، وقال لى وهو يضحك ، دا انت لو طلعت كتاب هتعمل ضجة ·

واعتذرت له بأن اليد طويلة فى الكتابة ، قصيرة فى الفلوس ·

وقال صلاح نور :

ـ اذا كان العائق هو الفلوس فقط ، فاعتبر الكتاب صدر والمطبعة تدور الآن ·

وقمنا بالفعل ·· وبعد أيام كان الكتاب فى السوق ·

ولقد تحققت نظرية صلاح ، فأحدث الكتاب ضجة لدى النقاد والادباء ، ولكنه لم يحدث أى أثر عند القراء ، وبلغ عدد النسخ التى بيعت من الكتاب مائة نسخة لا تزيد · ولكن الكتاب رغم الوكسة العريضة كان جواز المرور للعبد لله الى دنيا الادب والادباء ·





١٤

قصة عبد العاطى فى الصحافة تصلح للغناء على الارغول ، كفاجعة من فواجع العصر · وهى قصة أكثر اثارة من شفيقة ومتولى ، وأعمق شجنا من حسن ونعيمة · ولقدكان عبدالعاطى رجلا جهولا لا يحتاج لكشفه الى ذكاء كبير ، كانت سحنتـــه ولهجته ومنظره كله منظر قهوجى عاطل لا يصلح لشىء عـلى الاطلاق ، وعندما وضع قدمه أول مرة فى الدار الصـــحفية الكبرى ، كانت الاحوال فى مصر مضطربة ، وكانت الثـورة فى بدايتها ، وكبار الصحفيين فى قلق على مستقبلهم ، وصغار الصحفيين حيارى لا يدرون بالضبط ماذا ينبغى عليهم صنعه !

ولكن كيف دخل عبد العاطى ·· لا أحد يدرى ·· المهم أنه أصبح محررا بثمانية جنيهات ، وصفة محرر واسعة جدا على العمل الحقيقى الذى يقوم به · فقد كانت مهمة عبد العـاطى تلقى المكالمات التليفونية من مراسلى الجريدة فى الارياف ·· وكانت معظم الاخبار التى يتلقاها تأخذ طريقها بســهولة الى سلة المهملات ، وأحيانا كان بعضها يأخذ طريقه الى النشر · وحتى هذه لم تكن تخرج عن دائرة الأخبار التافهة ·· سرقة

ماشية من زاوية أبو جاموس ، أو قتل مزارع فى بنى حسين والعثور على القاتل بفضل يقظة وخبرة وفن الكونستابل الممتاز على أفندى عبده ! هذه هى كانت مهمته بالضبط .

ولكن عبد العاطى كان طموحا الى أقصى حد . ولكن طموحه الشديد للغاية لم يكن يصل أبدا الى الحد الذى وصل اليه بالفعل . فقد راح يهمس باسم أحد ضباط المخابرات على أنه صديقه الاوحد .. وأحيانا كان يطلبه بالتليفون ، وأحيانا أخرى كان يرسل بعض التقارير اليه على مرأى ومسمع من الآخرين ..

وكان عبد العاطى حتى هذه اللحظة محتقرا من الجميع .. فلما شاعت قصته وذاعت ، وعرف الجميع نبأ العلاقة التى بين عبد العاطى وضابط المخابرات العامة ، ابتسمت له الوجوه التى كانت دائما عابسة ، وضحكت الافواه التى كانت دائما مطبقة ، وامتدت اليه الايدى التى كانت دائما منكمشة وممسكة ..

وأحيانا كان رئيس التحرير ينتقل بنفسه الى مكتب الاستاذ عبد العاطى ليسأله عن آخر تطورات الاخبار فى الريف .. وارتفع مرتب عبد العاطى فجأة من ثمانية جنيهات الى ثلاثين ، وانتقل من مكانه الصغير الى مكتب فخم ، وترك ميدان الريف الى مجال أرحب .. مندوب متجول للجريدة فى دوائر البوليس .. واستطاع عبد العاطى أن يثبت جدارة وكفاءة فى عمله الجديد ، ووثق صلاته بضباط البوليس فى الاقسام ، وبالصولات وبالعساكر ، وأصبح له نفوذ فى مديريات الأمن در عليه دخلا لا بأس به عن طريق الافراج عن المشبوهين والمقبوض عليهم للتحرى ، ونقل عساكر البوليس من مكان الى مكان آخر . فقد كان عمله يسمح له بنشر صور كبار ضباط البوليس ونشر أسماء صغار الضباط الذين اشتركوا فى ضبط مجرم هارب أو اطفاء حريق شب فى عشش الترجمان !

وتبدلت أحوال عبد العاطى فخلع البدلة القديمة ، وأصبح يبدو كل مساء فى بدلة جديدة ، وعرف القمصان الحرير والزراير الذهب والكرفتات الارجنس ، بينما الحقيبة الجلد تتأرجح دائما فى يده .. واشترى سلسلة ذهب من الصاغة كان دائما يلوح بها وهو سائر فى الطريق . وصفت الحياة

لعبد العاطى وكان يمكن أن تصفو له هكذا على الدوام ، لولا أن صراعا رهيبا كان يدور فى الخفاء بين رئيس التحريرومدير التحرير ، وقد قرر كل منهما أن يخوض المعركة الى النهاية ، وأن يستخدم أى سلاح حتى يحقق الغاية المنشودة ٠

وتبارى الاثنان فى كسب ود عبد العاطى ، فهو صاحب نفوذ فى دوائر المخابرات وهو يستطيع عن طريق التقارير أن يحسم المعركة لحساب أحد الطرفين فى النهاية ٠ ولقد كان مدير التحرير الشاب الطامع والطموح أسرع فى كسب ود عبد العاطى ، وكان عبد العاطى صريحا فاعلن انضمامه الى مدير التحرير ، وفعلا انتقل بمكتبه الى مكان قريب من مكان مدير التحرير وتحول من محرر الى فراش ، اذا عطش مدير التحرير أسرع فأحضر له كوب ماء ، واذا نام وقف كالديدبان يحرس مكتبه حتى لا يدخله انسان ، واذا عطس قال له : يرحمك الله ! ولم يكن مدير التحرير يطمع فى كل هذا الولاء من جانب عبد العاطى ، كان يطمع فقط فى أن يقف عبد العاطى الى جواره فى المعركة الناشبة بينه وبين رئيس التحرير فى التقارير بكلمة أو اشارة ، ولكن عبد العاطى كان كريما الى أقصى حد ٠ كان يجلس بالساعات يدون أمام مدير التحرير كل حرف يقوله المدير فى حق رئيس التحرير ، هكذا دون مراجعة ودون اعتراض ، ثم يضع التقرير فى ظرف ويستأذن مسرعا ليذهب الى المخابرات ٠

كرم أخلاق من جانب عبد العاطى قابله مدير التحرير بكرم أكثر ، فارتفع مرتب عبد العاطى الى ستين جنيها ، ستون جنيها مرتب أستاذ جامعى أصبح يلهفه كل شهر هذا الجاهل الاحمق المأفون !

واستشرى عبد العاطى كالسرطان فى أنحاء الدار ، يدفع المحرر ـ أى محرر ـ بكتفه أو يلزقه من باب الهزار ، ويتلطع عند أبواب المكاتب ويسترق السمع كلما وجد أكثر من ثلاثة فى اجتماع ٠٠ كان يعد ويتوعد ويهدد وصوته أصبح أعلى من صوت مكنة الطحين ، ودائما يدوى بين جدران الدار ، ولكن رغم جلال عبد العاطى ودلاله كان يخشى العبد لله ويتحاشاه ٠٠ وكان كلما التقى بى مصادفة فى الطريق ضرب تعظيم سلام

ليس كما يفعل الناس العاديون ، ولكن على طريقة رجل الشرطة عندما يصادف ضابطا فى الطريق •

ولقد كنت أكرهه وأحتقره وأبدى له فى وجهه رأيى الصريح •

وذات مساء دخلت الجريدة منهكا •• فقد كنت قد انتهيت تلك الليلة من كتابة مذكرات زعيم شهير من زعماء العهد الماضى ، كانت الجريدة تنشرها له على حلقات ، ولما كان الزعيم اياه ليس من محترفى الكتابة فقد توليت أنا صياغة المذكرات فى الثوب الصحفى اللائق ، وحمدت الله لأن هذا العمل الثقيل على نفسى قد فرغت منه الى الابد ، ولم أكد أستقر على مقعدى حتى جاء الفراش يدعونى لمقابلة المدير العام • وكان رجلاعفيا وجهولا وعديم الخبرة بالصحافة • وناولنى الرجل رزمةأوراق قال فى اختصار شديد وفى حزم أشد •• خد مذكرات جديدة عاوزها تنشر من الاسبوع القادم •• وقلت لا حول ولا قوة الا بالله ، أخرج من نقرة أقع فى حفرة •• ياللحظ التعيس على رأى يوسف وهبى •

وفوجئت وأنا أراجع رزمة الاوراق فى مكتبى بعنوان المذكرات « أسرار الثورة المصرية ، حقوق الطبع والامتياس محفوظة للاستاذ عبد العاطى •• المحرر الصحفى » •

اذن هى مذكرات عبد العاطى •• يا للعار •• ! والمذكرات بالطبع كلام فارغ فى فارغ وهرش مخ ازلى ونصب واختلاق وكذب ليس له مثيل ! لكن كيف العمل وما هى الوسيلة لافساد خطة عبد العاطى ؟ خصوصا والمدير العام موافق على نشر المذكرات ! لم يكن هناك جدوى من التفاهم مع مدير التحرير ولا مع المدير العام •• كان لابد من طريق آخر لوقف نشر المذكرات •• كان لابد من فضيحة •

استدعيت عبد العاطى الى مكتبى وارتديت قناعا رسميا للغاية •• فلما أبصر المذكرات بين يدى حيانى باحترام شديد وجلس فى ادب بالغ يحدثنى عن المتاعب التى صادفها حتى استكمل هذه المذكرات والجهد البالغ الذى عاناه حتى حصل على كل التفاصيل • وعندما انتهى من سرد كل ماعنده من حكاوى قلت له باختصار وبهدوء ، أنا عاوز انشر المذكرات

دى فى كتاب ، ونظر نحوى فى ارتياب وقال فى اصرار ٠٠ بس أنا عاوز انشرها فى الجريدة ٠٠

وقلت لعبد العاطى : طبعا ٠٠ بس انا عاوز اتفق معاك على نشرها فى كتاب قبل ماحد يلهفها ٠٠ وهتاخذ ألف جنيه ٠٠

ووقعت عليه عبارة الالف جنيه كالصاعقة ، فقال على الفور ٠٠ زى بعضه ، وانت تاخد تسعمائة وأنا آخد ميه ٠٠ وقلت لعبد العاطى غاضبا ، ازاى تقول كده دا عرقك وشفاك . عاوز أكل عرقك ، انت فاهمنى ايه ؟ وارتبك عبد العاطى فلم يستطع أن يتكلم ٠ وانتهزت فرصة ارتباكه فسحبت ورقة وقلت له وهو تحت تأثير المفاجأة ، نكتب العقد دلوقت ٠٠ ولكنه كان قد استجمع نفسه مرة أخرى فطلب مهلة حتى يستشير بعض الاصدقاء ٠ وبالطبع كان مستشاره الوحيد هو مدير التحرير ، ولو استشاره فى الامر فسيدرك مدير التحرير أن المسألة كلها مقلب ولعبة شيطانية من تدبير العبدلله ٠ وكان لابد من منع عبد العاطى من مغادرة مكتبى بأى صورة ، فقلت له بصوت مزمجر : دى فرصة ماتضيعهاش ٠٠ أو خد المذكرات دى واديها لحد تانى يكتبها !!

ورفعت سماعة التليفون على الفور واتصلت بيوسف السباعى فى البيت ٠ ورد يوسف السباعى وقلت له على الفور وفى لهجة مؤدبة جادة للغاية ٠٠ خلاص يافندم ، عبد العاطى قدامى هنا ووافق ٠ ولم يكن يوسف السباعى يعلم شيئا عن الامر ، فقال بطيبة متناهية ٠٠ عبد العاطى مين ووافق على ايه؟ قلت ليوسف أيوه خلاص ٠٠ ألف جنيه ونطبع الكتاب ، قال يوسف فى دهشة مين اللى بيتكلم ؟ قلت محمود السعدنى ٠ قال طيب بتخرف تقول ايه ؟ قلت خلاص عبد العاطى وافق ، وسيادتك موافق ٠٠ مبروك ٠٠ قال يوسف ضجرا ٠٠ انت باين عليك اتجننت ٠٠ ووضع السماعة بعنف ، فقلت قبل أن أغلق السكة ، حاضر يا فندم ، هنكتب العقد على طول ٠٠

وصدق عبد العاطى الحكاية ٠٠ وراح يرقبنى فى اهتمام زائد وأنا أكتب شرط العقد : « اتفق كل من عبد العاطى المحرر الصحافى له حقوق الطبع والامتياس طرف أول مع دار الهنا والشفا للطباعة والنشر على نشر كتاب أسرار الثورة المصرية

وذلك بمبلغ ألف جنيه مصرى تدفع فور صدور الـكتاب ، أما الطبعات الشعبية فيتقاضى المؤلف مائة جنيه عن كل طبعـة تصدر فى الاقاليم ، وعددها عشرين طبعة فى كل من بنهـا العسل وكفر بطه ومنوف والقصاصين والبدرشـين وبنى سويف وبنى مزار وأبو تيج وديروط » وصرخ عبـد العـاطى فجأة وقال فى توسل : لا بلاش ديروط ! وتسـاءلت انا فى بلاهة : ليه ؟ فقال أصل دى بلدنا ٠٠ وعلى الفور اسـتأنفت كتابة العقد « وبشرط استثناء ديروط حيث انها بلد المؤلف٠»

كان الحوار قد جذب انتباه زميل كريم يجلـس أمامى فى هدوء يتصفح بعض المجلات الاجنبية ٠ كان الزميل هو محمد محبوب وأنا أحبه واحترمه كثيرا ! ٠٠ فقد كان شديد الأنفه شديد الكبرياء ٠٠ يحضر الى دار الجريدة فى موعد محـدد وينصرف فى موعد محدد ، ويؤدى العمل المطلوب منه على الوجه الاكمل ٠٠ وكان نادرا ما يمزح ونادرا ما يختلط بالآخرين ، ولكنه كان شغوفا بالموسيقى مولعا بالادب والفن ٠٠ ولقدجره الحوار الى التوقف عن القراءة ومتابعة الحديث الغريب الـذى يدور بينى وبين عبد العاطى ٠٠ وخلع محبوب نظارتهالسميكة ونظر نحوى باندهاش ، وقال وهو يشفط نفسا عميقـا من سيجارته ٠٠ ايه الحكاية ؟ ولو أنا حكيت الحكاية فعلا لباظ المشروع كله ، فقلت له دون اكتراث : دا مشروع كبير جـدا وانت كمان هتقوم بالترجمة ! ٠٠ وقلت لعبد العاطى ، تحب نترجمه انجليزى والا فرنساوى ؟ فقال على الفور : فرنساوى أحسن ٠٠ واستأنفت كتابة العقد « وبشرط أن يقوم الاستاذ محمد محبوب بترجمة المذكرات الى الفرنسـاوى ويتقاضى خمسمائة جنيه ٠٠ ويتقاضى المؤلف مثلها » ٠٠ وقدمت العقـد لعبد العاطى فوقع عليه وانصرف ٠٠ وقدمت العقد لمحمـد محبوب وعندما انتهى من قراءته كانت ضحكته المجلجلة ربمـا لاول مرة تهز جدران الدار كلها ٠ وحملت المذكرات والعقد الى المدير العام فأمر بوقف نشر المذكرات ٠٠ ووقف عبد العـاطى نفسه عن العمل ٠٠ ولكن لم تمضاسابيعحتى فصل المدير العام وجاء مدير جديد وجاء معه عبد العاطى وأشاع عبد العاطى أن المدير السابق فصل بفضل جهوده لدى صـديقه فى ادارة المخابرت ٠ ولقد وجد عبد العاطى من يصدقه فارتفع مرتبه الى

ثمانين جنيها فى الشهر ٠٠ وأصبح نفوذه فى الجريدة يخشاه كل المحررين ٠ وتطورت مهنة عبد العاطى فأصبح المحـــرر العسكرى للجريدة ٠ ونشرت صورته على غلاف مجلة اسبوعية مصورة كانت تصدر عن الدار ٠٠ وكتب مدير التحرير مقالا عن نشاط وجهود عبد العاطى فى مهنة البحث عن المتـــاعب والاهوال ٠٠ وأصبح عبد العاطى نجما صحفيا يشار اليــــه بالبنان ! خطوة واحدة فقط بقيت لعبد العاطى ليصبح صحفيا وليحقق كل الآمال ٠٠ أن يصبح عضوا بنقابة الصحفيين ٠٠ وكل شىء أمامه معد وجاهز وعلى خـــير ما يرام ٠٠ أوراق من الدار تثبت أنه يعمل صحفيا وبمرتب كبير ٠ وجميع الاجهـزة الرسمية موافقة على انضمامه للنقابة ٠٠ ولكن بقيت موافقـة نقابة الصحفيين ولقد وقفت نقابة الصحفيين موقفا شريفا وعظيما ضد انضمام عبد العاطى اليها ٠٠ وقال رخا رأسى والف سيف لاينضم عبد العاطى للنقابة ٠٠ واذا دخل من الباب سأخرج من النافذة ٠ ولم تتزحزح نقابة الصحفيين عن موقفها قط ٠

ولكن ماذا يهم ، عبد العاطى شغال فى الصحافة على ودنه ، ويوما ما سيدخل النقابة رغم أنف الصحفيين !

ولكن ٠٠ تأتى الرياح بما لا تشـتهى السـفن ٠ ضبطت الحكومة شبكة تجسس لحساب الغرب ٠٠ وضبطت أفراد الشبكة فى حالة تلبس واثنـاء اجتمـاع فى شـقة رجل انجليزى فى الزمالك ٠ وسيق المتهمون الى السجن ٠٠ واغلقت الشـــقة بالشمع الاحمر ٠ ونزل عبد العاطى مسرعا من الجريدة الى مكان الحادث ليكتشف ان كل شىء قد انتهى وان الشقة مغلقة بالضبة والمفتاح ، ولكن عبد العاطى الجسور نادى على البواب وأمره بفتح الشقة وفض الشمع الاحمر ، ولما ســـأله البواب عمن يكون ؟ أجاب ببساطة أنا من المخابرات ! وفتح البواب الشقة ودخل عبد العاطى ، وعبث طبعا فى محتويات الشقة ، والتقط صورا لها من الداخل ٠٠ ونشر الموضوع كاملا فى الجريدة فى صباح اليوم التالى ، وقامت الدنيا ولم تقعد ٠٠ والقى القبض على البواب وعلى عبد العاطى ، واجرى معه تحقيق سريع ثم أفرج عنه بعد أربعة أيام ٠٠ ولكن هذا التحقيق الذى أجرى معه صار جزءا من التحقيق فى قضية التجسس نفسها ٠ ومع التحقيق ارفق تقرير مفصل بالتحرى عن عبد العاطى نفسه ٠ وفى التقرير

كلام عن عبد العاطى يشيب لهوله سواد الليل !وانقل لكم بالحرف الواحد ماجاء بالتقرير : « عبد العاطى محرر صحفى كان يعمل بالبوليس السياسى برتبة عسكرى فى مدينة الاسماعيلية فى العهد البائد ، ثم فصل من وظيفته لاتهامه بالاتصال بالمخابرات البريطانية ٠٠ وهو دائم التهديد لزملائه فى العمل بأنه من المخابرات والبوليس الحربى بقصد الارهاب وابتزاز الاموال ٠ وهو جاهل لايجيد القراءة والكتابة وقد حصل على علاوات كثيرة بفضل علاقاته المشبوهة ببعض كبار المحررين » !

انتهى التقرير ، ولقد تلقت نقابة الصحفيين هذا التقرير وقدمته الى المحكمة كتبرير لموقفها فى رفض قبول عبد العاطى ، وقد أمر القاضى برفض طلبه ٠٠ والى أبد الآبدين !

ولكن ٠٠ هل انتهت قصة عبد العاطى ؟ لا ٠٠ لقد ظل يعمل فى الصحافة رغم كل شىء ، وبعد شهور فصل مدير التحرير وفصل عبد العاطى ٠٠ وتقاضى ألف جنيه مكافأة وتعويضا عن فصله ٠ وعندما رأيته بعد الفصل بأيام ، كان رابط الجأش يؤكد لكل من يلقاه انه سيعود بفضل نفوذ صديقه ضابط المخابرات الكبير ! ولكنى التقيت به بعد ذلك بأسابيع ، وكان قد جف عوده واسود وجهه واحمرت عيناه وقال لى وهو يجلس منكسرا على المقهى ان عينيه احمرت من فرط البكاء ، ويبدو أنه فقد الامل نهائيا فى الاشتغال بالصحافة ، فافتتح محلا لبيع الفول المدمس والطعمية فى عابدين ٠٠ وعندما التقيت به ذات مساء امام الدكان راح يسب ويشتم فى الصحافة والصحفيين ٠٠ هذه مهنة الصياع والذين بلا عمل ! كان هذا هو رأى عبد العاطى فى أول عهده بصناعة الفول ! وكان يحلم بثروة ستهبط عليه من وراء هذا المشروع الجديد ٠٠ وانه يوما ما سيصبح مليونيرا مثل أبو ظريفة وأبو عضيم ! ولكنه لم يلبث أن أفلس بعد شهور ٠ واختفى عبد العاطى سنوات طويلة ، ثم التقيت به مصادفة ٠٠ ويا له من لقاء ! اكتشفت ان مكتبى قد انفصلت احدى قوائمه فأرسلت فى طلب نجار ، وعندما جاء النجار اكتشفت انه عبد العاطى نفسه ! كان يرتدى بنطلونا وقميصا وقد أرسل ذقنه ، ودب الشيب فى رأسه وقفز عمره عشرات الاعوام دفعة واحدة ! ٠٠ وجلس يحكى لى فى مرارة عن كفاحه وصراعه فى الحياة ، ولكنه

لم يكن قد فقد الامل نهائيا في العودة للصحافة ‥ سأعود اليها بعد آن تنصلح الاحوال ! ولم أفهم أى أحوال كان يقصدهـــا عبد العاطى ٠ وقبل ان ينصرف دعاني الى زيارته فى الدكان ٠ واكتشفت عند الزيارة انه لايزال يعيش فى الماضى ‥ مقالاته معلقة على الجدران وصورته على غلاف المجلة تتصدر المحل وتحتها عبارة الصبر مفتاح الفرج ٠ وقدمنى لزملائه فى محل النجارة ‥ لفندى كان زميلى فى الصحافه ، عشان تصـــدقوا ياولاد الهرمة ! وصاح عامل كان منهمكـــا فى نشر لوح خشب ‥ والنبى تتلقح وتسكت ٠ وقال عامل آخر ، ماتريحنا يا أخى وتروح الصحافة بتاعتك ٠ وهز عبد العاطى رأسه وقال فى وقار ‥ باذن الله بس لما تزول الاسباب ! وعندما سأله عامل عجوز ، والسبب ايه انشاء الله ، رد عبد العاطى على الفور ‥ خلاف سياسى من غير مؤاخذة !

تصوروا ‥ هذا الحمار الذى لايعرف الفرق بين الخيـــارة والحمارة !

ثم غاب عبد المعطى بعـــد ذلك فلـــم أره الا منذ عـــام ، كنت أجلس ذات ليلة على رصيف الدمياطى فى الجيزة وكانت ليلة حارة ورطبة تكاد تكتم الانفاس ٠ ومد رجل شديد القذارة لحوح بدرجة مزعجة يده ، فمددت يدى أنا الآخر ووضعت فى يده شيئا لله ! ولكن اليد ظلت ممدودة والشخص القذر ظل مكانه لايتحرك على الاطلاق ، وعندما نظرت فى وجهه اكتشفت انه عبد العاطى ! وان يده ليست ممدودة من أجل قرش ولكن يده ممدودة من أجل السلام ‥ وصافحت عبد العاطى وجلست معه حتى الصباح ٠ لقد فشل فى كل المهن ، الفول والنجارة وحتى فشل كطباخ ! ذهنه لايجيد العمل ‥ فلم يعد أمامـــه الا عرق الجبين والسواعد والاقدام ٠ ولقد تدحرج عبد العاطى فى النهـــاية ليســـتقر فى ســـفح الحيـــاة كشـــيال فى محطة الترولل باس ! أية مأساة عنيفة هى حياة عبد العاطى ٠ فلقد خلق عبد العاطى فعلا لمهنة شيال فاذا به بسبب بعض الاوضاع المقلوبة يتحول الى صحافى شهير ولكن لعدة اعوام ‥ لقد كان من الطبيعى أن يكون عبد العاطى شيالا ‥ وكان من المنطقى أن يظل شيالا من الميلاد حتى الممات ‥ فهذه هى كل مواهبه فى الحياة ولكنه انقلب صحفيا شهيرا بعض الوقت ‥ وهذه هى المأساة !



١٢

وهكذا أصبحت ـ بعد تجربة عاصفة ـ واحدا من رجال السياسة • ولقد كانت تجربة صدمتنى لا استطيع أن ازعم لنفسى أنها أنضجتني ! ولقد كنت قبل هذه التجربة المرة أشترك فى السياسة على الهامش ، وكنت وفديا بقلبى ، مع النحاس بعواطفى ، ضد جميع الاحزاب بقلقى وهمى وعدم استقرارى على حال ! ولقد خرجت من هذه التجربة بشعور غريب ، هو انه ينبغى أن أتذوق السياسة بلسان ساخر وان أشمها بأنف مزكوم ! وبعد عام من قيام الثورة لم أكن قد شهدت حفلا سياسيا لقادتها • ولكن قدر لى أخيرا أن أقوم بأول رحلة سياسية مع قادة الثورة فى انحاء الريف وكانت رحلة لاتنسى • وكنا أربعة من الصحفيين مع عدد من قادة الثورة على رأسهم جمال عبد الناصر وحسين الشافعى • ولم أكن أعلم وقتئذ أن عبد الناصر هو زعيم الثورة وبطلها الوحيد • ولقد حرص هو خلال الرحلة ان يؤكد بتصرفاته أنه ليس الرجل الذى فى الصدارة ، وأنه ليس الرجل الذى حرك كل شىء قبل وأثناء ليلة ٢٣ يوليو • بينما كانت تصرفات وحركات أصغر

ضابط فى الرحلة تكاد تصرخ بأن صاحبها هو الذى صنع كل شيء ودبر كل شيء ، وانه لولاه لما حدث فى مصر حادث ! وتحركت السيارات الى شبين الكوم حيث خطب عبد الناصر خطبته المشهورة التى دعا فيها الاستعمار أن يحمل عصاه على كاهله ويرحل ٠٠ أو يقاتل حتى الموت دفاعا عن صلفه ووجوده ٠ ولم أكن أنا شديد التعلق بالسياسة تلك الايام خصوصا بعد التجربة المريرة وكنت قد أصبحت صاحب نظرة متشائمة وغير مبالية بأى شيء ولذلك لم أدرك مغزى هذه الكلمات ولا معناها ٠ وظننتها لونا من الدعاية ، وأشياء للاستهلاك المحلى لاتزيد وهكذا أخذت الأمر ببساطة ، كما تعودت ان آخذ كل حركة سياسية تلك الايام ببرود ٠ فقبل ذلك بعدة شهور قدر لى أن أقوم بدور تمثيلى مضحك فى مسرحية سياسية هزلية ليس لها مثيل ٠ فقد دعيت عند تنظيم الأحزاب لحضور ليلة سياسية يقيمها حزب المعارضة الذى دعا الى قيامه الزميل فتحى الرملى ٠ ولقد كانت معرفتى بفتحى الرملى تمتد الى ما قبل ذلك بأعوام ٠ فعندما كنت تلميذا بمدرسه المعهد العلمى الثانوية شاهدت شخصا يرتدى ملابس العمال يوزع على الناس فى حى السيدة زينب منشورات ثورية ملتهبة ضد النظام الملكى القائم ويدعو فى الوقت نفسه الى انتخابه نائبا عن الدائرة ، وكان الشخص اياه هو فتحى الرملى نفسه ٠ ولكن منظر فتحى الرملى ودعوته لم تشغلنى كثيرا فقد كنت مطهوما وقتئذ فى المعركة الانتخابية الى جانب مصطفى عبد الهادى صاحب مدارس المعهد العلمى ٠٠

ثم تعرفت اليه بعد ذلك فى جريدة الجمهور المصرى واحببته ٠ ولذلك لبيت دعوته لحضور مؤتمر الحزب ٠ وفوجئت بعشرة أنفار فى المؤتمر ، وشاب ضئيل الحجم يرتدى نظارات طبية ويتكلم بفصاحة يتصدر الاجتماع ٠ وبدأ الشاب حديثه عن حركة الحزب الجديدة وبرنامج العمل الذى ينبغى علينا ان نقره واسلوب العمل فى المرحلة القادمة ٠ وكانت نغمة جديدة على اذنى ٠ فلم أكن قد سمعت مثلها فى أى ندوة سياسية من قبل ٠ كان الكلام طيبا ولكن واقع الحال لم يكن كذلك ٠ فلم يكن فى مؤتمر الحزب سوى عشرة انفار أغلبهم حضر دون رغبة فى الحضور مثلى ٠ هل نحن فعلا الطليعة كما قال الاخ الضئيل اياه !؟ وهل ستقوم على اكتافنا نحن كل التغييرات المنتظرة فى المجتمع المصرى فى المرحلة القادمة ؟ وهل المسألة جد أم هزار ؟

وتأكدت انها هزار عندما طلب الاخ المتكلم من الحاضرين ان يدفع كل منهم خمسة وعشرين قرشا وان يترك صورته باعتبارهم .. الهيئة التأسيسية للحزب الجديد . ودفعت الربع جنيه وتركت صورتي وانصرفت ، وفوجئت بأخبار الحزب منشورة في جريدة المعارضة ، والهيئة التأسيسية بكامل هيئتها مجتمعة ، وصورة العبد لله تحتل أفضل مكان بين الحاضرين . عندئذ تأكدت ان المسألة هزار . لانني في واقع الامر لم أكن مع هذا الحزب ولم أكن ضده . ولم أكن مشغولا حينئذ الا بعملي الصحفي وان احتفظ بنفسي ثانيا على حبل الصحافه الذى كان يهتز كثيرا تلك الايام . ولكن صديقا آخر زارني في الجريدة في اليوم التالي جعلني انظر للمسألة نظرة أخرى . كان الصديق هو ابراهيم عبد العليم . ولقد عرفت إبراهيم أول عهدي بالصحافة في جريدة صوت الأمة . وكان لايبدو مثل الصحفيين الآخرين . كان جادا ومهتما وممرورا على نحو ما . وكان يفلسف كل شيء . وذات يوم صدمني صدمة قاتلة حين قررت امامه انني أبحث عن عشرة قروش لشراء كتاب لأبراهيم الورداني . وكنت معجبا بابراهيم الورداني الى حد الجنون . كان اسلوبه سهلا ممتعا شديد الاناقة والرشاقة كأن كاتبه تاجر من تجار الصاغة يجيد عملية سبك الكلمات الى حد ليس له نظير . ونظر ابراهيم نحوي باحتقار شديد ، وهاجمني بعنف ، واتهمني بالتفاهة والهيافة والجهل المقيم . لماذا ؟ لانني أعشق الورداني ككاتب ، مع انه لا يكتب الا لطبقة السادة واصحاب الطين !! ولم أفهم وقتئذ ماذا يقصد ابراهيم عبد العليم ، وظللت على حبي لابراهيم الورداني ، وتبينت بعد ذلك انني كنت على حق ، وكان ابراهيم عبد العليم على خطأ عظيم . فليس اسهل من العثور على مثقفين ، ولكن ما أصعب الحصول على فنانين . واذا كان لديك عشرة مثقفين فمن الصعب أن تجعل من احدهم فنانا ، ولكن لو كان لديك فنان واحد وجاهل ، فما أسهل عملية تحويل هذا الفنان الجاهل الى فنان مثقف وملتزم وعظيم !!

ولقد ظلت العلاقة بيني وبين ابراهيم عبد العليم كعلاقة القط والفار . ولكن صداقتنا ظلت قائمة من بعيد ، حتى جاء يوم زارني فيه في الجريدة وانهال على رأسي بكلمات التفاهة والهيافة ولماذا هذه المرة ؟ لانني أصبحت عضوا في حزب فتحي الرملي الجديد . وشرحت لابراهيم الامر ، وانني انضممت

الريف ، وقال ابراهيم اذن هات صورتك • ولم أسأل لماذا ، ولكنى أعطيتها له • الى هذا الحد أصبحت صورتى مهمة ؟ وبعد اسبوع كانت صورتى منشورة فى احدى المجلات على اننى احد أعضاء حزب التحرر الوطنى !! هكـذا مرة واحـدة أصبحت الاحزاب تتقاتل من أجلى وتتنافس فى سبيل الحصـول على صورة العبد لله!ونفس الشىء الذى حدث من ابراهيم عبدالعليم حدث من فتحى الرملى ، جاءنى الى الجريدة وعاتبنى على انضمامى لهذا الحزب المنافس ، وقلتله ما جرى بينى وبين ابراهيم بالحرف الواحد ، وانصرف فتحى لاكتشف بعد اسبوع ان كل ما دار بينى وبينه قد أصبح مادة فى جريدة المعارضة، وتكذيب بالبنط العريض لما أشـيع عن انضمامى الى حـزب التحـرر الـوطنى ، ثم تأكيـد لشـعب مصر باننى لازلـت فى حـزب المعارضة واننى لازلـت على العهـد مقيم ؟! تمثيلية ما كان اصلحها على خشبة المسرح الكوميدى لولا أن المسرح الكوميـدى لم يكن قد ظهـر بعـد ! ولكنهـا حـادثه كان لابد من ذكرها قبل أن نمضى معا فى رحلتى مع عند الناصر الى الريف • كان عبدالناصر يرتدى الملابس العسكرية ، وكانت هـذه أولى رحلاته فى ريف مصر • ولقـد لاحظت عليـه خـلال الرحلة أشـياء لم الحظهـا فى احـد غيره من قبل • عنـدما كنا نجلس على مائدة الطعام ، كان يسـأل أولا أين الصحفيون ؟ وعندما يطمئن الى وجودنا على المائدة يسأل • هل قدم الطعام للسواقين ؟ ثم يسأل نفس السؤال بالنسـبة لرجال البوليس المخصصين للحراسة • وعندما يطمئن الى أن الجميع قد تناولوا الطعام يبدأ هو الآخر فى تناول طعامه • وفى دسوق حدث لنا حادث غريب • جاء مدير المديرية فى الصباح وصافحنا ـ نحن الصحفيين ـ بحرارة • ثم جاءمعنا لتناول طعام الافطار • ولقد كانت المائدة حافلة بكل أنواع الطعام • قشطة وبيض ورز محمر وحمام وفطير مشلتت وجبنة قديمة وزبدة وطواجن فول مدمس • ولقد نزلت أنا على القشـطة والفطير المشلتت كما ينزل وباء على قرية ليس فيها طبيب •• وخيبة العبد لله أن نفسى مفتوحة وبطنى مريضة على الدوام • حتى فى تلك الايام عندما كنت شابا فى شرخ الشباب كنت اذا تناولت الطعام فى وليمة ظللت أسـبوعا اصرخ من بطنى • ولم يدر بخلدى أبدا اننى مريض •• ولو اننى تداركت الامر من البداية

فلربما أصبحت الآن فى حال غير هذا الحال ٠ ولكنى لم أدرك هذا الا أخيرا ، وبعد أن التهبت مصارينى التهابا أبديا لا دواء له ولا خلاص منه ولافائدة ترجى فيه !

وقمنا من الافطار الى بعض الزيارات الرسمية٠ومن هناك الى جامع سيدى ابراهيم الدسوقى لحضور صلاة الجمعة ٠ وعندما دخل عبد الناصر ومن معه الى الجامع ، تصدى مدير المديرية لنا نحن الصحفيين بالذات ومنعنا من الدخول٠٠ولما احتج احدنا على هذا الاجراء رفع الرجل المخبول عصاه وانهال بها ضربا علينا ، ورحنا نجرى فى كل اتجاه ٠ وهكذا صدرت الصحف الاربع اليومية الكبرى فى الصباح وفيها وصف تفصيلى لرحلة قادة الثورة فى دسوق ٠ وأجمعت الصحف الاربعة على أن الســـيد دسوقى عبد السميع مدير المديرية كان فى استقبال وفى وداع الجميع ٠٠ ولم يكن المدير اسمه دسوقى عبد السميع ٠ ولذلك جاء يجرى مهرولا فى الصباح الباكر الى استراحة الرى حيث كنا نقيم ٠٠٠ وبدا لنا خلال حديثه معنا أنه يعانى غيظا شديدا نحونا ، والسبب أننا كنا تجاهلناه فى اليوم السابق فلم نذكر اســـمه ولـــم نشر الى وجـــوده ٠٠ وأدركت عنـــدئذ كم هى قوية الصحافة وكم هى ضعيفة امامها أجهزة الادارة والحكم ٠ من أجل أننا تجاهلناه كاد يموت غيظا ، ومن أجل أننا لخبطنا أسمه جاء يعتذر ويبكى !

وتركت دسوق الى مدينة أخرى ٠٠ وفى ســاحة الاحتفال جاءنى رجل معمم وصافحنى باحترام شديد رغم أنه فى ســـن والدى ٠ وقدم نفسه على أنه مراسل جريدة القاهرة فى الاقليم ، ثم وقف فجأة وخبطنى قصيدة عصماء فى وصف صفاتى النبيلة وكلهـــا لا تخرج عن دائرة الحكيم والعـــليم والامير والكاتب النحرير وكل المدى بشلاضم الشرشير !

لابد أنه القاها من قبل فى وصـــف عشرات من الناس فى مناسبات سابقة ! وفجأة راح يقدم لى صفا طويـــلا من الناس ، حضرة العمدة وولده ، الشيخ فراج وأبناء عمومته الحاج وهدان وابن خالة ، الوجيه عبد الشكور وعائلته ٠٠ وصافحت الجميع باحترام ، فقد ظننت لخبلى أنهم جاءوا خصيصا لمقابلتى ! ٠٠ وفجأة سحب من جيبه كشفا واعطانى اياه ٠٠ وقال وهو يسيل عذوبة ورقة ، أنا اشتغلت عشان انت ما تتعبش نفسك ٠ الوصف وكل شىء على ما يرام ، انت تبعت الرسالة بس ٠٠ فى الوصف اياه ٠٠ وكان عن وصول قادة الثورة للمدينة ٠٠ مجرد سطر واحد ٠٠ ثم ٠٠٠ وكان فى استقبالهم حضرات الحـــاج وهدان

وعائلته والشيخ فراج وأهل بيته والوجيه عبد الشكور وابن خاله • كشف بأسماء العمدوالاعيانفى الناحية• وهذا الكشف مجرد اعلان مدفوع الاجرللمراسل اياه • ويبدو أنه توسم فى العبد لله الغفلة والسذاجة فخبطنى القصيدة اياها ونوكل على الله ! وطويت الكشف ووعدته خيرا •

انتهى الحفل فى المساءواستعد الجميع لمغادرة المدينة الىمدينة أخرى • وهرع الجميع نحو السيارات التى كانت تنتظر على جانب الطريق وانحشرت مع الصحفيين فى سيارة صغيرة سوداء وعندما تحركت بنا السيارة مخترقه الساحه لمحت الشيخ المراسل اياه يقف وسط وفد العمد والاعيان وقد فشخ بقه عن ابتسامه رضا بلهاء • فها هو كشفه المعد قد ذهب الى المحرر ، وها هو سيقبض غدا أجر النشر وسيصبح مبسوطا شبعانا باذن الله !! وهتفت فجأة وبلا سابق تدبير أناديه : ياشيخ عبد السلام • وصرخ هو الاخر كأنه عسكرى بلوكات نظام نادى عليه حضرة الاميرالاى الكبير • أفندم •• وقلت على الفور ، خد يلعن أبوك • والقيت له بالكشف من نافذة السيارة ، وامام رهط العمد والاعيان وأهل بيوتهم • ولقد أدركت من خلال تلك الرحلة مدىخيبةالصحافةفى الاقاليم •• مراسلى الصحف فى الريف جميعا تلك الايام كانو مراسلين هواة •• جزمجية وقهوجية وأصحاب دكاكين بقالة ومراسلون لجرائد كبرى ومحترمة فى العاصمة أي سطر فيها كفيل بزلزلة عروش الحاكمين فى الريف • ولكن بدلا من أن تصبح الصحافة فى الاقاليم عينا على الادارة أصبحت عينا لها •• وتحول مراسلو الصحف الى ذيول للسلطة الحاكمة ، مهمتهم الحقيقية التقرب للمديروالحكمداروالموظفى البلديةوعساكر البوليس ،وأصبحت كل سهراتهم فى بيوت العمد والاعيان والذين يملكون القعدة الطريه واللقمة الطرية ويملكون ما يستطيعونأن يدسوهفىيد المراسل النشط •• ومن بين هؤلاء المراسلين من استطاع أن يجمع ثروة ،ومنهممن اقتنى البيوت والاطيان واصبح منأعيان الريف • ولقد وصف أحدهم ذات يوم فى عام ١٩٥٠ ثورة الفلاحين فى بهوت بأنها تمرد من جانب البلطجية واللصوص والمشاغبين ضد حضرة صاحب السمو الملكى ولى العهد المعظم الذى لا يترك مناسبة الا ويغمر فيها بكرمه وعطفه الفقراء والمعوزين !

أدركت حينئذ أن مشكلة الصحافة ينبغى أن تحل من هنا •

فأذا كان الصحفى خطيرا فى المدينة فليس أخطر منه فى الريف.
ولو وجد فى كل عاصمه محافظه صحفى محترف ومحترم ،
الصحافه عنده رساله وليست وسيلة لأكل العيش .. لو وجد
هذا الصنف الممتاز من الصحفيين في الريف لانصلحت احوال
كثيرة ولانزاح ظلم كثير .. ولاصبحت رسائل الصحفيين من
جوف الريف ذات اهمية كبرى .. ولها الاحترام الواجب
والتعظيم . ولكن أغلب رسائل مراسلى الريف تاخذ طريقها
بسهوله الى سله المهملات .. حتى الجيد منها والمفيد . ليس
أهمالا من الصحفيين فى القاهرة ، ولكن لأن مراسلى الريف لم
يستطيعوا أن يفرضوا أنفسهم بالموقف المحترم والسلوك
الشريف .. ولقد كنت أعرف أحدهم منذ عشرين عاما يراسل
جريدة كبرى ويتنطط طول النهار فى قطارات الوجه البحرى
يبيع للمسافرين الروائح العطرية والدهانات التى تعيد الشباب
للشيخ السقيم !! .. وأحدهم كان عضوا فى أخطر عصابه عرفها
الصعيد ، وأحدهم كانت مهمته الوحيدة أضحاك سعادة المدير
بأن يقف وسط أى حفلة يحضرها المدير ويلزق نفسه على قفاه
ويصرخ كالطفل ويتشقلب كالقرد الظريف !!

رحلة ممتعة خرجت منها بدروس عديدة .. وخرجت منها
بصداقة رجل فلاح من ريف مصر العظيم .. فلاح اسمه
محمد الجمال .. احترف التدريس فترة فى المدارس الالزامية
ثم احترف السياسة واستطاع فى فترة قليلة ان يصل الى قمه
جهاز سياسى كان له شأن كبير فى مصر فى فترة من الزمان
هو المؤتمر التعاونى العام . ولقد استطاع محمد الجمال ان يصل
الى سكرتارية هذا المؤتمر بفضل كفاحه وتعبه الشديد . ولكن
الشلل ضربته ضربة قاصمه ، والمخابرات العامة افسدت حياته
وابعدته عنوة من ميدان التعاون ليحتل مكانه بعض الامعات
الذين كانوا اقارب لبعض السادة فى ادارة المخابرات مع ان
محمد الجمال كان من اول من آمنوا بثورة عبد الناصر فى اول
يوم من قيامها ، ولقد اندفع فى تيار الثورة بعنف ، وسبح فى بحرها
بمهارة ، كان يحب عبد الناصر الى درجة الجنون ، ويقدس
اسمه الى درجة انه كان يقسم به . ولكن من قال ان الذين
كانوا يحبون عبد الناصر كانوا يشقون طريقهم بسهولة ؟ من
قال ان تلاميذ عبد الناصر المخلصين كانت لهم الولاية على الامر؟
لقد اصطادت مراكز القوى معظمهم ، وضربت اكثرهم بلاهوادة .
وكان محمد الجمال عنوانا على هذا الطراز من الرجال المخلصين .



١٥

وكما ورقة شجر هشة تتقاذفها الريح هكـذا كنت انا فى مطلع عام ١٩٥٤ · والثورة لم يتبلور اتجاهها بعد · ولم تكشف عن هويتها بعد · والاحزاب القديمة لاتزال في عنفوانها ولكنها تبدو على السطح هامدة فى انتظار فرصة · وبينما كانت الاحزاب القديمة تعرف اتجاهها بدقـــة · كانت الثورة تبدو مضطربة ، فهى احيانا حركة وهى نهضة وهى ثورة !! وهيئة التحرير التى كان شعارها « كلنا هيئة التحرير » لم تستطع ان تنفذ الى صفوف الشعب ولم تستطع ان تجعل ولو « بعضنا هيئة التحرير » وظل تنظيم الثورة مجرد بناء ولكن بلا روح ! ولذلك ما ان تفجرت ازمة مارس عام ١٩٥٤ حتى هاج الشارع كله ضد السلطة · وكم كان غريبا حقا ان يتحالف أقصى اليمين مع اقصى اليسار فى سـبيل تحقيق هذا الهدف · ولقد اخطأ الشيوعيون خطأهم التاريخي الثانى خلال تلك الازمة · وكان خطؤهم الاول فى عام ١٩٤٨ حين دعوا الى قبول تقسيمفلسطين لأن المشكلة الاساسية فى اعتقادهم كانت فى الداخل !! ولقد هاجموا حرب فلسطين باعتبارها مؤامرة لصرف الانظـــار عن فساد النظام الرأسمالى ولقتل زهرة شباب الامة فى حرب ليس من ورائها اى طائل !! وكان خطؤهم الثـانى حين تحالفوا مع أقصى اليمين للاطاحة بالثورة ،ووزعوا منشـورات دعوا فيها

الشارع الى ضرب السلطة باعتبارها عميلة للامبريالية الامريكية ولكن هكذا هم الشيوعيون دائما سيظلون يخطئون الحساب رغم نواياهم الطيبه .. وسيبقون دائما فى معزل عن الجماهير لانهم لا يحسنون بالضبط تحسس رغباتها ! ولأنهم يعيشـــون فى فى سطور الكتب ولا يعيشون فى حركة الناس . ولانهم يطبقون نظريات محفوظة على واقع ليس له علاقة بهذه النظريات !!

ولكن اين كان العبد لله تلك اللحظات التاريخية من عمر الوطن؟ لم اكن مع السلطة . كنت مجرد متفرج لا يعى بالضبط ما يدور حوله . شىء واحد فقط شككنى فى الحلف الذى انبثق ضــد الثورة .... هو ان الجميع سارعوا الى دخول الحلف ما عــدا مصطفى النحاس . ولم يصــــدر بيانا ولم يفتح فمه بكلمة . صحيح ان قطاعات كثيرة من الوفد تحركت ولكن مصـــطفى النحاس لم يتحرك . لعله كان يدرك بغريزته الطيبة انها حركة حق يراد بها باطل . وبقدر ما كانت تلك الايام عصيبة بقدر ما كانت مفيدة . فقد كشفت نوايا كثيرة كانت مستترة! واظهرت اطماعا كانت مختفية . وتحولت الديمقراطية الى علم يختفى تحته كثير من المصالح الطبقية والاطماع الشخصية ..

ولكن جماهير العمال حسمت الموقف فى النهاية لمصلحة الثورة وأمام محكمة الثورة وقف عشرات من رجال الاحزاب القديمة وبعضهم يستغفر وبدا هؤلاء الآلهة الصغار كدمى اطفال ، لاايمان بشىء ، ولا استعداد للدفاع عن معتقـــداتهم .. ولقد دعيت للشهادة امام محكمة الثورة ولكنى رفضت بشدة . والسبب ان المتهم كان صاحب جريدة عملت معه فترة قصيرة فى بداية الثورة ثم تركت العمل معه فى منتصف عام ١٩٥٣ وذهبت للعمل كمحرر فى جريدة القاهرة ، ولقد خاض الرجل عدة معارك ضد حزب الوفد وضد احزاب الاقلية ولكنه كان يحيط نفسه ببطانة سيئة جرت عليه المتاعب وجلبت له المصائب . ولانه كان متهما بالخيانة العظمى وانا لااشهد على خائن الا اذا كنت متأكدا من خيانته . وايضا .. لان الذى دعانى الى الشهادة ضــده كان صـــحفيا مشبوها يستحق السجن المؤبد بسبب جرائمه الوطنية ! وقد حضر الى ذات مساء فى جريدة القاهرة وحرضنى على الذهاب للشهادة ضــد الرجل الذى عملنا معه فترة من الزمن . وراح يغرينى بوعود هايفة فلما التزمت جانب الرفض طلب منى ان اذهب الى النيابة لانها تطلبنى . ولكنى لم اذهب حتى استدعتنى النيابة رسميا . ولقد كنت تلك الايام أعمل مندوبا للجريدة فى محكمة الثورة . وكانت النيابة فى مبنى المحكمة فذهبت

اليها والتقيت بأحد أفرادها · وحكيت للرجل كل ما كان يدور فى الجريدة خلال فترة عملى هناك · وحكيت له بصدق ولم أخف شيئا · ولكنه سألنى سؤالا مباشرا عن واقعة الخيانة فنفيت له علمى بشيء مثل هذا ولو اننى كنت أعلم وسكت ، فأنا خائن أيضا · وكف وكيل النيابة عن سؤالى وطوى أوراقه ولم يكتب حرفا · وانصرفت من مكتبه فى سلام فقد استغنت النيابة عن شهادتى · وعلمت بعد ذلك أن أربعة فقط من المحررين قد شهدوا ضد الرجل فى واقعة الخيانة ، أما الاخرون فقد امتنعوا عن الشهادة مثلى · ولم يكن هذا موقفا منهم لاخفاء الحقيقة · ولكن لانهم فعلا لم يكونوا يعلمون شيئا ! وسارت القضية فى طريقها العادى وقضت المحكمة بسجن المتهم واسفت المحكمة فى الوقت نفسه للموقف المزرى لبعض المحررين ··

وكان اسم العبد لله فى قائمة المحررين الذين وضعوا انفسهم فى الموقف المزرى ، وطالبت المحكمة بأحاله امر هؤلاء المحررين الى نيابة الصحفيين ، ولكن اغلب هؤلاء المحررين لم يكونوا اعضاء فى النقابة ·· وكنت أنا واحدا منهم · ولقد كانت القائمة تضم عددا من الشباب الذين تتفق مصالحهم مع مصلحة الثورة · ولكن الثورة فى بداية الامر لم تكن تهتم بهذا الاسلوب فى فرز الناس ··

وكانت تعتمد اعتمادا كاملا على هذا النفر القليل من الثوار الذين خرجوا ليلة ٢٣ يوليو · ومن هنا جاء اسفها على موقف بعض الشبان الذين كانوا يقفون فى الواقع فى صف الثورة ويحملون سلاحها ، وبدلا من احتضانهم حكمت الثورة ضدهم ، واغلبهم صحفيون واعون وفنانون بحق · الشاعر كمال النجمى والشاعر محمد الفيتورى وابراهيم البعثى والأمير المليجى ويوسف فكرى والعبد لله · اغرب من هذا ان القائمة ضمت رجلا لم يكن يوما ما على علاقة بالمتهم ولا بالجريدة التى كان يصدرها ·· هو الفنان عبد الرحمن الخميسى · وكان لهذا الحكم على نفسى وقع الصاعقة · وقضيت عدة ايام هائما على وجهى فى شوارع القاهرة · وخيل الى ان هذا الحكم بمثابة حكم بالاعدام على مستقبلى الصحفى · ياللايام السود التى عشتها بعد صدور هذا الحكم حتى كدت اعتزل العمل الصحفى واتوارى فى عمل آخر فى الظلام · ولكن الايام مضت بى بعد ذلك ولم يلحق بى أى اذى · بل ان احدا لم يلفت حتى نظرى لا من المسئولين فى النقابة ولا من المسئولين فى الجريدة · وعندما فصلت من عملى فى جريدة القاهرة اخذت طريقى بسهولة الى مجلة التحرير —

مجلة الثورة ـ دون ان يعترض احد · ولم ادخلها كمحرر عادى الا لمدة اسبوعين ثم اصبحت مديرا لتحريرهـا فترة طويلة من الزمن · ولكنى قبل ان اترك جريدة القاهرة اتيح لى فترة من الوقت كافية لانشر على الناس دراسة عن النكتة المصرية وظرفاء مصر منذ عبد الله النديم الى كامل الشناوى · واكتشفت ان اغلب هؤلاء الظرفاء اشتغلوا بالسياسة ، وكانت النكته سلاحا من أسلحتهم · واكتشفت ايضا انهم كانوا زعماء جماهريين بحق لانهم دخلوا مزاج الناس من خلال الكلمة الضاحكة واللفتة الذكية والنكتة الحلوة · ولقد قادتنى هذه الدراسة الى حقيقة باهرة ، هى ان الذين يتصدون لقيادة الشعب المصرى ينبغى ان يعرفوه حق المعرفة وأن الذى يتصدى لهذه القيادة ينبغى أن يخاطب الشعب المصرى باللغة التى يجيد فهمها · ولا يمكن قيادة شعب مثل شعبنا بالكلمات المرصوصة والنصوص المحفوظة · ولعل هذا هو السر فى غياب الشيوعيين عن مجلس قيادة الشعب المصرى فى مختلف مراحل كفاحه منذ عـام ١٩٢٤ حتى يومنا هذا ولعل هذا السر هو الذى جعل الجماهير تهب لحرق مقـــر الحزب الشيوعى فى عام ١٩٢٤ بينما كان زعماؤه يزعمون ان الشعب يمشى خلفهم لعله كان يمشى خلفهم ليؤدبهم لانهـــم كانوا ـ ولا يزالون ـ يتناولون الاشياء بطريقة تخالف الطريقة التى يتناولها بها شعبنا ·

ولقد اتيح لى أن انشر دراسة عن فن قراءة القـرآن منـذ عمنا الشيخ أحمد ندا الى عمنا الشيخ مصطفى اسماعيل · ولقد استقيت معظم معلوماتى عن قراء الجيل الماضى من المرحوم الشيخ محمد الصيفى ، وكان الرجل عالما فى هذا المجال بحق · وايضا من رجل أديب وظريف هو المرحوم مصطفى حمام · وكان حمام صحفيا يهوى الشعر ، وشاعرا يهوى الصحافة · وكان محدثا بارع الحديث حلو النكتة راوية للشعر القديم · وكان ذا صوت حسن يقلد به مشاهير القراء ، الشيخ الفيشاوى والشيخ القهاوى والشيخ منصور بدار · وكان يبدو وهو يقرأ معجبا بنفســه على نحو ما · كان يصبح عقب كل قراءة مهلا ·· يا سلام ، الله اكبر ، صـلى على النبى كده واشرع · ولكنى لاحظت اختلافا جوهريا بين رواية الشيخ الصيفى ورواية حمام ·· والسبب أن الصيفى ، كان ينظر الى الموضوع من زاوية دينيه ، بينما كان حمام ينظر اليه من زاوية فنية ولقد استفدت بحق من وجهتى النظر المختلفتين كما أننى اعتمدت على نفسى فى دراسة المقرئين من ابناء هذا الجيل ولقد كنت ـ ومازلت ـ اعتقد ان الشيخ مصطفى اســـماعيل فلتـــه من فلتـــات هـــذا الفن · واعتقـــد

انه لن يكون له مثيل من بين المقرئين فى المستقبل القريب • ولقد احببت الشيخ مصطفى وسرحت خلفه فى كل مكان • من جامع الى مأتم ، ومن سهرة الى مولد • وذات مولد وكان فى بولاق ذهبت خلف الشيخ مصطفى اسماعيل • واقتحمت المسجد مع شلة من الاصدقاء • وجلست بجوار الدكة التى يجلس عليها الشيخ مصطفى • ولم يكن المسجد مزدحما فقد كان الوقت عصرا وجموع المريدين لم تحضر بعد • وبدأ المسجد يزدحم : والحلقة تضيق حولنا حتى لم يعد هناك مكان لقدم • وعندما حانت صلاة المغرب ، هب الجميع ونحن معهم فادينا الصلاة ثم عدنا الى اماكننا فى انتظار قدوم الشيخ ولكن مر الوقت والشيخ لم يحضر •• وفجأة هب احد الحاضرين واقفا وصرخ بشدة وهو يصفق بيديه •• الله حى الله حى ••

ولم يلبث ان هب الجميع وقوفا صارخين مثله ، فقد بدأت حلقة الذكر • وبدلا من أن نستمع الى الشيخ مصطفى اسماعيل وجدنا انفسنا رغما عنا وقوفا وسط الحلقة ، نتمايل فى حركات منتظمة ونصفق على الواحدة كأننا جميعا ضباط ايقاع ، حركات غريبة لم نتوقعها ومصير لم يكن فى الحسبان ! وحانت منى التفاتة الى احد افراد الشلة فاذا به يضحك •• ولم استطع ان اغالب الضحك فانفجرت ضاحكا انا الآخر •

وامتدت عدوى الضحك الى كل الشلة فانفجر الجميع ضاحكين وفورا امتدت الف يد تصافح اقفيتنا ، ثم امتدت الف برطوشة نحونا واختلط الناس ، لا احد يعرف بالضبط من الذى ينبغى ان يضرب فضرب الناس بعضهم بعضا ، جنون ينتاب الجماهير المحتشدة عندما يثور بينها حادث مفاجىء لم يكن احد يتوقعه

واستطعنا وسط الفوضى ان نشق لانفسنا طريقا نحو الخارج ، ولكن بلا احذية ، وخرجنا نرمح فى الشارع مجموعة افندية حفاة نطلب الامان بعيدا عن بطش الجماهير ، واقسمت من يومها الا اذهب خلف الشيخ مصطفى اسماعيل •• واكتفيت بأشباع هوايتى فى الراديو وفى المآتم المحترمة حيث الاحتمال بسيط فى ان تثور فجأة عاركه بالبراطيش !

ولقد استمعت الى الشيخ عبد الباسط عبد الصمد فى اول عهده بالقاهرة ، وقد استقبلته بفتور ، وخيل الى انه سيلمع فترة ثم لايلبث ان يزول ، ولكن الشيخ عبد الباسط فرض نفسه فرضا بعد ذلك ، حتى استطاع ان يحتل فى نفسى المكان الثانى بعد الشيخ مصطفى اسماعيل ، وهناك من المقرئين

الذين لم يحققوا شهرة عريضة من يحتل مكانة سامية فى نفسى من هؤلاء المرحوم الشيخ محمد فريد السنديونى ،الذى مات شابا بعد أن اعتزل القراءة وافتتح لنفسه مقهى فى حى شبرا يستقبل فيه المعجبين ، ولم أزل حتى هذه اللحظه أبكى كلما استمعت اليه ٠

ولايوجد بين المقرئين من ينزف صوته دما مثل صـــوت الشيخ السنديونى العظيم ٠ والشيخ محمود عبد الحكم لاأدرى لماذا لم يأخذ حظه من الشهرة ٠٠ رغم أن صوته كان ينبغى أن يتيح له هذا الصيت العريض !

ولكن الشـــيخ محمد رفعت ظل له المكان الاول فى نفسى رغم كل شىء ٠٠ ربما كان السبب هو أنه كان أول من استمعت اليه فى صباى ، حين كان يسحبنى أحد أقاربى الى قهوة فى شارع أبو السباع ليدخن الشيشة ويسمع الشيخ رفعت طول السهرة ، ولقد تعرفت الى الشيخ رفعت بعد ذلك ولكن لفترة قصـــيرة ، لم يلبث بعدها أن مرض ثم مات يرحمه الرحمن الرحيم ٠

ولقد اتيـــح لى أيضا أن أنشر فى جريدة القاهرة مجموعة قصص مصريه قصيرة ، كانت من خير ماانتجت فى حياتى كلها ، ولقد ظهرت فى تلك الفترة التى كانت فيها القصــــة المصرية مزدهرة وباهرة ٠٠ وجاءت عقب قصص زكريا الحجاوى القصيرة التى كانت هى الكوبرى بين القديم والجديد ٠٠ ولا أدرى لماذا توقف زكريا الحجاوى رغم أن بدايته كانت عملاقة وكانت تبشر بخير كثير ، ولكنهـــا على أية حال كانت بداية الطريق الذى ظهر عليه يوسف ادريس ٠

ولقد أصبت بما يشبه الدوار عند قراءتى لقصص زكريا الحجاوى ، ثم اصبت بالذهول عند قراءتى لقصص يوســـف ادريس ٠ وكان احساسى الحقيقى تجاه هذه القصص اننى أكتب كلاما مثل هذا ولكنى أخشى نشره ، ولكن قصص يوســـف ادريس القصـــيرة كان خير مشـــجع لى على نشر ماعندى من قصص ، فقد فتح هو الطريق ٠

ولو قدر للقصاص فى مصر أن يأكل عيشه من انتاجه ، ولو تفرغ زكريا الحجاوى ويوسف ادريس وبعض كتاب القصة القصيرة الذين ظهروا فى الخمسينات لكتابه القصة فلربما كان لدينا الان انتاج قصصى عظيم ٠

ولكن أعظم كتاب القصة القصيرة هجروها الان الى مجالات أخرى فى الادب والفن ، ولم يبق فى الساحه الا نجيب محفوظ

رغم أن هوايته الاولى هى الرواية • ولكن قبل يوسف وزكريا جذب انتباهى بشدة احسان عبد القدوس فى مجموعته باسع الحب وصانع الحب •• كما أدهشنى كثيرا ابراهيم الوردانى فى مجموعته نحن بشر ، كذلك كان احساسي مع قصص يوسف غراب ويحيى حقى ومحمود تيمور وطاهر لاشين ، ولقد كان النقاد فى واد بعيد عن الادباء الشبان ولولا تشجيع المرحوم أنور المعداوى والدكتور عبد القادر القط لتوقفت تماما بعد أول قصة •• بل ان الدكتور القط كتب عنى فصلا كاملا فى كتاب له وقد حفزنى هذا على الاستمرار فى الطريق ، وما أكثر الذين مدحونى شفاهه ولكن ما أقل هؤلاء الذين ابدوا رأيهم تحريرا فى انتاجى •

ولقد كتب لى يوسف السباعى مقدمة مجموعة قصصى الثانيه « جنة رضوان » وهو عنوان القصة التى وصفها الدكتور على الراعى شفاهه ذات يوم بأنها أعظم قصة مصرية قرأهـا فى حياته ، ثم لحس هذا الرأى بعد ذلك وناصبنى العداء لخلاف بينه وبين الخميسى لم أكن أنا طرفا فيه !!

أما السبب الذى جعل يوسف السباعى يكتب مقدمه مجموعة جنة رضوان فهو سبب يستحق أن يروى ، وهو سبب جعلنى أومن بأن الجو الادبى فى مصر هو مجرد غابة ، وانك لكى تضمن لانتاجك أن يظهر وان ينمو فلابد أن تكون من أقوى الوحوش •

ولقد بدأت القصة حين أبلغنى يوسف السباعى ان الاستاذ توفيق الحكيم ذكرنى فى معرض الحديث عن الادباء الشـبان وانه أبدى استعداده لان يكتب لى مقدمة مجموعتى الجديدة •• وطلب منى يوسف السباعى أن أذهب لمقابلة توفيق الحكيم •

حدث هذا منذ أربعة عشر عاما •• حين ذهبت مسرورا الى دار الكتب لمقابلة الاديب العظيم •• وفى أول لقاء معه أعـاد ماسبق أن قاله لى يوسف السباعى ، وطلب منى احضار أصول المجموعة الجديدة لـكى يكتب رأيه فيها •• وخرجت من دار الكتب تكاد الارض لاتحملنى ، ويكاد الفضاء أن يضيق بى !

ولم اكتم الخبر بل نشرته فى كل مكان وذكرته لـكل من قابلنى •• وبعد أيام حملت أصـول الكتاب الى دار الكتب ، ووضعت القصص بين يدى توفيق الحكيم ، ولم اكن أدرى انه خلال تلك الايام التى فصلت بين لقائى الاول ولقائى الثانـى ، حدثت أشياء أقل ماتوصف بها أنها عجيبة وغريبة ورهيبة ، وليس لها مثيل •



١٦

عندما جلست أمام توفيق فى مكتبه بدار الكتب بعد أسبوع من لقائى الاول أدركت أن شيئا ماقد حدث · ولكن لم أستطع ادراك هذا الشيء على وجه التحديد · ولكنه اعتذر بأنه لم يقرأ قصص المجموعة الثانية وطلب منى فى النهاية أن أمهله حتى شهر رمضان ·· حيث الوقت متسع للقراءة والكتابه على حد سواء وهز توفيق الحكيم رأسه وقال بطريقته المعروفة « ايه رأيك بقى ؟» ووافقته بالطبع ، ولكننى لم أنقطع عن زيارته حتى جاء رمضان · ومضى رمضان أيضا وأنا مواظب على الزيارة وهو مواظب على الاعتذار ، وبعد ثلاثة أشهر كاملة أدركت أن توفيق الحكيم لن يكتب المقدمة · والحق أننى حزنت وتألمت بشدة · والسبب اننى كنت فى صباى المبكر أحب طه حسين وأفضله على توفيق الحكيم · ولكننى التقيت فى مطلع شبابى بطبيب مثقف أوصانى بقراءة توفيق الحكيم · لاننى « سأحد مصر بين السطور وسأشم رائحة الارض الطيبة ممتزجة برائحة الحبر الذى كتبت به الكلمات » وقرأت عودة الروح فى البداية ولكنها لم تهزنى بعنف · ولكن عند قراءتى ليوميات نائب

فى الأرياف انتابتنى حالة غريبة من القلق والنشوة والامتاع الفنى غمر كيانى كله وجعلنى ساهرا حتى الصباح دون أن أشعر بحاجة الى النوم • ورحت ألتهم توفيق الحكيم كمجوع وجد نفسه فجأة على مائدة عامرة بأطايب الطعام • وكان توفيق الحكيم هو البداية التى دخلت منها الى ساحة الفن المصرى العظيم ، وهى التى قادتنى الى هذا النفر العظيم من الفنانين المصريين : ابراهيم عبد القادر المازنى وزكى مبارك وبيرم التونسى العظيم •

ولقد تصورت أن مقدمة يكتبها توفيق الحكيم لمجموعة من قصصى سوف تدفعنى عدة أميال فى هذا الطريق • وستكون شهادة ميلاد لى كقصاص جديد • ولذلك حزنت حزنا شديدا عندما اعتذر ، ومن يدرى ، ربما لو كتب توفيق الحكيم المقدمة لتفرغت لكتابة القصة وربما كنت اليوم أحد فرسانها الميامين • ولكن لماذا اعتذر توفيق الحكيم عن كتابة المقدمة ، لذلك قصة • وهى قصة لم يروها توفيق الحكيم ، ولكن الذى رواها واحد من أقرب أصدقائه وأكثرهم اطلاعا على حقيقة ما يدور عند توفيق الحكيم والذى حدث أن بعض الادباء الشبان ذهبوا الى توفيق الحكيم وعاتبوه على اختيار مجموعتى لكتابة مقدمة لهاورطنوا أمامه برطانة أعجمية فهمنها الحكيم الذكى الحذر الشديد الحرص على ألا يقحم نفسه فى مهاترات من أى نوع لكى يقضى رحلة حياته العظيمة الطويلة بأذن الله قارئا وكاتبا ولاشيء غير ذلك فهم الحكيم ان هناك خلافا وأن هناك أشياء لا يجوز له أن يخوض فيها على الاطلاق • ولقد واجهت هؤلاء الأدباء بعد ذلك •• بعضهم اعترف وبكى • وبعضهم اعترف واعتذر بأنهم كانوا فى حالة نفسية شديدة السوء !

على أى حال ، لقد طبعت هذه المجموعة « جنة رضوان » فى الكتاب الذهبى حيث طلب منى يوسف السباعى أن أسلم أصول الكتاب الى احسان عبد القدوس • وكانت صلتى باحسان مجرد صلة قارىء بكاتب ، وكنت أنا القارىء على كل حال • وايضا صلة زميل صغير بزميل اكبر • ولكننى اكتشفت عند لقائى به أنه قرأ مجموعتى الأولى « السماء السوداء » وأنه معجب بها على نحو ما • ولم أكن أنا أدرك حتى هذه اللحظة ، ان ما اكتبه يستحق اهتمام أحد من الكتاب الكبار •

وربطتنى هذه المقابلة باحسان • فقد عاملنى بود ، واحتفل بى بصدق • وسرعان ما دارت ماكينات الطباعة ، وصدر الكتاب فى السوق • وسحبنى يوسف السباعى بعد صدور الكتاب بأسبوع الى دار روزاليوسف لمقابلة الست • وكان هذا هو لقب السيدة روزاليوسف يرحمها الله • وذهبت مع يوسف السباعى فى بدله جديدة • شامخ الانف ثابت الخطى ، فقد تصورت نفسى أحد كبار الكتاب فى هذا العصر والاوان • وعندما أقتحمنا الغرفة أكتشفت بأن الست ليست وحدها ، وأنها تراجع بروفات المجلة ومعها عدد من المحررين والعمال • وصافحتنى بدون احتفال وقالت ليوسف السباعى « مين دا راخر ؟ » ورد يوسف فى خوف : دا محمود السعدنى • وقالت بعصبية :

لأخلاص مش هنطلع كتب تانى بقى ، كفاية بقى ، كفاية بقى ، كتب الشبان دول مالهاش سوق ، كفاية خسارة !

وقال يوسف ما احنا لازم نشجع الشبان برضه، ولكنها ردت فى حزم : لأ خلاص أنا قلت لأ • وقال يوسف السباعى على كل حال السعدنى كتابه طلع خلاص • وقالت الست لتنهى المناقشة، خلاص ، خليه يروح يقبض الفاوس • أربعين جنيه ، مفهوم •

وانتابتنى حالة الحماقة التى تنتابنى دائما كلما واجهت موقفا من هذا النوع • وهممت بأن أصرخ فى وجهها ، ما هذا الذى تفعلينه ؟ أنا لست شيالا فى محطه مصر • والخلاف بينى وبينك على أجرة مشال من المحطة الى البيت ، أنا كاتب اعطيتك انتاجا هو عصير عمرى وتجربتى فى الحياة ، وما ذنبى أنا اذا كان هذا الانتاج لم يجد سوقا ، وهل أنا تاجر فى سوق العصر ؟ ولكن الكلمات ماتت على شفتى ، وتراجع يوسف السباعى خارجا وأنا خلفه • وعلى درجات السلم سألنى يوسف انت شفت الست قبل كده ؟ •• وأجبت بالنفى ، فقال يوسف وهو يضع يده على كتفى ، دى طريقتها لكن هيه ست طيبة ! وارتاحت نفسى لكلمات يوسف • فهذه الست العظيمة التى انشأت من العدم داراً صحفية وكتابا شهريا وصنعت كتابا ومؤلفين واصحاب اقلام من كل نوع •• وابنها من كبار الكتاب ، وأى كاتب اذن هو ابنها مهما كان • ومن أكون أنا فى زمرة الكتاب !؟ ولم يسعدنى الحظ بعد ذلك لمعرفة الست عن قرب ، فقد كان هذا لقاءنا الاول والاخير ••

وعندما عملت فى دار روز اليوسف كان قد مضى على وفاتها أكثر من عام ولكن ذكرى هذا اللقــاء لم تبرح ذاكرتى قط ٠ ولقد حرصت بعدها على أن أعرف مدى انتشار هذا الكتاب ، وأدركت انها على حق ٠ فلقد كان أعلى رقم بلغه توزيع كتاب هو عشرين ألف نسخة باعها كتاب الدكتور طه حسين وأعتقد أنه الطبعة الثانية من « المعذبون فى الارض » وكـــان ثانى كتاب وزع ذلك العام منذ ثلاثة عشر عاما هو كتاب «يوم الثلاء» لأمين يوسف غراب وقد باع ستة عشر ألف نسخة بينما باع كتابى ثلاثة آلاف نسخة وكذلك كتب كل الكتاب الشــبان الذين ظهروا فى سلسلة الكتاب الذهبى ذلك العام ٠

ولكــن الذنب لم يكن ذنبنا فلم تكـــن الجمـــاهير قـــد تعـــرفت علينا بعـــد ، وكـــانت كل وســـائل النشر لاتهتم الا بجيل الكتاب الكبار المشاهير أصحاب التاريخ الطويل والعريق فى الأدب والفن ٠ وكان جيل الشبان فى حاجة الى من يقدمهم للناس ويتحمل الخسارة والتضــحيات ٠ ولقد تحملت السيدة روز اليوسف هذا العبء ٠ واشهد انها كانت رائدة فى هذا الميدان ٠ وفى ذلك العام أيضا تعرفت الى فنان مصر الاعظم بيرم التونسى ٠ كان يجلس على مقهى فى السيدة زينب ، يكتب بقلم رصــاص كلامــا أشد فتكــا من الرصاص ٠ ولكن هذا الوطنى العظيم والاشتراكى المناضل كان قد تحول خلال السنوات القليلة التى سبقت الثورة فكتب كلاما ينشر فى بعض المجلات ، يهاجم به حزب الوفـــد ، ولا ادرى ما الذى دفع مناضلا عظيما مثل بيرم التونسى الى هـــذا العمل الردىء ؟ ومع ذلك لم يحط هذا العمل من قيمة الفنان العظيم فى نظرى ٠ ولقد كنت معجبا به الى درجة الجنون ، فهذا الكاتب هو وحده الذى يستحق لقب كاتب الشعب ٠ لانه ظل يقاتل بقلمه كل القوى التى تعادى الناس الا فى فترات قليلة ٠ وحتى فى فترات ضعفه ٠ وتخاذله كانت كلماته فى مدح الطغاة تقطر سما ٠٠ ولازلت أذكر كلماته التى قالها فى اسرة محمد على ولحنها وغناها رياض السنباطى ٠

محمـــد لمـــا شرفهـــا
بعينـــه المبصرة شـــافها
كنـــوز بس اللى يعرفهـــا

ويعــرف ينتفـــع بيهـــا
مـــزارع جوهـــا دافى
وطولهـــا وعرضـــها وافى
وليه يمشى ابنهـا حـافى
يمـــد الايد ويطويهـــا
وليــــه القـــاضى والوالى
يجيبهم بابهـــا العـــالى
وليــه مايكــونش طــوالى
حاكمهـــا من اهاليهـــا

وليس أبلغ من هذه الكلمات فى نقد أسرة محمد على ومع ذلك شربها الحمير وأذاعوها على انها قصيدة عصماء فى مدحهم ٠ وعندما رأيته كان منظره يوحى بأنه لايزال فى المنفى ٠ ورغم أنه كان خلال الاعوام التى تلت قيام الثورة يربح نقودا كثيرة الا انه كان دائم الشكوى ٠ الشكوى من أنه لم يأخذ حقه كما ينبغى ، ولانه ايضا عندما بدأ يسترد بعض حقه كانت أيام الصحة والشباب قو ولت الى غير رجعة ٠ ولقد توطدت صلتى به الى أن مات ٠ وحتى الحظ النحس تدخل ليفسد عليه آخر متعة فى حياته فعندما ابلغ انه حصل على وسام الفنون من الدرجة الاولى كان المسكين يعانى سكرات الموت ، ولعله لـــم يسمع بالضبط كلمات التهنئة على وجه التحديد ، ومع رحيل الليل رحلت روحه هو الآخر وفارق دنيانا بعد رحله عجيبة وغريبة ورهيبة تجرع خلالها المر وتجشأ الاسى ٠ وأشهد أننى ما تعلمت فى حياتى من أحد بالقدر الذى تعلمت به من بيرم ولم يبهرنى فنان مثله ، ولم أتعرف بالضبط على جغرافيـــة المجتمع المصرى الا من خلال كلماته ٠

ولقد كان الدكتور زكى مبارك هو الفنان المصرى الثـــانى الذى بهرنى بحق ٠٠ وعندما تعرفت اليه كان يزحف ببطء نحو القبر ٠٠ وكان يجلس فى بار صغير فى ميدان التوفيقية يشرب خمرا رخيصا ويكتب مقالات فريدة فى نوعها ، اذ يبدأ بموضوع ويتشعب الى ألف موضوع وينتهى المقال ولا ينتهى الموضوع الذى بدأه ، ولقد كنت أحب زكى مبارك لاكثر من سبب ، لفنه فى الدرجة الاولى ، ولانه من سنتريس وهى على مرمى رصاصة من مسقط رأسى فى المنوفية ٠ وأعتقـــــد أن الدكتور زكى مبارك لم يوفه أحد من النقاد حقه ، ولم يأخذ

مكانه اللائق فى الحركة الادبية المصرية ·· ولعل السبب انه لم يكن يحتفل بانتاجه ، ولم يكن يحفل أيضا بتدعيم الصلات والصداقات مع المسئولين عن الادب والفن ·· ولكن الذى أحزننى حقا هو الكشك الذى كان يجلس فيه أيام الصيف فى سنتريس على حرف الرياح المنوفى · ولو كنا فى دولة عصرية حقا لانتهز مجلس قروى سنتريس الفرصة واحاط الكشك بحديقة ·· ولاقام تمثالا للدكتور زكى مبارك فى الحديقة ، ولانشأ متحفا للدكتور الاديب الفنان ابن سنتريس فى الحديقة · ولاقام حفلات موسيقية وأدبية وفنية لاهل سنتريس فى هذا الكشك · ولكن الذى حدث عكس ذلك على طول الخط ··

هدم مجلس قروى سنتريس الكشك ، وزرعوا مكانه قمحا وبطيخا ! ويبدو ان شعار المجلس القروى القمح قبل الكلمة ·· والطحن قبل الفن ! هذه العقلية نفسها هى التى جعلت محافظا سابقا من محافظى المنوفية لا أذكر من هو على وجه التحديد يصدر كتيبا فى عيد المنوفية ، تحدث فيه عن مفاخر المنوفية ومجدها · وكان أبرز ما قدمه من مفاخر المنوفية انها تنتج أعظم أنواع العجول ، وأنها انجبت لمصر ٣٧٤ وكيل وزارة ! ونسى المحافظ اياه ، أو لعله تعمد أن ينسى أن المنوفية أنجبت زكى مبارك والمرحوم عبد العزيز فهمى وسعد مكاوى وأحمد عبد المعطى حجازى وعبد الرحمن الشرقاوى وكل الذى لفت انتباه المحافظ ان المنوفية تنجب أعظم أنواع العجول · ووكلاء الوزارة ··

ولكن هذه هى حقيقة الاجهزة الرسمية المسئولة عن الفن والادب من الفنانين والادباء · هذا الموقف الذى جعل شاعرا عظيما مثل عبد الحميد الديب يعامل كمتسول وبائس وفقير لاينبغى ان نصدر له ديوانا ولا يصح ان يكون له فى تاريخ أدبنا ·· تاريخ !

ولو وجد عبد الحميد الديب فى بلد مثل فرنسا ، لتألفت باسمه جمعيات وأقيمت ندوات ، ولأصبح له مطاعم يرتدى فيها الجرسونات ملابس المتسولين ، ويقدم فيها الطعام فى صحون من الفخار ، ولقامت جمعية للتأليف تحمل اسمه ودار نشر تهتم بمؤلفاته وتدرس ظروف حياته ومن خلالها تدرس ظروف عصره ·

وهذا الموقف نفسه هو الذى جعل رجلا مثل الدكتور ابراهيم ناجى ينام تحت تراب النسيان حتى غنت له أم كلثوم أغنية الاطلال • مع ان براهيم ناجى شاعر عظيم وصاحب مدرسة وفنان كان له أكبر الاثر على المدرسه الجديدة فى الشعر الحديث وهذا الموقف نفسه هو الذى أدى ويؤدى الى الاحتفال بشاعرة هايفة ليس لشعرها بكسر الشين ولكن لشعرها بفتح الشين !

وأبرز مثل على هذا بنت حلوة وبضة وبيضة وكالبطة ، وكان شعرهاسائح كالحرير، وجسمهاسائح كالسمنة ،وعقلها سائح كلوح ثلج فى شهر يونية • هذه البنت كانت تكتب شعرا أكثر سيحانا من عقلها وشعرها وجسمها البض السمين • ومن خلال هذا الشعر الهايف استطاعت ان يكون لها معجبين وأن يكون لها شهرة عريضة ، وأصبحت صورها وأخبارها مادة ثابتة فى الصحف اليومية • مع باب أين تذهب هذا المساء •

والتف حولها عشرات الشعراء والكتاب والادباء والصحفيين وصار بيتها ندوة لرجال الادب والفكر ، وصار لها فى المجتمع مكانة ومكان •

ولمعت الست البيضة المعجبانيا عدة سنين طويله ، وصار لها اكثر من ديوان وصدر عنها أكثر من دراسة • ولكن شهرتها الادبية أفلت عندما تسلل الشعر الابيض الى شعرها الاصفر ، وحفر الزمان تجاعيده فى جلد وجهها ، وذبلت العيون التى كانت تشع نورا ونارا تحرق قلوب المعجبين •

وأكم من ست معجبانية حدث لها نفس الشىء فى مصر • ولو فى بلد مثل انجلترا لوجدت هذه الست فرصتها كموديل تقف زلط ملط أمام فنان يرسم لوحة • ولكن لان الاشياء مختلطة ومتشابكة فى مصر فكل شىء ممكن وكل شىء ماشى وكل شىء عال •

رجل مثل زكى مبارك يذهب الى النسيان ، وست مثل بديعة مصابنى تصدر عنها كتب ، وعن فلسفتها دراسات !

حقيقة تؤكد ان الموهبة ليست طريق الفن ، ولكن هناك طرقا كثيرة ، ولكن أغربها هو الذى حدث لى شخصيا ، ولقد كان الذى حدث •• أغرب من الخيال •



١٧

احسست بأنني حصلت على فرصة العمر حين أصـــبحت مسئولا عن باب النقد الإدبى فى مجلة أسبوعية شـــهيرة • وشرعت قلمى من أول لحظة لأهــاجم الجيــل المــاضى من الأدباء الذين سبقونى • وكانت أول معاركى مع محمــد عبــد الحليم عبد الله •• وكان هجومى قاسيا ومريرا ، وقد أحسست بخجل شديد عندما التقيت بمحمد عبد الحليم عبد الله بعــد ذلك ، فعندما التقيت به تجهمت بشدة ، وتقلص جســـمى وتركزت نظراتى فى عينيه كأننى ثعبان يهم بالتهام فريسة • ولكننى حزنت جدا وشعرت بالخجل الشديد عندما واجهنى عبد الحليم عبد الله بابتسامة ، ومد يده نحوى فى بساطة ، وعاتبنى فى وداعه • ولم أعتذر أنا لعبد الحليم عبد الله ، ولكنى أحببته ، وأمسكت لسانى عنه بعد ذلك فلم أهاجمه قط • ولذلك حرصت كل الحرص فيما بعد أن ابتعد عن المشـــاهير من النــاس • لا أحضر اجتماعاتهم ، ولا أتزاور معهم ، حتى لايكون بينى وبينهم صداقة • فأنا من النوع الذى تأسره الصداقة وتتحكم فى مزاجه العلاقات الشخصية • وانا شديد الوفاء لكل من

ساعدونى فى بداية حياتى ، ولكل من قدم لى يدا بيضاء بددت قليلا من ظلام الطريق ! ٠٠

ولهذا السبب لم أرد على هجوم مأمون الشناوى حين هاجمنى بقسوة شديدة فى جريدة يومية منتشرة ٠٠ وقضيت أسبوعا بأكمله أعانى عذاب الحيرة والتردد ، ثم قررت فى النهايه أن أرد عليه ، وكتبت مقالا شديد القسوة لو نشر لعشت عمرى كله شديد الندم ، فعندما قرأت المقال شاب شعر رأسى لهول ما فيه ، لم يكن المقال من كلمات ولكن من سكاكين ، وعندما قرأته أكثر من مرة هدأت نفسى وبدأت أفكر فى الموضوع ٠

لقد كان مأمون الشناوى هو أول من مسح على جراحى فى بداية حياتى الصحفية ٠ وكان وسط غابة الصحافه كأنه شجرة تفاح تبسط ظلها وثمرها على الحيارى والضائعين ٠ ولذلك حملت مقالى وذهبت الى كامل الشناوى ٠ وقرأ كامل الشناوى المقال وتعجب ٠ الى هذا الحد نتعاركان معا وأنت ومأمون الشناوى شقيقان فى الحياة ، وانا شقيق مأمون بشهادة الميلاد ٠٠ هكذا قال كامل الشناوى وهو يلتقط سماعة التليفون ليتصل بمأمون ٠ وفعلا حضر مأمون فى بيت كامل الشناوى ٠ وقبل رأسى واعتذر ومزقت المقال وشعرت بارتياح بالغ ٠

ولقد عف على كالطير عدد من كتاب الصف العاشر وامطرونى بانتاجهم الوفير فى الادب والفن ٠ ولكننى لم أكن أحفل بهذا النوع من الادباء ٠ لان مدح هؤلاء المدعين جريمة ، والهجوم عليهم جريمة أكبر ٠ ولكن ابرز هؤلاء كان يعمل فى شركة كبرى لاعمال الكهرباء ٠ وكان منظره يوحى بأنه قاتل هارب من العدالة ، أوصول بوليس فى طريقه الى المعاش ! وكان لحظة التقائى به قد انتهى من تأليف كتابه الرابع ورغم ذلك لم يكن أحد يدرى به ، ولم يكن لكتبه وجود الا فى محلات البقالة ، ولقد نفذ الى نفسى من النقطة الضعيفة ، فقد حكى لى قصة كفاحة فى الحياة ، وهى قصة أشبه ماتكون بقصة حياتى ٠ فقد بدأ حياته عاملا فى الشركة ، ثم استطاع أن يصل بمجهوده وعرقه وكفاحه الى منصب مدير مبيعات فى الشركة نفسها ، ثم أصبح مؤلفا وله أربعة كتب ، وكلها روايات عن الحب والغرام ٠ قصة كفاح مدهشة ، ولكن أدبه حقير وفقير وحاجة تسد النفس وتغم الفؤاد ٠ وصاحبته باعتباره رجلا مكافحا

وليس باعتباره أديبا من الأدباء • ولكنه ظل يلح على أن أكتب عنه ولكنى رفضت بشدة •• كان قد تعرف على محرر شاب يعمل معى فى الصفحة الادبية • وقد لاحظت شدة اشفاق هذا الشاب على الاديب المزيف ، وشدة اهتمامه به وبكتبـــه على السواء • وذات يوم رأيت فى بروفة الصفحه خبرا عن هذا الأديب فقمت بشطبه • ولكن المحرر الشاب اتهمنى بالقسوة ، ورجانى أن أترك الخبر لان عدم نشره ســـيصيب الأديب اياه بيأس قاتل لايعرف احد مداه • وتحت تأثير المحرر الشـــاب تركت الخبر يمر • ولكن الأخبار بدأت تتكرر ، أخبار لا علاقه لها بأدب الأديب اياه ، ولكنها أخبار تحوى اسمه والسلام • خبر عن اعتزامه انتاج فيلم جديد ، أو خبر آخر عن قيامـــه برحله فى أوروبا • ورغم تأكد هذا الغبى ان الاخبار ليست صحيحة الا انه كان يبدى بها اهتماما عظيما ، وكان يسهر معنا حتى الصباح لكى يحصل على نسخة قبل موعد صدور المجلة بيوم • ولكن أخبار الاديب اياه انقطعت فجأة عن الصفحة • وراح الصحفى الشاب يهاجم الاديب بضراوة • ولم يلفت نظرى هذا الانقلاب المفاجىء فى علاقة الطرفين • ولكنى اكتشفت كل شىء فجأة عندما جاءنى الاديب أياه ذات مساء وهـــو يبكى ، وراح يحكى لى كيف أقنعه الصحفى الشاب بأن فى استطاعته أن يحقق له الشهرة الادبية •• ووزعت الصفقة بين الاثنين على أساس أن يدفع الاديب اياه ثمن الشهرة للصحفى الشاب • ودفع الاديب صاغرا ثمن الشهرة نقودا وأشياء أخرى عينية • ولكن الصحفى الشاب لم يقنع بعد فترة بالثمن الذى يدفعه الاديب المزعوم ، والاديب هو الاخر لم يعد قانعا بالاخبار التى ينشرها عنه الصحفى •

وعندما اختلف الاثنان ظهر المستور ولقد ذهب الاديب بعد ذلك فلم أره أبدا • غير انى كنت بين الحين والحين أرى مقالات فى نقده بقلم بعض « كبار » الكتاب ، وأحيانا اخرى أقرأ أخبارا عن نشاطه فى دنيا الادب ، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى ، هل تم النشر باتفاق مماثل أم ماذا ؟ ولكن يبدو أن المســـائل « ماذا » فى كثير مما ينشر فى الصحف والمجلات •

وهكذا بعد عشر سنوات كاملة منـــذ عـــام ١٩٤٥ الى عـــام ١٩٥٥ ، كنت قد تأكدت ان الصحافة ستصبح مهنتى من هنا والى الابد • وكنت قد حققت بعض الشـــهرة لدى القراء وكل

الشهرة لدى المشتغلين بالمهنة · ورغم اننى لم أكن عضـــوا بنقابة الصحفيين الا أن رأيى كان لـه وزن فى انتخـابات النقابة · ولقد خضت الانتخابات فى النقابة ذات مرة ضد جلال الحمامصي واستخدمت لســـانى فى المعـركة واثبت انه سلاح مارد وجبار · وخضتها مرة اخرى خلف طوغان ، ولكن التوفيق لم يحالفه ، واكتشفت على ضوء هذه المعركة انه لايكفى ان تكون شريفا وأمينا وصادقا لكى ينتخبك الناس ولكنى اكتشفت ان الانتخـابات مهنة ينجح فيهـــا الذى يتقنهــا · ولكن أغرب فصـــل انتخـــابى بارد صـــادفته كـــان فى نقابة الصحفيين ايضا · ولقد خضت المعركة بكل قواى فى صف عبد المنعم الصاوى ضد حسين فهمى · وكنت اعتقد ان عبد المنعم الصاوى دم جديد على النقابة ينبغى تأييده وانه وجه جديد وحسن ينبغى الوقوف خلفه الى مالانهاية · وقفنا ندافع عن عبد المنعم الصاوى كالفولاذ ، طوغان وسامى الليثى وانا ، ولكن قبل الانتخابات بايام وقف عبد المنعم الصاوى فى صالة نقابة الصحفيين يخطب بحماس وقد تشابكت يده مع يد حسين فهمى ، ونددبالانتهازيين عملاء الاستعمار الذين دفعوه دفعا لمنافسة زميله وحبيبه حسين فهمى ثم أعلن فى النهاية تنازله عن الترشيح وهكذا وجدت نفسى فجأة ، انتهازيا وعميـــلا استعماريا··ومن الذى يتهمنى؟الرجل الذى وقفت خلفه ادعو له بالنصر من كل قلبى ، وابذل دمى من اجله فى سبيل الانتصار

وفى ذلك العام أيضا ، عام١٩٥٥ ، قدر لىان اركب الطائرة لاول مرة وكانت اول رحلة لى الى الاقصر ، وعندما تســلمت التذكرة شعرت اننى تسلمت تصريح دفنى ·· فقدكانتالطائرة فى نظرى هى علامة الموت ولا شىء سواه · المصير الاغبر الاسود الذى سانتهى اليه ، ستصير جثتى بعد لحظة من الطيران طعاما لســـمك النيل ، او طعاما لدود الارض ولن يعثر لى على أثر وساذهب قبل الاوان شأن العباقرة والعظماء ·

وكان رجل هندى مخبول قد قرأ كفى ايام الحرب العالمية الثانية وقال لى وكانه يقرأ من كتابمفتوح ستحقق كل امانيك فى الحياة ، وستصل الى قمة المجد سريعا ولكنك ستموتقبل أن تصل الى الاربعين وكنت وقتئذ فى الخامسة عشرة من عمرى صبيا يتفجر غرورا وطيشا وعدم اهتمام بملاك الموت ··

ولكن عندما بدأت الايام تزحف بى نحو الاربعين راح خوفى يزداد وفزعى يشتد من النبوءة السوداء التى تنبأ بها هندى معتوه ومدينة الاسكندرية على مرمى مدفع من الالمان ·· المهم اننى ركبت الطائرة فى الصباح وجاء مكانى الى جوار رجل عجوز يرتدى ملابسه كاملة وطربوش طويل فوق رأسه وفى يمينه عصا كتلك التى كانت مع سيدنا موسى لداعى هش الغنم ومآرب اخرى · وعندما حلقت الطائرة فى الجو منعت نفسى عن الحركة حتى لاتهتز الطائرة فنسقط جميعا ونموت ·وعندماجاءت المضيفة بالشاى رفضت تناوله فقد خيل الى ان اى حركة ستجعل الطائرة تميد بنا وننتهى جميعا فى حقل من حقول القمح التى تمتد تحتنا على طول مجرى النيل ·وفجأة ارتفع صوت الميكرفون يعلن لنا ان الطائرة فوق أسيوط ثم فجأة اهتزت الطائرة بعنف ومالت ثم هبطت كانها تهوى على الارض · وهتفت فجأة وبذعر شديد يا خبر اسود الطياره حتقع وانتفض الرجل العجوز صائحا كأنما لدغته عقرب ، وهب واقفا مزمجرا وسب دينى ودين أجدادى ثم هبدنى بالقلم على وجهى · وخفت أن أرد عليه حتى لاتقع بنا الطائرة · فانتقلت الى مقعد آخر وظللت مستقرا فى مكانى كأننى تمثال الكاتب الجالس القرفصاء حتى وصلت الطائرة بسلام · ولقد ظلت هذه التجربة تملأ نفسى بالرهبه ، والخوف والدهشة معا ، فكيف تسنى للانسان أن يخلق مثل هذه الآلة الجبارة التى تحملك كبساط الريح عبر المدن والقرى والحقول وفى متاهات الفضاء الذى ليس له حدود ، لتحط بك فى مكان آخر بعيد · كيف يمكن للحديد أن يطير فوق الريح ، أهى حقيقة أم وهم أم حلم يقظة ·· لايزيد !

ولقد ركبت الطائرة بعد ذلك الف مرة · وركبت طائرات شتى ومن جميع الأحجام والاصناف ·· طائرات نفاثة تسابق الصوت ، وطائرات نقل جبارة ، وطائرات عسكرية ، وطائرات بجناح واحد ومحرك واحد مقطوعة النفس هزيلة الصحة مثل معزة المرحوم غاندى · ولكن خوفى من الطائرة لم يتغير · وحكمة الله أننى أخاف قبل السفر ، ويصيبنى صداع قاتل ، ولكن الخوف يتلاشى ويزول عندما أجلس فى مقعدى وتبدأ محركات الطائرة تدور · يخيل الى أنها نفس الحالة النفسية التى يمر بها المحكوم عليه بالاعدام · القلق والخوف قبل التنفيذ ولكن الهدوء يعود الى نفسه عندما يدخل حجرة الاعدام ، الهدوء

وربما الذهول ، ولكن النتيجة واحدة ، وهى أن القلق لم يعد له وجود فى حيـاة هـذا الانسـان • وانا بطبعى رجـل قلق لا أستطيع أن أعيش فى مدينة واحدة طول العـام • وأعشق السفر كتعبير عن حاجتى الشديدة الى شيء مجهـــول ! واكثر الاصوات شجنا الى نفسى صوت باخرة تقلع من الميناء فى الليل ويهزنى بقسوة صفير قطار فى الفجر ، ودائما أتمنى لو كنت واحدا من الذين يركبون فيه •

والسفر هو هوايتى الوحيدة ومتعة حيـاتى التى لا أشـعر بتخمة منها ، أشعر دائما أننى فى حاجة الى المزيد • وانا من النوع الذى لا يهوى الفرجة على الآثار ، ولا قضاء الوقت فى المتاحف ولكن أحب الحياة مع الناس • ولى فى كل بلد سافرت اليها أصدقاء وأحباء أحن اليهم وأشتاق الى رؤيتهم وأتمنى ان اذهب الى لقائهم بين الحين والحين • وعلى طول مالفيت وما نطيت فى الداخل والخارج الا اننى أسف وحزين ، لانى لم اذهب الى بعض بلاد مصر التى اتمنى لو تتاح لى ظروف زيارتها فى وقت قريب • انا مثلا حتى هذه اللحظه لم ازر مدينة المنيا • ولم اشاهد سوهاج الا خلال نوافذ القطار ، ولم يقع بصرى بعد على شاطىء السلوم • ولم اتفرج على واحة سيوة والواحة الوحيدة التى زرتها هى الواحة الخارجة ، وقد زرتها فى ظروف أتمنى على الله الاتعود ! واحب البلاد الى نفسى هى الجيزة لاننى عشت حيـاتى هناك ، ولمنطقة القناة منزلة خاصة فى نفسى وكذلك مسقط رأسى قرية قناطر القرنين منوفية حيث اشعر نحوها بحنين دافق فياض •

ولا اكره فى حياتى الا رؤية المقابر ولقاء رجل اكرهه • ولا اشعر بأحتقار فى حياتى الا للرجل الندل ، او لامرأة تخون بلا سبب • ولاأهتم فى حياتى الا بالطعام الجيد والملابس الفاخرة، ولكننى لا اشعر بأى رغبة فى اقتناء النقود ولا اسعى للحصول على شيىء اتركه لأولادى الا السمعة الطيبة والذكر الحسن • ولقد تعلمت من تجربة حياتى ان الميراث لا يصـــنع الرجال ولكنها التجربة والرغبة فى قهر الظروف السيئة • واذكر ان زملائى فى مدرسة الجيزة الأميرية قد نجح بعضهم فى الحياة وفشل بعضهم ولكن الفاشلين كانوا هم الذين يملكون عقارات واموالا طائلة وانا نفسى لم ارث شيئا الا القهر والديون ، ومع ذلك استطعت ان اخرج من مصيدة الحياة الضيقة !

شيء واحد فقط كان على ان احققه في عـــام ١٩٥٥ ٠ هو عضويه نقابة الصحفيين وكان الامر بالنسبه لى ســهلا ، فانا تتوفر لى كل الشروط وقدمت أوراقى وانتظرت ٠ ولكن هــذا الانتظار طال الى عدة اعوام ٠

ودخلت من اجل هذا المطلب المتواضع معارك وخضت حروبا وخلعت عددا من اضراسى من شدة الهم والغم الشديد ٠ ولكن لماذا حدثت كل هذه الوقائع والمعارك فى ســبيل أن انال حقا مشروعا لا ينكره على أحد ٠ لهذا قصة طويلة ، احتفظ بها الان وسأكشفهــا لكم عندما يحين الوقت لكتابة الجزء الثالث من مذكرات الولد الشقى ٠ والآن اختم هذا الجزء الثانى ، وارجو الا اكون قد سببت ازعاجا واذا كان احدكم قد صادف مللا من هذه المذكرات فعذرى اننى لم أقصد هذا العمل الردىء ٠كنت اريد ان ابسط امامكم صفحات من حياتى لعلها تكون عظة أو عبرة أو دافعا الى الضحك فى اوقــات الظهيرة او التثاؤب قبل النوم ٠

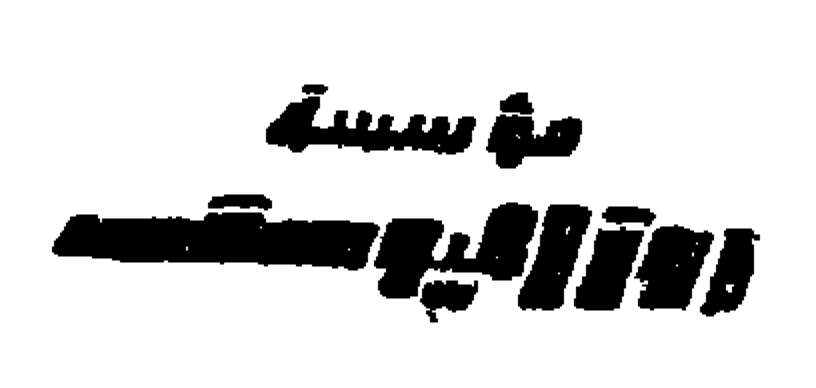
على أية حال ، شكرا لكم جميعا ٠٠ الذين انبسطوا والذين شعروا بالضيق ٠ شكرا لكم لأنكم صــبرتم على قراءة حياة مخلوق هايف لم يخترع قنبلة ذريــة ولم يكتشــف جرثومة السرطان ولم يحلق بصاروخ فى الفضاء الخارجى ، وارجو أن التقى بكم قريبا فى الجزء الثالث من مذكرات الولد الشــقى ، فإلى لقــاء قريب !

القاهرة ١٩٦٩



كتب للمؤلف

١ ــ السماء السوداء	.. .. ..	قصص قصيرة
٢ ــ جنة رضوان	.. .. ..	» »
٣ ــ بنت مدارس	.. .. ..	» »
٤ ــ الأفريكى	.. .. ..	» »
٥ ــ عزبة بنايوتى	.. ..	مسرحية
٦ ــ الاورنس	.. .. ..	»
٧ ــ النصابين	.. .. ..	»
٨ ــ فيضان النبع	.. .. ..	»
٩ ــ حتى يعود القمر	.. ..	رواية
١٠ ــ الأرزقية	.. ..	»
١١ ــ الظرفاء	.. ..	دراسة أدبية
١٢ ــ ألحان السماء	.. ..	» »
١٣ ــ الجزائر أرض اللهب	.. ..	دراسة سياسية
١٤ ــ الولد الشقى	.. .. ..	الجزء الأول
١٥ ــ الموكوس فى بلاد الفلوس	..	رحلة لبريطانيا
١٦ ــ السعلوكى فى بلاد الافريكى	..	رحلة لأفريقيا


مؤسسة
روزاليوسف


روزاليوسف

ولســوف تظل تلك الايام هى
أحلى أيام العمر وأقساها ولو قدر
لى العودة مرة أخــرى الى الحياة
لاخترت نفس الاحــداث ونفس
الاشخاص ونفس الطريق .. لانه
كان يلوح على اخر الطريق هدف
ثابت أسـعى اليــه بلا هوادة .
وبارادة من حديد .




Bibliotheca Alexandrina
0622900

طبع بمطابع روز اليوسف